

تاريخ العرب في اسبانيا

﴿ تأليف وترجمة ﴾

محمد دياب بك

(الذى كان مفتشا بنظارة المعارف)

طبع بالمطبعة الجمالية بحارة الروم بمصر

سنة ١٣٣١ هـ — ١٩١٣ م



﴿ تأليف وترجمة ﴾

محمد دياب بك

(الذى كان مفتشا بنظارة المعارف)

طبع بالمطبعة الجمالية بحارة الروم بمصر

سنة ١٣٣١ هـ — ١٩١٣ م



لله أمة العرب ! أمة أخرجها الاسلام من ظلمات الجهالة الى نور العرفان ، ورفعها من حضيض الخمول الى أوج الظهور ، فوضعت أصولا تقوّم لسانها ، ودوّنت معجمات تجمع شتات لغتها ، واستنبطت شريعة من القرآن والسنة ، فأخذ الناس بأحكامها ، فاستقامت شؤونهم فى هذه الحياة ، وضربت بسهام فى علوم شتى كالطب والفلسفة والمنطق والرياضة والهيئة ووصف الارض وما عليها . ولم تقف عند هذا الحد بل عرّبت علوم اليونان . وكانت مدارسها فى بغداد وقرطبة والقاهرة وأصفهان وسمرقند وغيرها وسائل لنقل هذه العلوم الى أوربا فاستضاء أهلها بنبراسها وهبّوا من سباتهم . وقد امتد سلطان الامة العربية شرقا وغربا من نهر الكنج الهندى الى ... الا ...



اليكم يابني مصر كتابا * حوت آياته سحر البيان

حوى تاريخ اندلسٍ قديما * وكان ذووه عُرْبَ القَيْرَوان

تروا ملكا كبيرا شيّدوه * وقد لعبت به أيدي الزمان

نعم بقيت لهم آثار مجد * تدل على حياة ذات شان

تموت الناس تاركةً رسوما * توقفنا على كنه المعاني

المؤلف

فرنجى : فأجهزت على مملكة الاكاسرة ، ودهورت دولة الرومان ، وقضت على سلطنة القوط فى اسبانيا ، ونقصت من أطراف بلاد الغال .

كل هذا تراه مبسوطا في كتب التاريخ العربية والفرنجية الا أن تاريخ دولة العرب فى اسبانيا فى الاولى أقل استيفاء من تاريخ دولهم فى المشرق . تراه فيها مبعثرا مفقود بعض الحلقات كعقد مختلف حبه نوعا وشكلا انفرط لوهن سلكه فتبدد وضاع بعض الحب . وقد رأينا مؤرخى الفرنج يوسعون القول فى تاريخ هذه الدولة مع الترتيب والتنسيق والتدقيق قارنين الحوادث بأسبابها ، وقد أتوا على أمور كثيرة اغفلها غيرهم لاسيما المؤرخ كندى الاسبانى [١] والمؤرخ رومي الفرنسى فقد أتيا بالعجب العجاب مما تشتاق اليه النفوس ويلذ سماعه الآذان ونعلم منه ما بلغته الدولة العربية الاسبانية من

---

(١) نقل تاريخه من الاسبانية الى الانجليزية السيدة (جوناثان فوستر) وما أخذناه منه عربه من الانجليزية ولدنا على مراد أفندي

عظمة الملك والرقيّ في العلوم والفنون والصناعات واقام العدل بين الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ، وكانت حضارتهم أساسا بنت عليه أوربا حضارتها .

من أجل ذلك عنّ لي أن أضع مصنفا في تاريخ هذه الدولة جامعا لشذراته المتفرقات ، مستخلصا الحقائق من تبرها ، ناصّا على الفروق بين طيّبات الاقاويل وزيوفها ، معتمدا على مآخذ شتى عربية وفرنجية كتواريخ ابن الاثير وابن خلدون والمقري وابن عذارى وعبد الواحد المرّاكشي ورومي وكندي ودوزي . فتم وافيا بالغرض المقصود في سنة ١٣٣٠ لهجرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسنة ١٩١٢ لميلاد عيسى عليه السلام ، في عصر تبوأ فيه أريكة ملك مصر سمو عزيزها العظيم الشان ، مولانا ﴿ عباس حلمي الثاني ﴾ أيّد الله دولته ، وأسعد به أمته . والحمد لله على الكمال ؟

محمد دياب

اسبانيا قبل الفتح الاسلامى

١ اسبانيا تكاد أن تكون هى والبرتغال جزيرة فى جنوب اوروبا الغربى والعرب يسمونها جزيرة الاندلس . فى شمالها الشرقى فرنسا مفصولة عنها بسلسلة من جبال البرانس PYRÉNÉS أو جبال البرت أو البرتات او جبال الابواب (١) وفى جنوبها مراكش يفصلها عنها مجاز جبل طارق وفى غربها البحر المحيط وفى شرقها البحر الرومى او

---

١ فى دائرة المعارف «البرانس جبال تفصل فرنسا عن اسبانيا» وفى الجزء الاول من نفح الطيب ص ٦٦ المطبوع فى المطبعة الميرية «فى الحاجز الذى يفصل بين الاندلس والارض الكبيرة جبل البرت وفيه الابواب التى فتحها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ولم يكن الاندلس من الارض الكبيرة قبل ذلك طريق فى البر» وفيه ص ٦٧ «بين البحر المحيط والبحر المتوسط البر الذى يعرف بالابواب وهو المدخل الى بلاد الاندلس من الارض الكبيرة ومسافته بين البحرين مسير يومين» اه ولفظة (برت) أفرنجية معناها الباب عربت وجمعت على (برتات) — جاء فى نزهة المشتاق فى الجزء الاول من الاقليم الخامس «يسد مابين البحر المظلم وهو بحر الانقليشين وبحر الشام جبل عظيم يمتد من مدينة بيونة الى أرض برشلونة يسمى جبل البرتات ويحجز بين بلاد الاندلس وبلاد الافرنجيين وطول هذا الجبل من الشمال الى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام وفيه أربعة ابواب احدها فى ناحية برشلونة ويسمى برت جاقة وثانيها يسمى اشمرة وثالثها برت شازرو ورابعها برت بيونة ويتصل بكل برت منها مدينة فى الجهتين فما يلى برت شازرو مدينة بنبلونة» . وقد وهم من سمى هذه الجبال بالبرن أو البرنات بالنون بعد الراء وأما لفظ (برانس) فيقرب من اللفظ الاسبانى

بحر سفيد المعروف بالبحر المتوسط

٢ أوائل سكانها قوم يعرفون بالايبيريين IBÉRES ولذا كان يطلق عليها اسم ايبيريا IBÉRIE وقيل أن هذا الاسم مأخوذ من اسم نهر فيها كان يسمى ايبير IBER وهو ابره EBRE الآن

٣ ثم اهتدى اليها تجار الفنيقيين قبل المسيح بعدة قرون (١) حين ملاحتهم على شواطئ افريقية ووصولهم الى المجاز الفاصل بين القارتين فدخلوها وراقهم جمال أقليمها وشاهدوا خصب أرضها وغنى معادنها فكانوا يترددون اليها ويقدمون للأيبيريين عروض تجارتهم قايلة القيمة ولكنها جميلة الصنع كأوان زجاجية وأقمشة منقوشة وملابس موشاة وحلى للنساء ويبيعونها بمعادن الذهب والفضة والحجارة الكريمة والانبذة والاصواف أى بأنفس ثمرات البلاد . ولهذا الغرض اقاموا فى أرضها مدائن ذات اسواق تجارية وأنشؤا على شواطئها نزلات بحرية كنزلة قادس CADIX وكانوا يعيشون مع قبائلها على صفاء ووداد لا سيما من لهم شأن فى توسيع تجارتهم

وقد سرت فى أهل ايبيريا حضارة الفنيقيين وفنونهم ولغتهم وأخلاقهم وكذا عبادة معبودهم هرقول ولذا كان يطلق على جبل طارق وجبل سبته عمودا هرقول LES DEUX COLONNES D'HERCULE وكان القدماء يعتبرون أنهما الحد الغربى للأرض بأسرها

---

(١) قبل خمسة عشر قرنا وقيل اثنا عشر وقيل عشرة قرون وقيل سبعة

ومن عصرهم غلب اطلاق اسم (اسبانيا) على (ايبيريا) قال رومى المؤرخ ماتعريبه بتصرف « تضاربت الأقوال فى اشتقاق هذا الاسم والذى يغلب على الظن منها انه مأخود من لفظة (اسبان SPAN) الفنيقى ومعناه المحتجب او المستور فان هذه البلاد كانت بعيدة عن الفنيقيين ومحتجبة عن انظارهم فى نهاية الارض جهة الغرب وقيل سموها بذلك لانهم رأوا فيها الارانب كثيرة والأرنب بلغتهم (إسبان) أيضا واختار الرومان ذلك فان وسام (أدريان ADRIEN) الامبراطور الرومانى (من سنة ١١٧ م الى سنة ١٣٨م) صورت فيه اسبانيا بصورة امرأة بجانبها أرنب واليونان سموها (هسبيريا HESPERIA) أى بلاد الغرب بالنسبة الى بلادهم فان لفظ (هسبيرا HESPÉRA) معناه باليونانية المساء أو الغرب » وقال فى موضع آخر « كانت حكومة الفنيقيين فى اسبانيا جمهورية ومستعمرة قادس الزاهرة حاضرتهم لكنها لم تكن كرسى حكومة مركزية لها سلطة مطلقة على المستعمرات الاخرى البحرية بل كان يربط بعضها ببعض الاتحاد فى الاصل والاشتراك فى المنافع وكانوا من بين الامم السالفة يرجعون فى منازعاتهم الى المناقشات التى تؤدى بهم الى مصالحات عادلة دون استعمال السلاح ولم ينزعوا قط الى الحكم الملكى على سكان اسبانيا »

٤ لم تدم للفنيقيين الأثرة بالتجارة مع قبائل اسبانيا بل زاحمهم

فيها اليونان (١) فتركوا لهم الشاطىء الشرقي منها

٥ وفى القرن الخامس قبل الميلاد جاء القرطاجيون (٢) واحتلوا نزلات الفنيقيين وانشؤا نزلات جديدة منها برشلونه وقرطاجنه BARCELONE, CARTAGÉNE (٣)

٦ ثم حكمتها الرومان سنة ١٣٤ ق م وبقيت تحت حكمهم الى سنة ٤٠٦ بعد الميلاد حيث أغار على رومة ثم اسبانيا قبائل مختلفة بربرية جاءت من شمال أوروبا منهم السواف أو السوافيون SUÈVES والفندال أو الفنادله VANDALES

٧ ثم أدرك السوافيين والفنادلة القوط (أو الغوط أو الغوثيون) GOTHES ويقال لقوط اسبانيا الويزيقوط VISIGOTHES أى قوط الغرب فدفعوا السواف الى الشمال والفندال الى الجنوب فأخذ من اسمهم اسم فندالبسيا VANDALICIA للجهة التي احتلوها فحرفه الاسبانيون الى اندالوشيا وعربه العرب بالاندلس ثم دفعوهم الى افريقية وأسس القوط فى أسبانيا دولة عظيمة قاعدتها طليطله TOLÉDE ووضعوا لها نظامات وقوانين جديدة وأجابوا الدعوة الى النصرانية سنة ٥٨١م

---

١ المراد يونان آسيا لا يونان أوروبا فان هؤلاء لم يكن لهم مستعمرات في اسبانيا

٢ نسبة الى قرطاجة وهي مدينة فى شمال افريقية أسسها الفنيقيون في القرن السابع قبل الميلاد

٣ فى شرق اسبانيا على البحر الابيض المتوسط ومعناها قرطاجة الجديدة

هذا والحروب الاهلية بين امرائها مهدت السبيل الى استيلاء المسلمين عليها فى القرن الثامن للميلاد سنة ٩٢ للهجرة وكان آخر ملك من ملوكهم يسمى ردريك ومؤرخوا العرب يسمونه رذريق او لذريق قتل فى واقعة شريش XERÈS سنة ٧١١ م و بعد هذه الواقعة التجأت شرذمة من القوط تحت قيادة الامير بلاى PÉLAGE الى ولاية استوريا ASTURIE نحو الشمال وتحصنت هناك من غارات العرب عليهم. قال ابن خلدون « كان هذا القطر الاندلسى من العدوة الشمالية من عدوتى البحر الرومى و بالجانب الغربى منها يسمى عند العجم (غير العرب) الاندلوش وتسكنه امم من افرنجة المغرب أشدهم وا كبرهم الجلالقة وكان القوط قد تملكوه وغلبوا على أمله لمئين من السنين قبل الاسلام بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على ان ينصرف القوط الى الاندلس فصاروا اليها وملكوها ولما اخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا مَنْ وراءهم بالمغرب من امم الفرنجة والقوط عليها فدانوا بها وكان ملوك القوط ينزلون طُلَيْطُلَه وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة واشبيلية وماردة وأقاموا كذلك من نحو أربعمائة سنة الى أن جاء الله بالاسلام والفتح وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق وهو سمة ملوكهم كما أن جرجير سمة لملوك صقلية » اهـ

بمقارنة عبارة ابن خلدون هذه بما سبق يؤخذ أن المراد بالجلالقة

الاقوام التى كانت تسكن شمال اسبانيا وأن اللطينيين هم الرومان وأن الروم هم اليونان وقوله أن لذريق سمة لملوكهم وهم فانه علم شخص على آخر ملوكهم

فتح المسلمين اسبانيا

٨ (سبب الفتح) فى سنة ٨٨ للهجرة (١) عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الاموى الى موسى بن نُصَير بولاية بلاد المغرب (افريقية الشمالية) فنزل القَيْروان وحارب طوائف البربر وأخضع قبائلهم فى زمن وجيز وعلّم أهلها الدين والقرآن وأخذ رهائن من قبائل مصمودة وصنهاجه وكتامة وهوّارة وحاصر طنجة وفتحها واستعصت عليه قلعة سبتة فنجت من جيشه وكان حاكمها وقتئذ يوليان JULEAN من قِبَل ملك اسبانيا غيطشه WITIZA وكان من اسرته

عاد موسى من غزواته الى القيروان و بلاد المغرب خاضعة لسلطانه. أهلها يدفعون الجزية أو دخلوا فى دين الله ومن هؤلاء أهل طنجة فانهم اسلموا و بلغت حاميتها ١٩ الف فارس من المسلمين تحت قيادة طارق بن زياد البربرى

فى هذا الحين كانت مملكة اسبانيا ضعيفة الشوكة مزعزعة الاركان لقيام الثورات وانقسام الاهلين الى احزاب وتباينهم فى

١ كذا فى ابن حيان وفي ابن الاثير سنة ٨٩

الاغراض وعدم ملاءمة قانونهم المتخذ من قانون الرومان وعادات الجرمان وفَرْضِ القسوس على الرعايا ضرائب فادحة أثقلت كواهلهم لذلك خلعوا ملكهم غيطشه وقتلوه وانتخبوا آخر يسمى رذريق RODRIC ملكا عليهم وليس من بيت الملك بل من قوادهم وكان أولاد الملك المقتول وشيعتهم يترقبون الفرص للايقاع برذريق واسترداد المملكة اليهم وزاد الطنبور نغمة أن دنّس رذريق عرض يوليان (١) ونشأ عن ذلك أن أذعن حاكم سبتة لطاعة موسى وحرّضه (٢) على فتح اسبانيا ووعده المساعدة وكشف له الغطاء عن سياستها الداخلية وأفهمه أن الاسبانيين ناقمون على رذريق لانه اغتصب المملكة من ملكها الشرعى غيطشه وان أولاد الملك المقتول يودون لو ينصرهم عليه وكاشفوه بهذا الامر سرا فاستأذن موسى الخليفة فى غزو الاندلس فاذن له

---

١ أنظر نفح الطيب صحيفة ١١٩ من طبع بولاق

٢ قال المؤرخ رومي (يروى لان فريقا من نصارى اسبانيا كانوا يحقدون على الملك رذريق فجاؤا وحرضوا موسى على فتح بلادهم واظهروا له سهولة الاستيلاء عليها وأن يساعدوه على ذلك بما فى استطاعتهم فاسر الامر فى نفسه زمنا واستخبر سرا عن حالة اسبانيا واهليها وغنى البلاد ونظام حكومتها وقوة ملكها والخصومات والمداوات القائمة بين أحزابها وان يوليان حاكم سبتة هو الذى نقل اليه جميع مايحتاج الى معرفته بالضبط وكشف له حالة الشعوب الاسبانية واختلال حكومة الملك رذريق وظلمها وكراهة الرعايا اياه وانهم يعدونه غاصبا المملكة من القوط وأن هذا الفريق أولاد غيطشة ومن على شاكلتهم)

٩ (غزوة طريف) فى رمضان سنة ٩١ للهجرة (٧١٠ للميلاد)
ارسل موسى بن نصير طريف بن مالك البربرى فى مائة فارس وار بعمائة راجل لغزو بلاد الشاطىء الجنوبى من الاندلس فجازوا البحر فى السفائن وغزوا بعض الثغور الجنوبية بمعونة يوليان و باسم القائد سميت مدينة طريف التى هى فرضة على المجاز ثم عادوا بغنيمة جايلة (١)

هذه الغزوة كانت مقدمة الفتح يجس بها موسى نبض الاندلس

فتح طارق بن زياد اسبانيا (٢)

١٠ فى سنة ٩٢ للهجرة (ابريل سنة ٧١١ للميلاد)

---

١ فى نفح الطيب صحيفة ١٢٠ (كتب موسى بن نصير الي أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه اليه يوليان من أمر الاندلس ويستأذنه فى اقتحامها فكتب اليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال فراجعه انه ليس ببحر زخار وانما هو خليج يبين منه للناظر ما خلفه فكتب اليه وان كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البرابرة اسمه طريف فى أربعمائة رجل معهم مائة فارس سار بهم فى أربعة مراكب فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الاندلس المعروفة بالخضراء التى هى اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ويقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله بها وأقام بها أياما حتى التأم اليه اصحابه ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا ومالا جسيما وامتعة وذلك فى شهر رمضان ٩١ للهجرة)

٢ قال رومي المؤرخ « أن طارقا كان عاملا على طنجه من قبل موسي فلما

جهّز موسى نحو ١٢ ألفا تحت امرة طارق بن زياد لفتح الاندلس فتوجهوا ومعهم يوليان وعبروا مجاز هرقول (١) في السفائن ونزلوا جبلا يسمى اليوم جبل طارق وفتحوا حصن قرطاجنة وكان فى سفح هذا الجبل ثم انهم انسابوا فى أرض الاندلس وكان العامل عليها يقال له « تدمير » فأرسل يخبر الملك (٢) رذريق ويستنجده فجاء هذا بجيش يبلغ على ما يروى ١٠٠ ألف جندي واجتمع الجيشان

انتخبه قائدا أقام مقامه ابنه مروان بن موسى وكان الجيش مؤلفاً من ١٢ ألف بربري من حامية طنجة وبعض مئات من العرب أبحروا فى السفائن ومروا من طنجة الي سبتة ومن هذه الي الشاطيء المقابل ويظهر ان يوليان كان يرشدهم فنزلوا جزيرة صغيرة ظهر لهم من بعد انها كالخضراء فسموها الجزيرة الخضراء واستولوا على جبل مجاور لها وتحصنوا فيه فسمي أولا جبل الفتح ثم أخذ اسم الفاتح فسمي جبل طارق

(١) يقال ان طارقا بعد أن عبرت جنوده المجاز أحرق السفائن كي يقطع من عساكره أمل التقهقر وان يختاروا اما الفوز واما الموت

(٢) قال روي المؤرخ انه كتب اليه ما تعريبه

« مولاي

حل بأرضنا قوم لا ندرى أهبطوا من السماء أم نبعوا من الارض هاجموني فقاومتهم بكل قواى لادفع غائلتهم ولكن اضطررت الي التقهقر لكثرة عددهم وبسالتهم فأرجوك يامولاى ان تجيء بنفسك مسرعا ومعك ما في وسعك حشده من الجنود »

هذا الخطاب أوقع الرعب في قلب الملك فجمع وزراءه وقواده ٠٠٠٠ ووجه نخبة فرسانه لينضموا الي جيش تدمير وسار الجمع نحو جيش طارق فوقع بين الجيشين مناوشات كان فيها الخذلان دائماً للقوط

على شواطئ (وادي لـكه (١) Guadalète) بالقرب مدينة سدونة القديمة التي بني في محلها الآن مدينة شريش فلما رأى طارق كثرة العدد كتب الى موسى يستنجده فأرسل اليه خمسة آلاف فارس من البربر

اصطف المسلمون والكثير منهم يمتطي متون الخيل عليهم الزرد وفوق رؤسهم العمائم البيض وبأيديهم القسيّ العربية وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح والاتحادُ ملء أفئدتهم والحماسة تغلي في صدورهم وكلهم اخلاص لقائدهم الاكبر طارق يرمون الي غرض واحد اما الفوز واما الموت

والقوط بين مشاة وفرسان معتَدُون بالدروع والدرق والحراب والفؤس والمناجل والمقاليع قلوبهم شتّى

وقبل اشتباك الفريقين خطب طارق يحرض جنده فقال « أيها الناس . أين المفر . البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله

وفي غضون ما كان يجمع رذريق جنوده من مقاطعاته ويعد للمسلمين ما استطاع من قوة وينادي القوط والرومان ليتحدوا ويدافعوا عن حوزة بلادهم كان جيش طارق يكر بين الجزيرة الخضراء وسدونة وشواطيء نهر يانه ناشرا لواء الفزع والرعب في أفئدة الاهلين المأخوذين من هجوم ما كانوا يتوقعونه فجاء رذريق بجيش جرار لكنه قليل الدربة على الطعن والنزال واجتمع الجيشان على شواطيء وادي لـكه Guadalète بالقرب من مدينة سدونة القديمة التي بني على اطلالها مدينة شريش المشهورة الآن عند الاوروبيين بكروها

(١) ويقال أيضا نهر لـكه كما في ابن الاثير ووادي لطه

الا الصدق والصبر واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وان امتدت الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن انفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لانفسكم بالموت واني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خُطَّة أرخصُ متاع فيها النفوس أبدأ بنفسي واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفه الالذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيها بأوفى من حظى وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين واعلموا أنى أول مجيب الى ما دعوتكم اليه واني عند ملتقى

الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم رذريق فقاتله ان شاء الله تعالى فاحملوا معي فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليـه وان هلكت قبـل وصولي اليه فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بانفسكم عليه واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون » (١) فلما سمعوا كلام طارق ثارت حميتهم ووطدوا نفوسهم على الموت في قتال عـدوهم وكان جيش طارق يظهر انه كثير العـدد اذ قسمه الى طوائف ليلقي الرعب فى قلوب أهل الاندلس وانضم اليه يهود اسبانيا والنصارى الذين هم من حزب يوليان ثم التحم الجيشان ووقعت معركة هائلة استمرت ثلاثة أيام (٢) ودارت فيهـا الدائرة على جيش رذريق فتفرق شـذر مذر (٣)

---

(١) نفح الطيب ج ا ص ١١٣ و ١١٤

(٢) من تاريخ رومى Romey (ص ٣٩ ج ٣) ان القتال استمر يومين بدون أن يرجح أحـد الجيشين على الآخر وفى اليوم الثالث ضعفت عزائم العرب وأرادوا النكوص الا ان طارقا بادر الى الصفوف وصاح في جنوده قائلا « أين المفر البحر وراءكم والعدو امامكم فلا مخلص لـكم الا شجاعتكم اتبعوني سأهجم على ملـكهم واقتله أو يقتلني » ثم ألقى بنفسه وألقوا بأنفسهم معه في جيش القوط فاختل نظامه وفشلت جنوده وعرف طارق رذريق بشاراته الملوكية فهجم عليه بين حراسه وطعنه برمحه فى صدره فخر صريعا —

(٣) قال المؤرخ رومى (ص ٤١ ج ٣) « ما كانت شجاعة العرب قاضية وحـدها بفوزهم فانهم في اليوم الثالث انثنوا عن عزمهم وحدثتهم أنفسهم باليأس من النصر الا انه جاء سـفير تحت جنح الظلام أبلغ طارقا ان ابني غيطشة وعمهما أوباس مستعدون لان ينضموا الى صفوفه على شرط أن يتركهم بعد انتصاره يحكمون

جاء في ابن الاثير « وكان على ميمنة رذريق وميسرته ولدا الملك الذى كان قبله وغيرهما من ابناء الملوك واتفقوا على الهزيمة بغضا لرذريق وقالوا ان المسلمين اذا امتلأت ايديهم من الغنيمة عادوا الى بلادهم وبقي الملك لنا فانهزموا وهزم الله رذريق ومن معه وغرق رذريق فى النهر » ويروى ان طارقا قتله — ثم ان طارقا اقتفى اثر المنهزمين نحو نهر يانه واخضع عدة بلاد في زمن قريب

لما جاء موسى خبر هذا النصر المبين أخذته الغيرة وخشى أن ينسب فتح اسبانيا الى طارق وحده فجهز جيشاً قوياً الى اسبانيا وكتب الى طارق أن يقف فلما جاء هذا كتاب موسى حدثته نفسه أن يطيع أمر والى افريقية لكن رأى الموقف حرجا وان فى الطاعة مضاعفة الخطر عليه حيث خشى ان يترك للمنهزمين زمناً تتجمع فيه جموعهم وتتحد كلمتهم ويعيدون الكرة على المسلمين فجمع رؤساء الجيش وبلّغهم كتاب الوالى فأجمعوا رأيهم ان الوقوف فى المقام الذى هم فيه غير مناسب وانه يجب انتهاز الفرصة فى إبّانها وعدم ضياع الزمن النفيس واقتفاء أثر المنهزمين

القوط كما كان يحكمهم أبوهما وجدهما وان يكتفي بالجزية وبجزء من أرض اسبانيا فقبل طارق ذلك . وفى الغد انضم اليه الاسقف (أوباس) وابنا أخيه والفرق التى كانت تحت امرتهم

قال المؤرخ المذكور لو كانوا حددوا هذا الجزء لكان على حسب الظاهر البلاد المجاورة للمجاز (اقليم الاندلس)

أخذ طارق بمشورتهم واستمر فى نصراته حتى فتح مدينة استجة (١) ECIJA بعد مقاومة شديدة ثم قسم جيشه الى ثلاث فرق الاولى تحت إمرة مغيث الرومى ووجّهها الى قرطبة والثانية يرأسها زيد ابن قاصد السكسكى وسيّرها الى مالقه ورأس هو الثالثة (٢) وتوجه بها الى طُلَيْطُله من طريق جيّان - اما مغيث فقد فتح قرطبة بطريقة غريبة فى بابها حديثها يطول (٣) واسر علجها اثناء فراره الى طلَيْطُلَه وابقى عليه ليقدم به على أمير المؤمنين حتى ينال بذلك الفخر العظيم واما زيد فقد فتح مالقه MALAGA والبيرة ELBIRA بدون مقاومة ثم لحق بطارق

واحتل طارق طُلَيْطُله TOLÈDE عاصمة الملك بلاقتال وأصدر أوامر صريحة تمنع الجنود من النهب والاعتداء وتهدّىء روع الاهلين وتخوّل لهم الحرية فى دينهم والتمتع بأموالهم والتقاضى عند قضاتهم على شرط أن يدفعوا الجزية فى كل سنة وكانت تختلف من خُمْس الاموال المتحصلة الى العُشْر وكانت أقل مما كان يجبيه منهم القوط وكان

١ يقال ان الذى فتح استجه هو زيد بن قاصد — يقول بعض المؤرخين استجه بالتاء بعد السين وفى تاريخ ابن غذاري المراكشي (اسجة) بدون تاء (الجزء الثاني صحيفة ١١)

٢ يقال ان فرقة طارق كانت الرابعة وان الثالثة هي التى ذهبت الي مدينة البيرة (غرناطه) — والذي يظهر ان زيدا قسم فرقته الى قسمين قسم **ذهب** الى مالقة والآخر الي غرناطه ثم اجتمع القسمان ولحقا طارقا

٣ أنظر نفح الطيب

يترك في كل مدينة مفتوحة حامية مختلطة من يهود البلاد والمسلمين (١)
بعد أن وطّد طارق دعائم السلام في طُلَيْطُلة اتجه نحو الشمال مقتفياً
أثر الفارّين فوصل الى وادى الحجارة GUADILHIDGIARA
وعبره يريد جبال وادى رامه GUADORAMAS فاخترقها من
واد سمى فج طارق BUITROGO واستولى على مدن خلفها منها مدينة
سالم MÈDINA CELI وهى التى أحرز منها على ما يروى المائدة
الشهيرة المنسوبة الى سليمان وعاد الى طليطلة مثقلا بالغنائم

جاء في نفح الطيب نقلا عن الرازى «ان ملاقاة جيش طارق ورذريق
كان يوم الاحد لليلتين من شهر رمضان فاتصلت الحرب بينهما الى يوم

---

١ قال روي المؤرخ ص ج ٣ ما ترجمته «كانت شروط العرب اذا فتحوا
مدينة (١) أن يضربوا على أهلها خراجا سنويا أما خمس الاموال المتحصلة من
الارض والعقار وأما العشر (٢) وان يأخذوا رهائن (٣) وأن ينزعوا السلاح من
الاهلين (٤) وأن يستأثروا بالخيل ودواب النقل (٥) وان يستولوا على أموال
النازحين عن الوطن وكانوا يتركون للسكان املاكهم من أى نوع كانت ويمنحونهم
الحرية الدينية لكن يشترطون عليهم أن تكون عبادتهم في الكنائس خاصة
وأن لا يمنعوا من يرغب في الاسلام عن الدخول فيه»
وقال أيضا ص ٥٣ ج ٣ «دخل طارق وحرسه قصر الملك المبنى فوق ربوة
مشرفة على نهر التاجة *LE TAGE* فجمع منه اموالا طائلة وامتعة نفيسة يقول
بعض المؤرخين انه وجد في حجرة من القصر خمسة وعشرين تاجا من الذهب مزينة
بالسوسن والحجارة القيمة النادرة الوجود وكان عدد التيجان عدد ملوك القوط
الذين حكموا اسبانيا الي رذريق وكان عادة القوط اذا مات الملك ان ينزعوا تاجه
ويكتبوا عليه اسمه وسنه وعدد السنين التي حكمها»

الاحد لخمس خلون من شوال بعده تتمة ثمانية أيام ثم هزم الله المشركين فقتل منهم خلق عظيم وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب فى أصابعهم ودون دونهم بخواتم الفضة وعبيدهم بخواتم النحاس فجمع طارق الفىء وخمسه ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والاتباع ...
ثم اقبل حتى نزل بأهل مدينة مدونه فامتنعوا عليه فشد الحصار عليهم حتى نهكهم وأضر هم فتهيأ له فتحها عنوة فحاز منهم غنائم ثم مضى منها الى مدور ثم عطف على قرمونه ثم مال على اشبيليه فصالحه أهلها على الجزية ثم نازل أهل استجة وهم فى قوة ومعهم فل عسكر رذريق فقاتلوا قتالا شديدا حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ثم ان الله تعالى أظهر المسلمين عليهم فانكسروا ولم يلق المسلمون فيما بعد حرباً مثلها وفتحت المدينة وضرب على أهلها الجزية . . . قال يوليان لطارق قد فضضت جيوش القوم ورعبوا فاعمد الى بيضتهم وهؤلاء أدلاء من أصحابى مهرة ففرّق جيوشك معهم فى جهات البلاد واعمد أنت الى طلَيْطُله حيث معظمهم فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم والاجتماع الى أولى رأيهم ففرّق طارق جيوشه معهم من استجه فبعث مغيثا الرومى مولى الوليد بن عبد الملك الى قرطبة وكانت من أعظم مدائنهم فى سبعمائة فارس لان المسلمين ركبوا جميعاً خيل العجم ولم يبق فيهم اجل‍ و بعث جيشاً آخر الى مالقه وآخر الى غرناطه مدينة البيرة

وسار هو في معظم الناس الى كورة جيّان يريد طلَيْطله — أما مغيث فقد فتح قرطبة ثم جمع يهودها وضمهم الى مدينتها استنامة اليهم دون النصارى واختار القصر لنفسه والمدينة لاصحابه . وأما من وجّهوا الى مالقه ففتحوها ثم لحقوا بالجيش المتوجه الى البيرة فحاصروا مدينتها غرناطه ثم افتتحوها عنوة وضمّوا اليهود الى قصبة غرناطه وصار ذلك لهم سُنّة في كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها (١) (ومضى الجيش الى تدمير وتدمير اسم العلج صاحبها سميت به واسم قصبتها اريوله فصالحوه بعد قتال شديد وسلمت كورة تدمير من معرّة المسلمين) ومضى معظمهم الى أميرهم طارق لفتح طليطله فالفاها خالية قـد فرّعنها أهلها ولجؤا الى مدينة خلف الجبل فمضى خلفهم فسلك وادى الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمى به بعد فبلغ مدينة المائدة المنسوبة الى سليمان بن داود وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها ودخلها وكان لها ثلثمائة وخمسة وستون رجلا فأحرزها عنده ثم مضى الى المدينة التى تحصنوا بها فأصاب حليا ومالا ورجع الى طليطله سنة ٩٣ »

﴿ تتميم موسى فتح اسبانيا ﴾

(١١) أعَدّ موسى لغزو الاندلس بنفسه عشرة آلاف فارس وثمانية

---

١ قوله ومضي الجيش الى قوله من معرة المسلمين لايلتئم مع ماهو مذكور في التواريخ الافرنجية من أن الذى قاتل تدمير هو عبد العزيز بن موسى

آلاف راجل وبعد أن أقام مقامه فى القيروان ابنه عبد الله عبر بهم من افريقية الى الاندلس فى رجب سنة ٩٣ (ابريل سنة ٧١٢) (١) فأخذ أولا مدينة شذونة ثم أخذ قرمونة بحيلة وهى ان أصحاب يوليان دخلوها كأنهم فلال وطرقهم موسى بخيله ليلا ففتحوا له الباب وأوقعوا بالاحراس وملكوا المدينة ثم مضى موسى الى اشبيلية SÉVILE جارتها فحاصرها وهى أعظم مدائن الاندلس شأنا وأعجبها بنيانا وأكثرها آثارا وكانت دار الملك قبل القوط فلما غلبوا على ملك الاندلس حولوا السلطان الى طُلَيْطُلَه وبقى رؤساء الدين فيها ففتحها بعد حصار شهر ثم فتح مدنا أخرى بين النهر الكبير ونهر يانه (٢) وما توقف الا أمام مدينة ماردة فانها كانت حصنا منيعاً وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر وقد قاومته حتى أضاع فى حصارها كثيراً من رجاله وما دخلها الا أول شوال سنة ٩٣ (١١ يوليو سنة ٧١٢) حين جاءته النجدة من افريقية تحت قيادة ابنه عبد العزيز — قال بعض مؤرخى الافرنج « ان موسى شدّد على الماردين شروط الصلح فانه مع فرض الجزية السنوية وأخذ أموال القتلى واموال النازحين عن المدينة طلب أن تسلم اليه أموال الكنائس وحليها وان يحوّل نصفها الى مساجد وان يأخذ رهائن من أشراف القوط

---

١ فى تاريخ دوزي صحيفة ٣٧ من الجزء الثاني ان دخول موسى الاندلس كان في يونية سنة ٧١٢ — فحقق

٢ يقال ايضا الوادى الكبير ووادي يانه

الذين فرّوا من واقعة شريش وكان من بينهم ملكة القوط أرملة رذريق المسماة اجلونه EGILONE أو اجلا EGILA ومؤرخو العرب يسمونها ايله AYLA »

انتقض اهل اشبيليه على المسلمين فقتلوا ٨٠ رجلا من حاميتها واتى فَلُّهم الى موسى وهو بمارده فوجّه ابنه عبد العزيز الى اشبيلية ليقتصّ من الثائرين فجاءها وفتك فيهم فتكاذريعاً حتى استقامت الامور.

من ماردة سار موسى الى طُلَيْطُله وكان قد بارحها طارق ليغزو قسطيلة القديمة LA VIEILLE CASTILLE وكان موسى يفتح ما مر عليه من البلاد وفرسانه يعلنون الاهلين « ان العرب مادخلت جزيرة الاندلس لظلم أهلها أو سلب أموالها أو تخريب مساكنها أو احراق زرعها بل لهدايتهم الى معرفة الله وانهم لا يحاربون الا العصاة المعارضين بدون جدوى »

عاد طارق الى طليطلة قبل وصول موسى فبادر الى مقابلته فاجتمعا فى طلبيره TALAVERA OU TALBERA ثم عادا الى عاصمة الملك فطالب موسى طارقاً باداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك فقدّمها اليه وبينها المائدة الزمرد ناقصة رجلا ثم جمع موسى رؤساء الجيشين ليحاكم طارقا فسأله أمامهم عن مخالفة أمره فاعتذر طارق بأن الحالة قضت عليه بذلك وان رؤساء جيشه أجمعوا رأيهم على متابعة السير (ولولا ذلك ما كان فتح العاصمة وأمهات المدن

فى زمن قريب) . ما أقنع موسى هذا الاعتذار بل عزل طارقا من قيادة جيشه وحبسه وعهد بالقيادة الى مغيث الرومى ولكن هذا الشهم أبت نفسه الكريمة أن يخاف قائده ودافع عنه بجراءة أمام الوالى ولما أصرّ موسى على ما حكم به بلّغ مغيث المشكاة الى الخليفة ليفصل فيها فورد منه الامر باعادة طارق الى قيادة جيشه

فى هذه الاثناء كان عبد العزيز يفتح الجنوب الشرقى من الاندلس فاستولى على لورقه LORCA وصالح تدمير الذى كان التجأ الى اريوله ORIHUÉLA على أن يدفع الجزية ويكون أمير سبع مدن وكتبا عهداً بذلك وعند رجوعه استولى على بيّاسه BAEZA وجيّان JAEN وانتقيرة ANTÉQUERA بدون مقاومة

بعد أن صالح موسى طارقا اتجه طارق نحو الشرق صاعدا الى منابع نهر التاجه حتى نزل السهول التى يرويها نهر ابره — واتجه موسى نحو الشمال الغربى فخضعت له بلاد بدون مقاومة منها سلمنقه SALAMANQUE ثم عاد الى الشرق سائراً مع مجرى نهر دويرو DUÉRO حتى نزل وادى نهر ابره وقابل طارقاً محاصرا مدينة سرقسطة SARAGOSSE وكان هذا قد فتح المدن التى حولها ولكن المدينة استعصت عليه ففتحاها بعد حصار شهر ثم احتلا وشقه HUESCA وقلهرّة CALAHORRA وطرّكونه TARRGONE ولاردة LERIDA

ثم اقتسم القائدان الجيش فمشى موسى على شاطىء البحر المتوسط متجها نحو الشمال ففتح برشلونه BARCELONE وجيرونه GERONE ورساس ROSAS وامبوريه AMPURIA وسار طارق متجها الى الجنوب ففتح طرطوشه TARTOSE ومربيطره MURVIÉDRO وبلنسية وشاطبة ودانية واستمرّ الى حدود امارة تدمير

والبلاد التى كان يفتحها طارق كان أهلها آمنين على أرواحهم وأموالهم عائشين بسلام فى كنف المسلمين وما كان هؤلاء يأخذون الا أموال من هجروا الاوطان . عاد موسى الى الوسط ومنه الى الشمال الغربى ذاهبا الى لوغو LUGO فى جبال غليسية GALICE

يذكر بعض المؤرخين فرقاً بين سلوك القائدين فى فتوح الاندلس فيقول ان موسى ما كان يفتكر الا فى جمع الاموال والاستئثار بها وطارقا كان يقتسم الغنائم هو وجنوده بالعدل بعد أن يفصل منها الخمس كاملا للخليفة قال بعضهم انه كان يكاتب الخليفة فى أعماله مباشرة معرضاً عن جانب موسى وهذا كان يشكو الى أمير المؤمنين عصيان طارق وتبذيره ومخالفته لاصول الحرب فمن اجل ذلك دعا الخليفة الوليد بن عبد الملك القائدين اليه فأرسل اليهما مغيثاً الرومى الذى كان جاء الى دمشق لتبليغ الخليفة تفصيل نصرات طارق الاولى فى الاندلس — أما طارق فقد أجاب دعوة أمير المؤمنين بدون

توقف وأما موسى فتلكأ وأخذ يستعد لغزو القوط الملتجئين الى جبال غاليسية واستوريا فجاءه رسول آخر وهو أبو نصر بين جيشه فى لوغو وأخذ بعنان فرسه وذكره بطاعة أمر الخليفة فلم يسعه الا الانقياد

ويروى أنه كان فى نية موسى أن يفتح أوروبا بتمامها ويصل الى الشام من شواطىء البحر الاسود فأخذ يستعد لهذا المشروع العظيم ولكن حال دون ذلك أن دعاه الخليفة اليه فى يوليو سنة ٧١٣ م فأجاب الدعوة ومعه طارق وأقام ابنه عبد العزيز بن موسى حاكما على اسبانيا وجعل دار حكمه مدينة اشبيليه

(١٣) جمع موسى غنائمه الواسعة وعبر المجاز الى المغرب فى ذى الحجة سنة ٩٥ للهجرة ومعه ثلاثون الف نسمة من السبى من بينهم اربعمائة فتى من أسر القوط الملوكية وقفل الى المشرق بعد أن استخلف على أقليم طنجة ابنه عبد الملك وعلى افريقية أكبر أولاده عبد الله .

سأل موسى مغيثاً أن يسلم اليه علج قرطبة الذى كان فى اساره فامتنع فانتزعه منه قسرا ثم خطر له أن يضرب عنقه مخافة أن يدعيه مغيث لدى الخليفة . تألب طارق ومغيث على موسى وسبقا الى دمشق وشكوا الى سليمان بن عبد الملك منه ورمياه بالخيانة واخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج — قبل وصول موسى الى دمشق بأيام طرأ على الوليد مرض ثقيل وكان ولى عهده أخوه سليمان بن عبد الملك

فاراد هـذا أن يؤجل الاحتفال بدخول فاتح اسبانيا الى أول خلافته فـكتب اليه أن يقف حيث يجيئه كتابه وان يؤخر وصوله الى دمشق أياماً فجاءه الـكتاب فى طَبَرِيّة فاسطين فلم يعمل بما فيه امّا صداقة للوليد وإمّا ظنا منه انه لا يموت قريبا فكان هذا سبب حقد سليمان على موسى

(١٣) (حضور موسى وطارق مجلس سليمان) مات الوليد وخلفه سليمان ويروى ان القائدين حضرا مجلسه فأخذ موسى يغالى فى قيمة مائدة الزمرد التى مر ذكرها فقال طارق « يا أمير المؤمنين انا الذى أحرزتها وأعطيته اياها فى طليطلة » فرد موسى وقال « انها من غنائمى » قال طارق انها تنقص رجلا فأين هذه الرِجْل ـ أجاب موسى بانه وجدها هكذا ـ قال طارق متهكما « من هـذه يحكم بصدق موسى » وأظهر الرِجْل الناقصة التى كان نزعها من المائدة وحافظ عليها ـ فبهت عند ذلك والى أفريقية وعاقبه سليمان بالوقوف فى الشمس المحرقة يوما كاملا

موسى وان كان أساء معاملة طارق الا انه كان شهما شجاعاً ذكى القريحة فهو الذى فتح اقاليم المغرب واسبانيا وكان يجب على الخليفة الاموى أن يشكر له من أجل اعماله الجليلة ويتغاضى عن حبه الاستئثار بالفخر فى فتوح الاندلس

قال ابن خلدون نهض موسى من القيروان سنة ٩٣ للهجرة فى عسكر ضخم من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر ووافى خليج الزقاق ما بين

طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز الاندلس وتلقاه طارق وتمم موسى الفتح وتوغل فى البلاد الى برشلونة فى جهة الشرق واربونه (١) فى الجوف وصنم قادس فى المغرب ودوخ أقطارها وجمع غنائمها واجمع (٢) ان يأتى المشرق على القسطنطينية ويخوض بلاد الاعاجم مجاهداً فى أمم النصرانية مستلحما لهم الى أن يلحق بدار الخلافة ونمى الخبر الى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما همّ به موسى غَرَر (٣) بالمسلمين فبعث اليه بالتوبيخ والانصراف وأسرّ الى سفيره أن يرجع بالمسلمين ان لم يرجع هو وكتب له بذلك عهده ففتّ ذلك فى عزم موسى وقفل عن الاندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز لغزوها وجهاد أعدائها وأنزله بقرطبة (٤) فاتخذها دار امارة واحتل موسى بالقيروان سنة ٩٥ وارتحل الى المشرق سنة ٩٦ بما كان معه من الغنائم والذخائر والاموال على العجل والظهر وولى على أفريقية ابنه عبد الله وقدم على سليمان فسخطه ونكبه»

(١٤) (عبد العزيز) استخلفه ابوه موسى على اسبانيا كما ذكرنا عند قفوله الى المشرق سنة ٩٥ للهجرة (٧١٣ للميلاد) وجعل مقره اشبيلية فساس البلاد أحسن سياسة :

---

١ فيه نظر ٢ اجمعت المسير وعليه عزمت عليه ٣ الغرر الخطر
٤ فى غيره اشبيلية وهو الصحيح

(ولى) عمالاً على أقاليمها يديرون شؤونها المدنية وكانوا يسمون بالقواد وكانوا حكامها العظام

(وأقام) حسابين كانوا يسمونهم بالمحتسبين يجبون الخراج من البلاد بطرق نظامية وكان مقداره خُمْس الاموال المتحصلة وأحياناً كان يخفض الى العُشْر فى بعض الجهات

(ورفع) عن الاسبانيين اصر الاستعباد القوطى الرومانى فكانوا فى عهده آمنين على أنفسهم وأموالهم ودينهم وحريتهم وعاداتهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم فيفصل بينهم فى المنازعات قضاة منهم وفى أحوالهم الشخصية قسوسهم لا تكلفهم حكومة الفاتحين الا دفع الخراج فلهذا ألفوا حكم العرب

لما ولى عبد العزيز جزيرة الاندلس تزوج أيلة (اجيلا EGILA) أرملة الملك رذريق وهى احدى الرهائن التى انتقاها موسى من اشراف ماردة و بقيت على دينها وسماها زوجها أم العصم أى القلائد (١) ويقول بعض المؤرخين ان هذا الزواج أثر فى اخلاق الوالى فعامل نصارى اسبانيا بالحسنى وان ايلة قبل الزواج كان لها رأى فى عقد الصلح بين عبد العزيز وتدمير وان اعداء عبد العزيز

---

١ كعنب جمع عصمة وهي القلادة كذا يقول بعض المؤرخين وفيه مناسبة ظاهرة وفي نفح الطيب انه سماها ام عاصم وغير ظاهر لهذه التسمية مناسبة وقيل انه سماها ايضا زهرة بنت عيسى يريد انها وردة المسيحيين

من العرب نقموا عليه المغالاة فى استرضاء النصارى المغلوبين وعدوا سكوته عن اخضاع الملتجئين منهم الى استوريا نحــو الشمال تشيعا اليهم فانه بعد ان فتح لوزيتانيا LUSITANIE (المعروفــة الآن بالبرتغال) لم يتجاوز نهر دويرة بل رجع الى اشبيلية واقام فيها يدير دولاب الحــكومة وما زال عُمّاله يفتحون الشمال الشرقى حتى استولوا على مدينة بنبلونه PAMPELUNE وممر جبال البشكنس و بالغوا فى التنديد به حتى رموه بالتنصر وهو براء مما يفترون اذ لم يقم على دعواهم دليل

بلّغُوا مثالب افتروها على عبد العزيز الى الخليفة سليمان بن عبد الملك فدفعه سخطه على موسى ان اتخذ رسالتهم حجة للامر بقتــل ابنه والى الاندلس. جاء هذا الامر الى خمسة من رؤساء الجيش المحتل اسبانيا فضربوا عبد العزيز بالسيوف ضربة واحدة وهو يصــلى فى المسجد صلاة الصبح وقطعوا رأسه ووضعوه فى علبة ملئت عنبرا وارسلوه الى الخليفة ودفنوا جثته فى داره سنة ٩٧ للهجرة (٧١٥ للميلاد)وكانت مدة حكمه نحو ثمانية عشر شهرا

عرض سليمان الرأس على موسى فتجــلد للمصيبة وساءت ايامه الاخيرة حتى مات فى وادى القرى حزنا على ابنه ســنة ٩٧ للهجرة (٧١٦ للميلاد)

تجاوز سليمان حدود الانسانية والدين واتبع هــواه فى الانتقام

من موسى وفى قتل ابنه عبد العزيز وهى احدى زلاته

طارق ويوليان وايلة أيامهم الاخيرة مجهولة لم يذكر المؤرخون عنها شيئاً

(١٥) جاء فى نفح الطيب أن أولاد غيطشه سألوا طارقاً بعد الفتح أأنت أمير نفسك أم فوقك أمير فقال بل على رأسى أمير وفوق ذلك الامير أمير عظيم فاستأذنوه فى اللحاق بموسى بن نصير بأفريقية فأذن وعرّفه بشأنهم وما أعطاهم من عهده وهذا انفذهم الى امير المؤمنين الوليد بدمشق وكتب اليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم فلما وصلوا الى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق فى ضياع والدهم وعقد لكل واحد منهم سجلا فقدموا الاندلس وحازوا الضياع أجمع واقتسموها على موافقة منهم فصار منها لكبيرهم (ألمند) الف ضيعة فى غرب الاندلس فسكن من أجلها اشبيلية وصار لأرطباش الف ضيعة فى الوسط فسكن من أجلها قرطبة وصار لرمله الف ضيعة فى شرق الاندلس وجهة الثغر فسكن من اجلها طليطله فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية الى ان هلك المند وخلف ابنته ساره وابنين فبسط يده (ارطباش) على ضياعهم فسارت ساره الى الخليفة هشام بدمشق فشكت ظلامتها من عمها فكتب الى حنظلة بن صفوان عامله بأفريقية بانصافها من عمها وامضائها واخويها على سنة الميراث فيما كان فى يد والدهم اه من حديث طويل صحيفة ١٢٦

(١) مات سليمان فى ٣١ صفر سنة ٩٩ ـ ٣ اكتوبر سنة ٧١٧ بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وفى عهده غزا أخوه مسلمة بن عبد الملك أرض الروم وحاصر القسطنطينية وفتح يزيد بن المهلب عامل خراسان جرجان وطبرستان

امراء اسبانيا بعد عبد العزيز

(١٦) (ايوب بن حبيب) بعد قتل عبد العزيز اقام الجنود مكانه شجاعا اشتهر فى حروب افريقية وهو ايوب بن حبيب اللاخمى ابن اخت موسى (٧١٥ للميلاد) فكان من اعماله ان جعل قرطبة كرسى الامارة بدل اشبيلية وزار اسبانيا كلها ونشر لواء العدل بين أرجائها وعاقب القضاة الظالمين واخذ يرتق فتوق الحروب الماضية و بنى فوق آثار مدينة بلبليس BILBILIS مدينة سميت باسمه (قلعة أيوب) ولم تطل مدته فان والى افريقية محمد بن يزيد عزله بعد ان حكم

---

١ فى تاريخ رومي ماترجمته (قال بعض المؤرخين ان اولاد غيطشة قتلوا فى واقعة وادى لكه وقال آخرون انهم عاشوا واغلب المؤرخين لا يسمون لغيطشة الا ولدين ايوان *EVAN* وسزبوت *SISEBUTH* وزعم مؤرخ عربى ان له ثلاثة أولاد ألمند *ALMONDO* ورمله *ROMLAH* وارطباش *ARTHÄBAS* وانهم اسلموا وقطنوا باسبانيا وكان لهم ذرية فيها ـ وليس من السهل اثبات هذا الزعم الصادر من كاتب متأخر عدة قرون لم يذكر مصدر مازعمه) اه

ستة اشهر حين جاء أمر الخليفة سليمان بعزل اللخميين (قبيلة موسى)
(١٢) (الحر بن عبد الرحمن) وولى مكانه الحر بن عبد الرحمن
الثقفى فى ذى الحجة سنة ٩٧ للهجرة فحكم سنتين وثمانية اشهر — يعزو
اليه بعض المؤرخين فتح اقليم أربونه (نربونه NARBONNE)
من بلاد الغال لكنّ المحققين منهم ينسبون ذلك الى خلفه ويقولون
« انما كان يتأهب لفتح (سبتمانيا) اذ ثارت ثورة نصارى (استوريا)
فى الشمال الشرقى فشغلته عن مأربه » كان قاسيا فى أحكامه يعاقب
عقاباً صارما على أقل الهفوات فكثرت شكاوى الاهلين منه الى
الخليفة عمر بن عبد العزيز فعزله وأقام مقامه (١٨) السمح بن مالك
الخولانى سنة ١٠٠ للهجرة (٧١٨ للميلاد) فأول أمر عنى به أن نظم
ادارة البلاد وزار أقاليم اسبانيا وتفقد أحوالها وأحصى الاهلين
واملاكهم فى سجل ارسله الى الخليفة ووصف له مدائن الاندلس
وأنهارها وثغورها وتجارتها ثم تأهب لفتح سبتمانيا فجاوز جبال
البرت نحو الشمال الشرقى واستولى على اربونة (نربونة) بعد حصار
٢٨ يوما فخضعت له المدن التابعة لها ثم أوغل فى الدخول فى أرض
الفرنج حيث امتد الفزع الى ما فوق نهر الرون واستولى على مدائن
كثيرة وعاد الى نربونه مثقلا بالغنائم ومعه عدد عظيم من السبى ثم
أعاد الكرة مسرعا وصعد الى (وادى اود AUDE) وحاصر
مدينة طلوشه وكادت المدينة أن تسلم اليه قيادها لولا أن أنجدها

(الدوق اودس LE DUC EUDES) بجيش جرّار يسد غباره عنان السماء فلما رأى المسلمون كثرة عـدد الاعـداء هالهم الامر فشجعهم السمح وقال لهم « لاتهولنكم كثرة العدد فان الله معنا » . اصطدم الجيشان كأنهما جبلان وحمى الوطيس واحتدمت نار القتال وسالت دماء الابطال على ظبات السيوف حتى خجل منها وجـه الصحصحان واستمر الحال طويلا دون أن يظفر أحـد الفريقين بالآخر والسمح يصول على صفوف العدو كالاسد الغضبان فيبدّد عقد نظامها والدم يسيل من سيفه على ذراعيه الى جسمه وكانت أعماله الخارقة للعادة تشد عزائم جنده ولـكن قـلّ أن ينجو قائد يقاوم بشخصه جيشا فقد أصابه عـدة طعنات خرّ منها صريعا فعندئذ خارت عزائم اصحابه ثم ثابت اليهم شجاعتهم واجتهدوا فى صد هجمات الاعـداء ولـكنهم تـكاثروا عليهم حتى أفنوا ثلثيهم ولكثرة قتلى المسلمين امام طلوشه سموا مكان الملحمة بلاط الشهداء وتاريخ هذه الواقعة ٩ ذى القعدة سنة ١٠٢ (١١ مايو سنة ٧٢١)

ثم اجتمع الباقون من الجيش تحت قيادة عبد الرحمن الغافقى قائد الشاطىء الشرقى من الجزيرة فانه امتاز فى هـذه المعركة عن اقرانه بالشجاعـة والفتك بالعدو فارتد بهم الى اربونة سالمين من جنود أودس التى كانت اقتفت آثارهم

لما بلغ عنبسه الذى اقامه السمح مقامه فى ادارة الحـكومة عند توجهه للغزو

هزيمة الجند فى طاوشه اسرع فى تجهيز فرقة وارسلها لتنجد اربونه فساعدت عبد الرحمن على اطفاء نار الثائرين من نصارى القوطيين ومن نصارى سكان جبال البرانس فى مدينة ياقة YACCA

٢٩ (عبد الرحمن الغافقى) عند وصول المنهزمين الى اربونه انتخب المسلمون عبد الرحمن اميرا على اسبانيا لما عهدوا فيه من السماحة والكرم والنبل والشهامة والشجاعة ومحبة الجند اياه وقد رضيت اسبانيا الشرقية عن هذا الانتخاب ولكن عنبسة وضع عقبات فى طريقه فبلّغ الامر الى ولاية أفريقية لكنها اقرت انتخاب عبد الرحمن

فى هذه الاثناء مات الخليفة يزيد بن عبد الملك فى دمشق فى ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ للهجرة (٢٧ يونيو سنة ٧٢٤) وخلفه اخوه هشام

اغضبت حكومة عبد الرحمن فى اسبانيا بعض الرؤساء ولم ييأس عنبسه من نيل الامارة فكتبوا الى والى افريقية بشر بن حنظلة بن صفو ان يتذمرون من امارة عبد الرحمن : ما بخسوه قدره فيما كتبوه ولكن رموه بالاهمال فى ادارة البلاد و بالتبذير فى الأعطية التى لا تلائم (على زعمهم) أخلاق الزهد والقناعة فى المسلمين

٣٠ (عنبسة بن سحيم) أدى ذلك كله الى عزل عبد الرحمن واستعاضته بعنبسة بن سحيم وهو جدير بأن يخلف سلفه لذكائه واستعداده — ما أغضب عبد الرحمن أن عزل بل رجع هادئا كأن لم

يكن فى الامر شىء الى ادارة اقليم الشرق من اسبانيا ومن كرم اخلاقه ان هنأ الامير الجديد بعبارات تشف عن اخلاص وتوطد دعائم الوفاق

توجهت عزيمة عنبسة الى أن يتمم المقصد الذى فتح بابه السمح فبعث البعوث الى سبتمانيا فاجتهدوا فى أن يستردوا المواقع التى اضطر المسلمون الى الجلاء عنها فلم يستطيعوا الا أنهم حافظوا على نربونه التى كانت مركز أعمالهم الحربية فرأس بنفسه تجريدة وتياسر بها حتى هجم على قرقشونه CARCASSONNE وفتحها عنوة وكانت لم تؤخذ قبل ثم اتجه نحو الشرق فخضعت له البلاد التى بين قرقشونه ونيموسة أو (نيمة) NIMES صلحا وكان يأخذ من أهلها رهائن للبقاء على الطاعة ويترك لهم حرية الدين — ثم توجه نحو الشمال حتى بلغ وادى الرون RHONE (١) وأخذ مدينة ليون ثم توغل فى الدخول مقتفيا مجرى السون SAONE الى أن بلغ برجنديا BURGUNDIE وأخذ أوتون AUTUN وعاد مثقلا بالغنائم لكن هجم عليه أعداؤه فاصابوه بجروح أودت بحياته بالقرب من نربونه فى شهر شعبان سنة ١٠٧ للهجرة (آخر سنة ٧٢٥ للميلاد). قلّد عنبسة قبل موته (٢٢) عذرة بن عبد الله (٢) امرة الجيش ولكنّ الاهلين استدعوا من والى افريقية بشر ابن صفوان أميرا آخر فانفذ اليهم (٢٣) يحيى بن سلمة الكلبى فى

١ فى التواريخ العربية يسمون وادى الرون (وادى رودونة) ومدينة ليون (مدينة لورون)

٢ بعض المؤرخين لا يعدون عذرة من امراء الاندلس

شوال سنة ١٠٧ وكان شهما شجاعا عادلا لكن قسوته هيجت عليه شيوخ القبائل فطلبوا من عبيدة بن عبد الرحمن السلمى استرداد يحيى فاجاب طلبهم وأرسل اليهم (٢٣) حذيفة بن الاحوص القيسى ولكن هذا كان غير كفء فلم يحفظ مركزه الا أشهرا وعزل (٢٤) وخلفه عثمان بن ابى نسعة فلم يستقر فى الامارة حتى كثر شاكوه فخلع وولى الخليفة بدله (٢٥) الهيثم بن عدى الكلابى فى المحرم سنة ١١١ (افريل سنة ٧٢٩) فقسا على الأهلين وظلمهم فمقتوه وشكوه الى الخليفة فأرسل هذا (٢٦) محمد بن عبد الله (١) لينظر فى ظلاماتهم ويعزل الهيثم اذا وجده مجرما ففعل وعزله وبقى فى اسبانيا يدير شؤونها بالحكمة والسداد نحو شهرين .

(٢٧) عبدالرحمن الغافقى (ولايته الثانية) . ثم القى مقاليد الحكومة الى عبدالرحمن الغافقى بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١١٣ للهجرة فسرّت عودة هذا الامير الجند والاهلين لما عهدوه فيه من الحكم بين الناس بالعدل لكن البربر نظروا ذلك بعين الحسد.

لما تقلد عبدالرحمن ولاية اسبانيا ثانية زار أقاليمها ووطّد دعائم النظام فى انحائها وجعل السكان سواء فى الحقوق والمزايا وان اختلفوا فى الدين ثم شرع يتأهب لفتح بلاد الغال GAULE أو غاليا GALLIA التى خلف جبال البرانس من الشمال وكانت تعرف بالارض الكبيرة وهى

---

١ بعض المؤرخين يسقط محمد بن عبد الله من امراء الاندلس وبعضهم يثبته

فرنسا الآن

كانت تقسم هذه البلاد حين قصدها عبد الرحمن الى أقاليم (١) اقليم سبتمانيا فى الجنوب الشرقى وقصبته نربونه (أربونه) وكان قد دخل فى حيازة المسلمين من جبال البرت الى نهر الرون (٢) واقليم اكيتانه AQUITAINE على شمال وغرب سبتمانيا وفى جنوبه جبال البرانس وشماله نهر اللوار LOIRE وشرقه نهر الرون وغربه البحر المحيط وقصبته طلوشه يحكمه أمير من الفرنك أو الفرنج يسمى الدوق أودس (٣) واقليم نوستريا NEUSTRIE فى شمال نهر اللوار من الغرب (٤) واقليم أوسترازيا AUSTRASIE فى شمال هذا النهر من الشرق وكان يحكمه أمير من الفرنج ايضا يسمى (شارل) أوقارله أوقلدوس . CHARLES.أودس وشارل كلاهما كان يخشى الآخر ويحذر بطشه والغاليون يكرهونهما معا لانهما من الفرنج الذين جاؤا من جرمانيا وتغلبوا على بلادهم

دعا عبد الرحمن المسلمين من اليمن والشام ومصر وافريقية الى غزو الفرنج والتغلب على غاليا فلبىّ دعوته أقوام لا يحصون عددا فعبىّ منهم جيشاً جرارا وقصد ان يستولى أولا على اكيتانه ثم نوستريا فان من ملك بردو وپواتيه وطورس و باريس فمن السهل عليه أن يدفع الاوستراز يين الى اوطانهم القديمة خلف نهر الرين RHIN فلو تم ذلك لعبد الرحمن لاصبح أهل فرنسا وان شئت قلت اهل اوروبا

من المسلمين

بينما عبد الرحمن على قدم الرحيل اذ بلغه أن أوامره غير مطاعة لدى محافظ التخوم الشرقيه . هذا المحافظ هو عثمان بن ابى نسعة — كان بربريا وسبق أن تولى امارة الجزيرة وكانت نفسه توّاقة الى أن تعود اليه الامارة فرأى بعين السخط والكراهة ارتقاء عبدالرحمن الى هذا المنصب الذى كان يبتغيه لنفسه وكان له نفوذ قوى فى الاقاليم التى كان يحكمها وكان من بينها سردانية CERDAGNE(١)وجميع ماوراء جبال البرانس الىوادى أودس فانه أسكن فىهذه الاقاليم عدة قبائل من البربر وكوّن له فيها حزبا قويا — وفوق ذلك عاهد(٢)دوق اكيتانه الذى كان يهدد بلاده عبد الرحمن ولتوطيد دعائم هذه المعاهدة تزوج عثمان ابنة الدوق المسماة لمباچه LAMPAGIE — اضطرّ الدوق الى هذه المعاهدة ان قارله كان يهدده من الشمال وعبد الرحمن

---

١ سردانيــة بلاد على سفحي جبال البرانس قسم منها فى اسـبانياوالآخر في فرنسا

٢ فى تاريخ رومي وكندي ان الذى عاهد اودس هو عثمان بن ابى نسعة كما ذكرنا وقال بعض معاصرينا « انه المنيــذر فانايزيدور ســماه *MUNUZA* وان هذا تحريف منيذر والمنيذر افريقى وابو نسعة لخمي أي من العرب » .من المشكل أن جعــل رومي عثمان بن ابى نسعة جهنيا في صفحة ٩٥ من الجزء الثالث من تاريخه (أي من قبيــلة جهينة احــدى قبائل العرب) وبربريا فى صفحة ٩٩ أى من بربر افريقية الشمالية) وجعله ذلك البعض لخميا وفى نفح الطيب صفحة ٦٩٦ انه خثعمي

من الجنوب ومن أجل هذه المعاهدة عزم ابن ابى نسعة أن يقاوم عبد الرحمن ويصدّه عن اكيتانة ولكن هذا ما امهله حتى يتأهب للمقاومة بل أسرع وأرسل اليه تجريدة قوية تحت امرة ابن زيان وأمره أن يجىء به حيا أو ميتا فباغته فى عاصمته المسماة مدينة الباب قبل أن يستعد للدفاع فأسرع الى الفرار هو وزوجته وبعض خدمه فاقتفى ابن زيان بدون ريث آثاره فى مضايق الجبال حتى أدركه. قيل انه ألقى بنفسه فى هاوية لئلا يقع حياً فى أيدى اعدائه وقيل انه قاتلهم حتى قتلوه طعناً بالرماح وقطعوا رأسه وقبضوا على لمپاچه وأرسلوها مع الرأس الى الامير عبد الرحمن فاطمأن اذن على داخل الجزيرة واتجه بجيوشه الجرارة تخفق فوق رؤسهم الاعلام البيض (١) الى اقليم ياقه واجتازوا جبال البرانس وأغاروا على (نوفمپوپولانى NOVEMPOPULANI) وأوغلوا فى الدخول فى اكيتانه حتى وصلوا الى مدينة بوردو فاجتهدت فى ان تقاومهم فما افلحت بل سقطت فى ايديهم ونهبوها

الى هنا كانت الشؤون ميسرة للعرب وحظهم قائما لانهم كانوا ينفرون الى كفاح العدو خفافا لكن بعد ذلك ابتدأ قيام عقبات فى سبيلهم فان اثقالهم من الامتعة والغنائم الواسعة جعلتهم يتثاقلون عن

---

١ بنو أمية كانوا يتخذون الاعلام البيض وبنو العباس الاعلام السود والفاطميون الاعلام الخضر

السعى فى اتمام المأرب الذى وجهوا اليه فعبروا بمشقة نهر جارون ثم نهر دوردونيا حتى تقابلوا أخيرا مع الدوق اودس وقد جاءهم بجيش عرمرم فى مكان يسمى (چير ونده GIRONDE) فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على الدوق فقتل من جيشه كثير وانهزم الباقون وخلصت ا كيتانة للمسلمين فاستولوا على مدائنها وقراها وغنموا غنائم لا تحصى يقال انه كان فى نصيب كل جندى من الذهب والزمرد والسوسن والياقوت ما كاد ينوء بحمله خلا طعامه وعدته التى يقاتل بها ثم ساروا الى الأمام بدون ان يعارضهم معارض حتى ظهروا أمام مدينة (پواتيه) فاخذت فى مقاومتهم لكن أحد ارباضها كان غير حصين فاخذوه واحرقوه وكان فيه كنيسة القديس (هيلار HILAIRE) فصارت رمادا تذروه الرياح ومع هذا ثبتت المدينة على المقاومة

عندئذ استولى على عبد الرحمن التردد بين ان يثبت على حصارها أو أن يسير الى مدينة طورس حيث توجد الاعلاق النفيسة والاموال الطائلة فى دير القديس (مرتين MARTINE)رسول الغاليين لكن لما بلغه أن أودس اضطر بعد هزيمة بوردو الى ان يطلب من عدوه قارله المساعدة على صد العرب وانهما اتحدا بعد ان استحكم النفور بينهما زمنا وجاءا بجيش ذى بأس شديد كثير العَدَد والعُدَد ان هذا الجيش عبر نهر اللوار زال تردده ورحل عن بواتيه . تقابل العرب

وجموع الجرمان عند نهر اللوار بالقرب من طورس فى اكتوبر سنة ٧٣٢ ب م ودارت رحى الحرب بين الفريقين وكانت معركة هائلة تعد من المعارك التى لها شهرة فى تاريخ العالم باسره استمر القتال فيها يومين بدون ان يظهر أحد الجيشين على الآخر ولكن الامير عبد الرحمن قتل فى حومة الوغى وفى ليلة اليوم الثالث انسل العرب سرا مع أنهم لم يقهروا راغبين أن يحفظوا ما بأيديهم من الغنائم التى جمعوها وان لا يعرضوها لخطر هذه الحرب الشعواء ورؤساء الفرق كانوا يتوقعون عصيان جنودهم واتباعهم

هذه الواقعة وضعت حدا لامتداد الاسلام فى اوروبا الغربية.
يظهر ان جيش عبد الرحمن لم يسلك طريق السياسة التى اتبعها طارق وموسى وابنه عبد العزيز وغيرهم ممن حذا حذوهم فى فتح البلاد فان هؤلاء كانوا اذا رأوا الطاعة من الاهلين أمنوهم على أرواحهم واموالهم واكتفوا منهم بالجزى ولا يمسون دينهم ولا قضاءهم لكن يضعون دساتير تدور عليها الشؤون الاهلية تحت سلطان قادة من المسلمين فبهذا كان الاهلون يخلدون الى حكمهم

كان يمكن عبد الرحمن ان يتخذ معاهدة عثمان واودس وقيام الشحناء بين هذا وقارله وبغض الغالبين لهما لانهم من الجرمان ذرائع للاستيلاء على اكيتانه وأوسترازيا لكنه اقترف قتل عثمان وحزبه من البربر قوىٌّ ساكن فى الشرق والشمال الشرقى وكان لا يعدم وسيلة

الى استمالتــه وتوجيهه الى مشاركة اودس فى قتال خصمه قارله فاذا قهراه زاد نفوذ العرب فى أرض الغال وعرفوا دخائلها واستطلعوا احوالها وعندئذ تنضج البلاد لتؤكل سائغة

بيد ان عبر جنود عبد الرحمن المختلفة الطوائف جبال البرانس يؤخذ من سير حوادثهم أنهم ما وجهوا عزائمهم الا الى النهب والسلب والفتك بالارواح وتخريب البلاد واحراقها وتركها يباباً لا الى فتحها وادخالها فى طاعة المسلمين وحكمهم واقامة حاميات تحفظ الامن فى أرجائها وتولية ولاة يديرون شؤونها بالقسطاس المستقيم كما كان الحال فى فتح اسبانيا

لو كان هذا لكان من الميسور للجنود أن يودعوا أنصبتهم من غنائم الحرب فى البلاد المفتوحة لا انهم ينؤون بحملها فى ميادين القتال فحرصهم عليها كان سبب فشلهم وضياعها . ومما ادّى ايضا الى فشل جيش عبد الرحمن (١) وقوع النفور بين العرب والبربر الذين هم من حزب ابن ابي نسعة المقتول (٢) وكذا تتابع القتال وقتل الرجال بدون مدد يسد الخلل (٣) والتمادى فى الغزو بدون توطيد دعائم السلطان والحكم والامن فيما تركوه خلف ظهورهم من البلاد التى اغاروا عليها ونقص علاف الخيل الذى ادى الى فيظ كثير منها .

لما بلغ والى افريقية موت عبد الرحمن ولّى (٣٨) (عبد الملك بن قطن الفهرى) امارة الجيش فى اسبانيا واقرّه الخليفة وامره ان يأخذ

بالثار من الافرنج فوعظ المسلمين وحرّضهم على نجدة عمالاتهم المهددة خلف جبال الابواب وارسل عدة تجريدات تحت امرة قوّاد ماهرين وتخلف هو فى قرطبة لادارة البلاد التى كانت اختلت ولكن جاءه امر الخليفة بان يقوم ويترك كرسى الامارة ويحارب الافرنج بنفسه فلما وصل الى مضايق السفح الشمالى وقد حان فصل الامطار بَغَتَه نصارى الجبال بالهجوم وكانوا يترقبونه فى الممرّ فاضطر الى التقهقر وتبدد شمل جيشه — هذه الهزيمة اضاعت ثقة قبائل اسبانيا فيه وعزله والى افريقية فى الحال وولّى مكانه اخاه(٢٩)(عقبة بن الحجاج)لما أظهره فى محاربة الثائرين من بربر افريقية من القدرة والشجاعة.

بمجرد وصوله الى الأندلس عزل القواد المغلوبين والعمال الذين استأثروا بمال الحكومة واكلوا أموال الاهلين ظلما ثم عنى بادارة البلاد فأقام فى المدن والقرى قضاة وفى الاقاليم ولاة وعيّن مع كل والى اقليم شرطة أى جيشا مسلحا يحفظ الامن فى البلاد ويبقى ثابتا فيها وكان الشرطيون يسمون كشّافا لانه كان من عملهم كشف الاشرار أى الوقوف عليهم وأمر باحصاء عدد الاهلين ووضع نظاما عادلا للخراج واشتهر عصره بانشاء مساجد كثيرة بجوانبها مدارس فانه كان من عادة العرب ان يبنوا بجانب كل مسجد مدرسة وكان لهذه المساجد خطباء ومدرسون يعلمون الناس الدين

وعُرف عقبة بين الناس بالنزاهة والاستقامة والعدل والتمسك

الشديد بالمحافظة على الحق وبأنه صعب المراس فيه فلا يثنيه عنه ثان .
لما ظهر له براءة عبد الملك مما اتهم به اعاده الى المناصب العامة فقلده ولاية التخوم الشمالية أى (نثارة)و (ارجونه)وجعل مقره (بنپلونه)

بعد ان تم الاصلاح فى اسبانيا جاء كتاب من الخليفة هشام يأمر فيه عقبة بغزو الفرنجة (بلاد الغال) فتهيأ لان يجتاز جبال البرانس فوصل الى سرقسطة وعزم على أن يجعلها مركز أعماله وأمر والى سبتمانيا يوسف الفهرى ان يهاجم شواطىء نهر الرون اثناء ما يغير هو على اكيتانة لكن لم تنفذ هذه العزيمة فان اخاه والى افريقية دعاه اليها لاطفاء ثورة البربر التى أبادت قوة الخليفة هناك فعاد إلى قرطبة ثم اجتاز النهر وأسرع الى افريقية ومعه فرقة من الفرسان (سنة ١١٩ للهجرة — ٧٣٧ للميلاد) وعند وصوله الى طنجة اتحد هو والقواد وساروا نحو البربر فبددوا شملهم وسكنت الفتنة لكن عقبة اضطر الى البقاء فى افريقية زمنا ولم يعد الى اسبانيا فورا خشية أن يتجدد عصيان البربر — بلغه ان قارلة حاصر نربونه فأرسل جيشا فى السفن تحت امرة عمر بن خالد لانقاذها فلما وصلوا الى ساحل سبتمانيا أوقع بهم قارلة الذى كان مترقباً وصولهم ثم انه ملّ من طول زمن الحصار فترك نربونه ورجع الى نوستريا والذى يظهر ان المدد هو الذى انقذ المدينة واضطر قارلة الى العودة

عاد عقبة الى اسبانيا فوجدها مختلة النظام وعمالها على غير وئام

الا انه رأى عبد الملك ساعيا فى خير رعيته موطّدا دعائم الامن فى أقاليم الشمال محافظا على التخوم فكتب اليه يشكره على حميّته وجليل أعماله وأرسل اليه مددا بين فرسان ومشاة

فى سنة ١٢٢ للهجرة (٧٤٠ للميلاد) مرض عقبة ومات اثر مرضه (١) فخلفه فى الامارة (٣٠)(عبد الملك) فكانت ولايته الثانية وكان وقتئذ فى سرقسطة فاقام ابنه أمية حاكما فى طليطلة وعبد الرحمن ابن عقبة عاملا على قرطبة

بعد موت عقبة ثارت قبائل البربر فى أفريقية مجتمعة تحت لواء خالد الزناتى فحاربهم الامير كلثوم بن عياض فهزموا جيشه وقتلوه وقيل جرحوه وفرَّ الى سبتة

لما وصل خبر هذه الهزيمة الى الخليفة هشام قلّد حنظلة بن صفوان والى مصر ولاية افريقية وأمره بكبح جماح البربر فأسرع الى المغرب يقود جيشا عرمرما فوصل فى رجب سنة ١٢٥ للهجرة (مايو سنة ٧٤٣ للميلاد)

يؤخذ من (تاريخ رومى) « ان الجيش كان مركبا من أمم

---

١ وفي رواية أن عقبة حكم خمس سنين يصحبه الجد الى ان ثار عليه عبد الملك وخلعه وقتله أو طرده من اسبانيا — وقيل أن الشعب الاسباني هو الذي ثار على عقبة فى صفر سنة ١٢٣ (ديسمبر سنة ٧٤٠) فى السنة السابعة من حكمه وأقام مقامه عبد الملك وانه مات في الشهر الذي خلع فيه في قرقشونة

مختلفة فكان فيه العرب والشاميون تحت قيادة ثعلبة بن سلامة والمصريون وسكان برقة تحت امرة بلج بن بشر وسكان المغرب الذين هم من ذرارى فاتحى البلاد تحت قيادة حنظلة نفسه وانه لما التحم الفريقان وحمى الوطيس واشتدت سورة الغيظ اضطر فرسان المصريين والشاميين الى ان يتركوا ميدان القتال تسيل فيه الدماء وتغطيه اشلاء القتلى الى المغاربة ذوى الصبر والجلد ولجؤا الى الفرار ولاذوا بسبتة ومعهم القائدان بلج وثعلبة وقيل ان بلجا لاذ بسبتة مع عمه كلثوم والى افريقية قبل حنظله بن صفوان

اقرّ الخليفة هشام عبد الملك بن قطن فى امارة اسبانيا سنة ١٢٥ للهجرة (١)

قال روى المؤرخ « لما بلغ عبد الملك وهو فى سرقسطة التجاء جنود المصريين والشاميين الى سبتة تحت قيادة بلج وثعلبة خشى أن يحدثوا قلاقل فى اسبانيا فمنعهم من الدخول فيها (٢) لكن نشأ عن هذا المنع ان حنق أعداء عبد الملك عليه ورثوا لهؤلاء الجنود البائسين وعزموا على ان يستقبلوهم فى اسبانيا رغما عنه وعلى ان يخلعوه

١ فى السادس عشر من ربيع الثاني من هذه السنة مات الخليفة هشام في الرصافة بعد ان حكم تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وأحد عشر يوما وكان عمره ٥٣ سنة ٢ قال كندي المؤرخ « ان عبد الملك أسف من جهة على هزيمتهم لكنه خشي من أخري ان يحدثوا قلاقل في اسبانيا فكتب اليهم ان لا يتجاوزوا الشاطيء وان يعودوا سريعا الي افريقية

فاجتاز بشر وثعلبة بمعونتهم المجاز فى أواسط سنة ١٢٥ (٧٤٣)

لما بلغ بربر أسبانيا خبر انتصار اخوانهم فى افريقية ملئوا فرحا وحماسة وهبّوا لأن يلقوا نير حكم العرب عن كاهلهم فثاروا فى ثلاث نقط : فرقة منهم اتجهت الى طليطلة التى كان حاكمها أميّة بن عبد الملك وأخرى حملت على قرطبة وعاملها عبد الرحمن بن عقبة وثالثها اتجهت نحو الشاطىء ليمنعوا جنود بلج وثعلبة من العبور الى الأندلس فخاب أمل البربر فى النقط الثلاث : فان فرقة طليطلة قاومها أمية وفرّق شملها وفرقة قرطبة دفعها عبد الرحمن والفرقة الثالثة انقضت عليها جنود سبتة ومن انضموا اليهم من العرب واثخنوا فيها ثم اتجهوا الى قرطبة ناقمين على عبد الملك لرفضه قبولهم فى أسبانيا

حينئذ قرر اهل قرطبة ان يسلموا أميرهم إمّا لانهم يكرهونه وإمّا خشية من قساوة بلج وحزبه فربطوه فى قنطرة بين خنزير وكلب الى ان جاء بلج وقطع راسه وعلقوه على باب المدينة سنة ١٢٥ (٧٤٣) اه

صرح رومى فى عبارته هذه بان فرقة من البربر اتجهت نحو مجاز طارق لتمنع جنود بلج وثعلبة من اجتيازه وبان هؤلاء الجنود قاتلوا البربر بعد أن عبروا المجاز لكن لم يجىء فى تاريخ كندى (CONDÉ) ان فرقة من ثائرى البربر اتجهت لصد العرب القادمين بل ذكر « ان المنهزمين من طليطة وقرطبة انضموا الى جيش بلج وثعلبه

فاجتمعت لهما بهم قوة كثيرة العدد فحاربا جنود عبد الملك وهم من العرب حتى ان هذا الامير كتب اليهما وهو فى قرطبة أنه ليس من الحكمة ضم جنودهما الى ثائرى الاندلس وأنه كان الاجدر بهم ان ينضموا الى جيش العرب للاتحاد فى الاصل واللغة وان يعضد بعضهم البعض بدل أن يجعلوا بربر المغرب والاندلس يجنون الثمرات من وراء شقاقهم واهلاك بعضهم بعضاً وذكرهم بان الاندلسيين ماخضعوا الا بالسلاح ويخشى ان يهبّوا لاخذ الثار ويستردوا حريتهم وأشار على بلج وثعلبة أن يحتلا جزيرة شلطيش SALTIS الى أن يعود النظام ويجرى المياه فى مجاريها ويرجعا الى افريقية فان فى هذا سلامتهما

وان بلجا وثعلبة لم يعيرا هذه المعقولات آذاناً واعية بل اتخذاها دليلا على ضعف وخوف عبد الملك

وأن أهل قرطبة هلعوا من زوبعة الثورة وذعروا من قساوة البربر فأرادوا أن يخمدوا نار هيجان الثائرين بتسليم أميرهم عبد الملك فربطوا هذا الرجل الصالح وكان مجروحا جرحا بليغاً ... الخ »

(٢٠٣) عندئذ اعلنت المدينة والجند امارة بلج بن بشر على اسبانيا ولكن ثعلبة بن سلامة الذى جاء معه من افريقية لم يعترف له بهذه الامارة قائلا « ان تولية ولاة اسبانيا من حقوق الخليفة ووالى افريقية لا من حقوق الاهلين والجند » وانضم لرأيه أغلب قبائل اسبانيا ثم توجه هو وحزبه الى ماردة

فى هذا الحين كان يتنازع سلطان الجزيرة ثلاث قوى : بلج فى قرطبة وثعلبة فى ماردة وقطن وامية ابنا عبد الملك فى طليطلة وانضم اليهما عبد الرحمن بن عقبة وكان فارسا مغوارا وتبعهم العرب الحقيقيون و بقايا البربر فجمعوا جنودا كثيرة وأقبلوا نحو بلج وكان لم يبق معه الا اثناعشر الفا فتقابل الجيشان فى سهل قلعة الرحبة CALATRAVA وجرت دماء الفريقين على الصحصحان . فى اثناء القتال ألقى بلج بفرسه وسط المعركة ونادى أين ابن عقبة فأسرع اليه هـذا مجيبا (هأنذا) وهجم أحدهما على الآخر ولـكن كانت طعنة ابن عقبة سابقة فخرّ خصمه ابن بشر صريعاً وأنهزم اتباعه الشاميون

فى هذه الاثناء كانت رحى الحرب دائرة بين بربر افريقيـة وحنظلة بن صفوان واليها فخـذ لهم أخـيرا وأطفأ نار ثورتهم وعاد غانما منصورا وتاب أهل المغرب جميعا الى الطاعة

بلغ حنظلة حينئذ ماهو حاصـل فى اسبانيا من المعارك الدموية والاختلال العام فى انحائها فولّى عليها واليا جديدا رأى فيه ان يرتق فتوقها وهو أبو الخطار

(٣٣) قبل وصوله الى اسبانيا صار (ثعلبة بن سلامة) حاكم ماردة وقـد فتحت له قرطبة أبوابها بعد أن أسر ألف رجل من البربر وجرّدهم من السلاح وشدّ وثاقهم وأمر بضرب اعناقهم يوم الجمعة على مرأى من الامّة

كاد أمره هذا ينفذ لولا ان رأى الناس مجيء (٣٣) ابى الخطّار فى موكب حافل فنكوا اسرهم . لم يسع ثعابة الا الخضوع الى الوالى الجديد وهذا أرسله الى أفريقية ليسأله واليها عما جناه

بعد هذا تجّه ابو الخطار من قرطبة الى طليطلة حيث كان فيها عبدالرحمن بن حبيب موالى ومحازب ثعابة فطرده منها ثم جاءه محازبو أبناء قطن وحيّوه بالسلام باعتبار أنه أميرهم الشرعى ثم أخذ يوطّد دعائم النظام فى الجزيرة بالسياسة والحزم اكثر من القوة الى أن دخلت كلها فى دائرة سلطانه واعترف اهلوها جميعا له بالامارة العامة . كان شيخا شهما حنّكته التجارب فى الحروب ذا حميّة فى العمل الصالح لما رأى أن الحروب الاهلية الاخيرة أفضت الى أن أصبح كثير من القبائل بدون مأوى وانه جاء أيضا لاستيطان اسبانيا عدد عظيم من اليمن والشام ومصر والمغرب أحصى عدد القبائل وحصر الاصقاع الخالية واسكن كل قبيلة صقعا فأسكن اليمانيين والشاميين المدن والمصريين و بعض عرب الجزيرة الاقدمين الاندلس والساحل والبربر اقاليم المغرب والشمال (١) ومن هذا الحين زالت ولاية تدمير التى

---

١ قال ابن خلدون « كان أبو الخطار شجاعا كريما ذا رأى وحزم وكثر اهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم فى البلاد وانزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق وأنزل أهل حمص اشبيلية وسماها حمص لشبهها بها وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين وأهل الاردن رية وهى مالقة وسماها الاردن وأهل فلسطين شدونة وهى شريش وسماها فلسطين وأهل مصر تدمير وسماها مصر

عاهده عليها عبدالعزيز

لم يدم استتباب الأمن فى الجزيرة زمنا طويلا فان أبا الخطار عند قسمة الارض بين القبائل مال الي جانب اليمانيين فنقم من ذلك المضريون وأيضا لم يرض أن يولي الصميل بن حاتم العراقى (١) حكومة سرقسطة مع أن باج بن بشر وعده بها اذ جاء فى جنده الي اسبانيا وكان ذا دربة على الحروب وقيادة الجنود واتصل به ثوابة بن سلامة أخو ثعلبة المنفي الي أفريقية فألبا على الوالي اعداءه وثاروا جميعا الي أن التقوا بجيش ابى الخطار بالقرب من شدونة على وادى لكه فهزموه وأخذوه أسيرا (فى رجب سنة ١٢٧ — اقريل سنة ٧٤٥) وحبسوه فى قلعة فى قرطبة

(٣٤)عندئذ اعلن الصميل وحزبه امارة (ثوابة بن سلامة) على اسبانيا

فكر أمية بن عبد الملك وعبد الرحمن بن عقبة اللذان كان لهما قيادة الشمال الشرقى من الجزيرة فى اعادة الامارة الى ابى الخطار فارسلا جاسوسا الى قرطبة سرا فهجم ومعه ثلاثون فارسا من شجعان المدينة على أحراس السجن فأطلقوا سبيل المسجون وفى اليوم التالى علم أهل المدينة بما جرى فقاموا لنصرته واعتقل شبانهم السلاح من

(١) كان جد الصميل شمر من اشراف الكوفة وهو أحد قتلة الحسين — دخل الصميل الاندلس حين دخل كلثوم بن عياض المغرب غازيا وساد بها وكان شاعرا كثير السكر أميا لايكتب ومع ذلك انتهت اليه رياسة العرب بالاندلس وكان أميرها يوسف الفهرى كالمغلوب معه .

أجله ومن فرّوا من القلمة أخبروا الصميل فجاء وحاصر قرطبة فأخذ الاهلون فى الدفاع عن حوزتهم والذود عن حوضهم منتظرين النجدة من أميّة فنهضوا تحت أمرة أبي الخطار ليمزقوا سياج الحصار ففازوا بعض الفوز على جيش الصميل ولكن بعد أيام اعادوا الكرة فدارت عليهم الدائرة وقتل أبو الخطار (فى ذى الحجة سنة ١٢٧ — سبتمبر سنة ٧٤٥)

حينئذ بقى لقب أمارة اسبانيا لثوابة واكتفى الصميل بأن يشاركه فى حكم الجزيرة واختص بالاقاليم الشرقية ولقب بوالى سرقسطة فأساء التصرف وظلما الأهلين ومات ثوابة فى الشهر الاخير من سنة ١٢٨) فاضطر رؤساء المسلمين الى ان اجتمعوا فى قرطبة وتشاوروا فيمن يخلفه فأجمعوا أمرهم على ان يقيموا واليا يكون له السلطان العام على جميع الامراء فاختاروا لهذا المنصب الخطير رجلا شهما فطنا عالى القدر

(٣٥) لم يدخل فى ثورات الاحزاب الاخيرة وهو (يوسف بن عبد الرحمن الفهرى) (١) أمير سبتمانيا (ربيع الثانى سنة ١٢٩ — بين ١٩ ديسمبر سنة ٧٤٦ و ١٦ يناير سنة ٧٤٧) وهذا الانتخاب قبلته الامة بفرح عظيم اكثر من فرحها بموت ثوابة

زار هذا الامير أقاليم اسبانيا كلها وأزال المظالم واصلح الطرق

---

١ جده العالي عقبة بن نافع فاتح افريقية وباني مدينة القيروان — وكان عمر يوسف وقتئذ ٥٧ سنة

والقناطر وبنى جوامع عديدة واحصى امم اسبانيا فى الدفاتر وقسم البلاد الى خمسة أقاليم

الأول اقليم الأندلس ويسقيه النهر الكبير ونهر يانه وقاعدته قرطبة ومن مدنه اشبيليةوقرمونه واستجة وطالقة وشدونه وأركش ARCOS ولبلة ومالقة والبيرة وجيّان

الثانى اقليم طليطلة ومن مدنه الشهيرة طليطلة و باجة ووادى آش ومرسية ومولة MOULA ولورقة وأريولة والش ELCHE (١) وشاطبة ودانية ولقنت وقرطاجنة وبلنسية ووادى الحجارة

والثالث اقليم ماردة وكان يتركب من أقاليم لوزيتانيا (المعروفة الآن بالبرتغال) واقليم جليقية GALICE ومن مدنه ماردةواشبونة (ويقال لها أيضا لشبونه) و برتقال ولك LEK (ويقال لها أيضا لوغو LUGO)واسترقة ASTARGA و بطليوس والبورة

والرابع اقليم سرقسطة وهو قسم طركونة و يشتمل على المدن الشرقية من قطالونية الجديدة CATALOGNE وهى سرقسطة وطركونة وجيروندە (ويقال لها ايضا جيرونه GIRONNE) و برشلونهولاردهوطرطوشهووشقةوتطيلهTUDELAو بنبلونةوبربشتر

١ في دائرة المعارف انها يقال لها أيضا آليش وفي تاريخ رومي ان العرب تسميها *ELDJEH* الجة

ودياقة DIAKA ويقال لها أيضا جاقه JACCA

والخامس اقليم سبتمانيا وهو فى الجنوب الشرقى من بلاد الغال بعد جبال البرت ومدنه الشهيرة أربونه وقرقشونه و بطيراس BATIERAS وأغاده AGADA ومغلونه MAGUELONNE ونيموسة NÉMOUSA ولوطبه LOTUBA وكانت سلطة العرب فى هذا الاقليم الاخير تمتد الي نهر الرون

فى عهد ما كان يوسف الفهرى يسوس اسبانيا بالحكمة كان بنو العباس فى الشرق ينزعون روح الخلافة من بنى أمية فى دمشق سنة ٧٥٠ للميلاد فسمع دوى الشقاق بين العباسيين والامويين فى أسبانيا وكانت الحروب الداخلية فيها بددت شمل العرب وأضعفت قواهم وكاد عز الاسلام يتقلص ظله فى هذه الديار حتى نزع الامارة من يوسف الفهرى عبد الرحمن الداخل وجلس على كرسى ملك أسبانيا سنة ٧٥٦ للميلاد

وبهذا انقرضت امارة الامراء ومدتها من دخول طارق الى انقراض حكم يوسف نحو ٤٥ سنة ميلادية وما كانت اسبانيا فى عهدهم الا ولاية تتبع والي افريقية ومع هذا كان امراؤها المقامون من قبل الجند يتصرفون فى ادارة البلاد تصرف المستقلين

دولة بني امية في اسبانيا

﴿ ١ — عبد الرحمن الداخل ﴾

أراد الله ان يكون لبنى أميّة دولة بالمغرب بعد انقراض دولتهم بالمشرق فان بني العباس لما فتكوا بهم وانتزعوا منهم الخلافة واستباحوا دماءهم كى يستأصلوا شأفتهم ويصفو لهم الجوّ فرّ من وجوههم عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وابن عشرين سنة (١) اذ أمر السفاح أول الخلفاء العباسيين ان يقتل هو وابن عمه فى دمشق حيث كانا يسكنانها لكن من حسن حظ عبد الرحمن ان كان غائبا فى ذات الزيتون فلما بلغه الخبر فرّ الى فلسطين واقام هو وخادمه بدر يتجسس الاخبار

تربى عبد الرحمن فى بيت الخلافة الاموية يتيما فقد مات أبوه معاوية سنة ١١٨ وهو ابن خمس سنين فكفله واخوته جدّهم هشام عاشر الخلفاء الامويين وكان يقطعه اخماس الاندلس فلهذا كانت انظار عبد الرحمن ترمى الى اسپانيا

جدّ بنو العباس فى طلبه ففرّ منهم الى أفريقية وكان حاكم برقة وقتئذ ابن حبيب الفهرى وهذا وان كان صنيعة الامويين ولكنه دار

---

١ ولد فى ارباض دمشق سنة ١١٣ للهجرة. فى نفح الطيب انه ولد بدير حنا من أرض دمشق وقيل بالعلياء من تدمير

مع الدهر ونسي احسانهم القديم فارسل جنود الشرطة في الانحاء والطرق ليرقبوا عبد الرحمن ويأتوا به في الاصفاد قائلا لهم « ان اعظم خدمة تؤديها الى الخليفة هى القبض على هذا الآبق » جاب عبد الرحمن بلاد برقة على غير هدى بل راكبا التعاسيف ولكنه كان يلقى فى كل بلد حلّ فيه كراما يكرمون مثواه وكان يدعو القلوب الي محبته شبابه وجمال روائه وسيما الملك فى محيّاه ودماثة أخلاقه

ذات ليلة فاجأت الشرطة قوما نزل بهم وسألتهم « هل نظرتم شابا سوريا صفاته كيت وكيت » فأجابوها « انه بكر لصيد الأسد ومعه عصابة من الفتيان يبيتون الليلة فى وادى كذا » لما سمع السائلون هذا الجواب أرخوا أعنة خيلهم الى الوادى ثم دخل المضيفون الى عبد الرحمن وبلّغوه الخبر وأمدّوه بعشرة شبان أشدّاء هرب معهم تحت جنح الظلام يقطعون السهول والحزون حتى أبعدوا المفرّ فى الصحارى وآووا الي مأوى بعيد عن حبائل ابن حبيب ماراعهم فيه ان سمعوا زئير السباع ثم تابعوا السير نحو الغرب عدة أيام حتى وصلوا الي مدينة تاهرت (١) حيث تقيم قبيلة زناتة (٢) فاستقبلوا

---

١ يقال لها أيضا تيهرت وكانت عاصمة البربر وبينها وبين تلمسان والبحر ايام قلائل

٢ كانت قبيلة زناتة من القبائل المشهورة بين البربر وهى قبيلة طارق بن زياد وكانت منتشرة في جزء عظيم من ساحل افريقية وكان هذا الجزء يسمى بالمغرب الاقصي ويشغل أرضه الآن ولاية الجزائر وجزء من اقاليم قسطنطينة

فيها استقبالا عظيما فان الزناتيّـين كانوا خؤولة عبد الرحمن لأن أمه (راح) كانت تنسب الي هذه القبيلة.

في هــذه الاثناء كانت الحروب الاهلية قائمة في اسـبانيا بين يوسف الفهري أمير قُرطُبة وطلَيطُلة وعامر بن عمرو العَبْدَري أمـير سرقسطة ومن أجل ذلك ساد الاختلال في انحاء البلاد.

علم عبـد الرحمن طريد العباسيين بأحوال اسبانيا فسنحت له الفرصة ان يثب على كرسي حكومتها ويرفع قدر أمية فأرسل بدرا خادمه الصادق عتيق ابيه الى اسبانيا ليمهد له طريق ذلك باستمالته العقول اليه فـكان من المصادفات الغريبة وسعد طالع عبد الرحمن أن رأى بدر عند وصوله الى قرطبة ثمانين شيخا من رؤساء القبائل مجتمعين فيهـا والامير يوسف غائب يتشاورون في نزع الامارة منه محتجين بانه لا يستعملها الا في منافع الفهريين قبيلته والقيسيين قبيلة الصميل رفيقه وبانه آخذ في سلخ الجزيرة عن خلافة آسيا وقد اتفقوا جميعاً على نزعه ولـكن كان من الصعب عليهم أن يجدوا أميرا يجمع الصفات التي تقتضيها الحالة الحاضرة.

كاشف بدر بعضهم بمقصده فعرض ذلك البعض على مجتمعهم اسم عبد الرحمن قائلا لهم انه فتى سريّ من بيت خلافة بني اميّة فرّ من فتك بني العباس ونجاته تحسب من المعجزات الباهرة وقـد التجأ الآن الى قبيلة زناتة » فلما سمعوا اسم اميّة هشّوا جميعا اليه

لا سيما السوريون وقرّروا باجماع الاصوات انتخابه أميرا لاسبانيا

كانت رياسة المجتمعين تنتهى الى أبى عثمان عبيد الله وعبد الله ابن خالد صهره فوجّها الى الامير المنتخب مركبا فيه تمّام بن علقمة أبو غالب ووهب بن الاصفر وشاكر بن أبي الاسمط فعبروا المجاز ومعهم بدر ووصلوا الى تاهرت فتقدم تمام الى عبد الرحمن وعرض عليه امارة الاندلس باسم المجتمع قائلا « اجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة فيسعك أن تبنى فيها ملكا مشيد الاركان موطّد الدعائم على أساس أقوى من الجبال معتمدا على عزائمهم القوية وطاعتهم الصادقة . لا ريب أن ستجد مقاومة وبعض خطر ولكنك لست وحدك بل بجانبك فتيان اشدّاء من ابناء من فتحوا الغرب وشعوب ترغب فيك وتدعوك اليها ونحن جميعا نهبّ الى الوغى ونبذل الارواح فى سبيل ارتقائك الى عرش الامارة التى نلقى مقاليدها اليك ونحفظ بنيانها من ان يثلم »

سكت عبد الرحمن هنيهة يترقب أن يتمّم تمام خطابه لكنه أحس ان الوفد ينتظر اجابته فقال « أيها السراة الامجاد اجابة لرغائبكم وسعيا وراء أمانيكم فى اصلاح شؤون مسلمى اسبانيا اذهب معكم باذلا النفس فى سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة فاذا صدقت عزائمكم ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز رأيتم منى اخا ثقة يقاسمكم الشقاء والهناء . يعلم الله انى لا أخشى الشدائد ولا أهوال الحروب

ولا أرهب الموت الاحمر فقد عركني الدهر وعركته وكثيرا ما ركبت متون الاخطار على حداثة سنى واذ ما كان ما يدعوننى اليه هو رغبة مسلمى الاندلس الاشراف فانا البىّ نداءهم وأقبل ان اكون أميرهم وحامى ذمارهم ان شاء الله »

لما قبل عبد الرحمن من الوافدين اليه امارة الاندلس هنأه شيوخ زناتة بهذا المنصب الخطير وأمدّوه بسبعمائه وخمسين فارسا من تاهرت ومكناسة وقيل بألف فعبر بهم البحر حتى نزل حصن المنكب على ساحل كورة البيرة (١) فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ (٢) فى خلافة ابى جعفر المنصور العباسى

فى ذلك الحين انسلخ اقليم سبتمانيا من حكومة المسلمين وسببه هبوب عواصف الثورات وتأجّج نيران الفتن فى اسبانيا

فى غضون ما كانت سفينة عبد الرحمن تسوقها ريح رخاء الى الاندلس وشيعته المنبثون فى الجهات يرتقبون وصوله ليستقبلوه و يشهروا امارته على الجزيرة انتصر يوسف الفهرى على عامر وابنه وأخذ منهما سرقسطة فى آخر سنة ١٣٧ للهجرة (٧٥٥) ورجع بهما وبحاجبهما الحباب الزهرى مصفدين فى الاغلال و بينما هو جذلان من انتصاره

---

١ مملكة غرناطة

٢ فى ابن الاثير ونفح الطيب وكندى ان عبد الرحمن نزل حصن المنكب فى شهر ربيع الآخر من سنة ١٣٨ وخطأ رومى شهر التاريخ وقال ان عبد الرحمن نزل هذا الحصن فى ثالث ذى القعدة من هذه السنة

اذ فاجأه خبر دخول عبد الرحمن الاندلس فانقلب فرحه ترحاً وكان وقتئذ فى وادى نهر الرمل على بعد خمسين ميلا من طليطلة عندئذ قتل الثلاثة المصفّدين طعنا بالرماح وكان فى قتلهم أفول نجم سعده و بزوغ شمس سعادة خصمه عبد الرحمن قال يوسف للصميل ما الرأى فأشار عليه ان يلطف له و يمنّيه زواج ابنته و يهديه ولا يعاديه و بذا يتحكم فيه وفيمن سعوا له فبعث يوسف كاتبه خالدا بكتاب وكسوتين ومطيّتين وخمسمائة دينار وقال له اعرف امره وأمر من حوله فخرج فى الليل ومعه صاحبه وأصبحوا على ابن معاوية بالكتاب والهدية فقبل الهدية وابى التزوج فأغاظ خالد القول فامر ابن معاوية بوثاقه وردّ غيره الى يوسف ولم يردّ عليه جوابا. ومن كتاب يوسف الى ابن معاوية « أما بعد فقد انتهى الينا نزولك بساحل المنكب وتأبّش من تأبّش اليك ونزع نحوك من السُرّاق واهل الختْر والغدر ونقض الايمان المؤكدة التى كذبوا الله فيها وكذبونا وبه جل وعلا نستعين عليهم ولقد كانوا معنا فى ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمصوا ذلك واستبدلوا بالامن خوفا وجنحوا الى النقض والله من ورائهم محيط فان كنت تريد المال وسعة الجناب فانا أولى بك ممن لجأت اليه أكنفك وأصل رحمك وانزلك معى ان أردت أو بحيث تريد ثم لك عهد الله وذمته بى ألاّ اغدرك ولا أمكن منك ابن عمى صاحب افريقية ولا غيره (١) »

---

١ ابن عذارى

هذا بعض فصول الكتاب

لما لم يردّ ابن معاويه على يوسف جدّ هذا وصاحبه الصميل فى المسير وأرسلا أوامر بحشد الجنود فى اقرب وقت وامر يوسف ابنه عبد الرحمن بان يدافع عن كورة قرطبة حتى يصل اليه

لما نزل عبد الرحمن من السفينة الى حصن المنكب ومعه نحو الف فارس من زناته بادر رؤساء الاندلس الى استقباله وحلفوا له يمين الطاعة وكان فى مقدمتهم أبو عثمان وابن خالد رئيسا قبائل البيرة فركبوا الى قرية طَرْش TARRX منزل ابى عثمان

انتشر خبر دخول عبد الرحمن الاندلس بسرعة فى جميع انحاء اسبانيا الجنوبية فكان يجيئه وجوه القبائل ويبايعونه ويلقبونه بالداخل وفى أيام قلائل جمعوا له عشرين الف جندى من كور البيرة والمريّة ومالقه وشريش وأركش وشدونة . كان ينتقل من كورة الى اخرى قاصدا قرطبة ورؤساء اليمانية ينضمون اليه اثناء المسير فانضم اليه فى ريّة عيسى بن مساور (١) وفى شدونة غياث (٢) بن علقمة وفى مورور أبو الصباح .

يرى ان مسير عبد الرحمن الى قرطبة ما كان فى طريقها المسلوك

---

١ فى ابن الاثير عيسى بن مساور وفى ابن خلدون عيسى بن مسور

٢ فى ابن الاثير غياث بالغين المعجمة والثاء المثلثة وفى ابن خلدون عتاب بالعين المهملة والباء الموحدة

فانه سار من الشرق الى الغرب فى الارض التى يسكنها المصريون والسوريون المخلصون فى ولائه فكانت المدن تفتح له أبوابها ولما قرب من اشبيلية سارع أهلها وهم من قريش الى استقباله ثم صعد منها مسرعا الى النهر الكبير قاصدا قرطبة حيث كان ابن يوسف مستعدا للقتال فخرج للقائه يقود جيشا قويًا على الشاطىء الايسر من النهر فتقابلا ودارت رحى الحرب بين الفريقين بدون ابطاء : حمل جيش الفهرى على اعدائه ببسالة ولكن ما أمكنه ان يثبت أمام شجاعة فرسان زناته بل انقلب على عقبيه فارًّا الى قرطبة واقتفى أثره عبد الرحمن حتى وصل الى أسوار المدنية وحاصرها

لما بلغ يوسف خبر هزيمة ابنه وقع الرعب فى قلبه وجدّ هو والصميل فى المسير ليرفعا الحصار عن قرطبة وعزما أن يفاجئا معسكر عدوّهما المخيّم فى السهل المنحصر بين النهر الكبير وجزء نهر يانه المحاذى مدينة بطليوس ويفتكا به

أدرك عبد الرحمن خطة سيرهما فبادر الى لقائهما وأخذ معه عشرة آلاف من جيشه وترك مثلها تحاصر المدينة تحت قيادة تمّام بن علقمة وأقدم بشهامة على مقابلتهما مع أن عدد جنودهما يزيد عن ضعف جنوده فتلاقى الجيشان فى صحراء المصارة غربى قرطبة فى التاسع من ذى الحجة سنة ١٣٨ ودارت رحى الحرب بينهما فى العاشر منه أى يوم عيد الاضحى وكان يوم الجمعة (١٥ مايو سنة ٧٥٦)

تفاءل عبد الرحمن بالفوز لمشابهة هذا اليوم بيوم مرج راهط الذى كانت فيه الواقعة بين جده مروان بن الحكم والضحاك بن قيس الفهرى فدارت الدائرة على الاخير

أراد الداخل ان يشدّ عزائم جنوده فقال لهم يوم التلاقى « اى يوم هذا » فقالوا « الخميس يوم عرفة » فصاح قائلا « فالاضحى غدا يوم الجمعة والمتزاحفان أموى وفهرى والجندان قيس ويمن قد تقابل الاشكال جدا وأرجو أنه اخو يوم مرج راهط فابشروا وجدّوا » (١) فلما سمعوا ذلك قويت عزائمهم ووثقوا بالنصر و باتوا يأخذون أهبتهم للقتال و بات جيش يوسف يُعدّ الضحايا للذبح واشيع فيه قبل الفجر حديث مشابهة يوم مرج راهط بيوم الغد فتشاءموا وخارت قواهم .

لما تنفس الصبح هجم فرسان عبد الرحمن على فرسان يوسف بغتة فتزعزع هؤلاء وارتدّوا على أعقابهم بدون نظام حتى اختلطوا مع المشاة وساد الفشل فيهم وفى منتصف اليوم تبدّد شمل الفهريين وتفرقوا أيدى سبا تاركين معسكرهم مغطى باشلاء القتلى وأسلابهم وأسلحتهم وافترق يوسف والصميل فالأول فرّ نحو ماردة والثانى نحو جيّان

١ كذا في نفح الطيب صحيفة ٧١٤ وما بعدها وفي تقييدات رومي صحيفة ١٩١ من الجزء الثالث (ان هذا اليوم كان في سنة ٢٤ للهجرة وان الواقعة كانت بين مروان وأحزاب خصمه الزبير فى شرق غوطة دمشق) وأقول أن هذه الواقعة كانت فى سنة ٦٤ لا ٢٤

هذه الواقعة رفعت شأن عبد الرحمن وأيدت سلطانه

روى أن ابا الصباح رئيس اليمانية قال لهم بعد هزيمة يوسف والصميل « يامعشر يمن هل لكم الى فتحين فى يوم قد فرغنا من يوسف والصميل فلنقتل هذا الفتى ابن معاوية فيصير الامر لنا نقدّم رجلا منا ونخلّ عنه المضرية » فلم يجبه أحد لذلك فان شهامة عبد الرحمن فى الواقعة ملكت قلوبهم .

بلغه الخبر فأسرّها فى نفسه الى ان اغتاله بعد عام فقتله .

رجع عبد الرحمن الى قرطبة وقد فزع اهلها ففتحوا له أبوابها على شرط أن يدخل من باب القنطرة الغربى وأسرة يوسف وأتباعه تخرج من الباب الشرقى

فلما دخلها لم يستقرّ به قرار بل أقام عليها أبا عثمان محافظا (١) ونهض فى طلب يوسف فعلم هذا بأمره وبأن حامية قرطبة عددها قليل فانتظر حتى جاوزخصمه جبال مورين SIERRA MORÉNA فخالفه فى الطريق وانقض على المدينة فلم يسع ابا عثمان وجنده القليل العدد الا الفرار الى حصن مدوّر من كورة غرناطة (٢) وقيل ان يوسف امر ابنه أبا زيد ان ينقضّ على المدينة ففعل وحاصر عبيد الله

---

١ كذا في تاريخ روي والتواريخ العربية لكن فى تاريخ كندى انه أقام حسام بن عبد الملك محافظا على قرطبة صحيفة ١٧٨ (جزء أول)

٢ كندى

فى منارة الجامع الكبير حتى الجأه الى التسليم وأخذه أسيرا وأخذ جاريتين كانتا فى القصر لعبد الرحمن (١)

عاد عبد الرحمن على الفور واسترد المدينة لكنه لم يجد يوسف فاقتفى أثره حتى لحقه فى أرض المنكب وكان قد اجتمع بصاحبه الصميل وناجزها القتال بدون ريث حتى مزق جيشهما كل ممزق فالتجأ الى جبال البيرة فتبعهما فنزل يوسف وادى شنيل حيث توجد جملة بيوت من انشاء العرب يكتنفها حصون منيعة على مسافة غير بعيدة من البيرة القديمة وآل أمر هذه البيوت بعد عدة قرون الى أن صارت مدينة غرناطة الشهيرة وهى آخر مدينة كان بها عز وسلطان المسلمين فى اسبانيا . و بعدئذ أحس يوسف انه لا تمكنه المقاومة زمنا طويلا وأشار عليه الصميل ان يخابر عبد الرحمن فى الصلح ففعل وتم بينهما فى صفر سنة ١٣٩ (٢) على ان يكون للأمير الامارة والسلطان على جميع البلاد وللفهرى امواله خاصة وان يسكن ببلاط الحر (منزلة بشرق قرطبة) وان يعطيه رهينة على ذلك ولديه أبا الاسود وأبا زيد يبقيان فى قصر الامارة مكرمين الى ان تهدأ الجزيرة فيردهما الى والدهما . وفى اثناء مخابرات الصلح رد خالد الاسبانى اسير عبد الرحمن الى يوسف وهذا رد اليه اسيره عبيد الله . و بعد

---

١ دوزى ٢ فى القرى، ان عقد الصلح تم فى صفر سنة ١٣٩ كما ذكرنا وفى روى وكندى انه تم فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٩ — ٢٩ سبتمبر سنة ٧٥٦

الصلح عاد عبد الرحمن الى قرطبة ويوسف على يمينه والصميل على يساره فى (يوليو سنة ٧٥٦) (١)

يؤخذ من كندى ودوزى أن عبد الرحمن عهد فى هذه السنة الى الصميل بامارة الحدود الشرقية نحو جبال البرانس المشتملة على وادى ابره من سرقسطة الى طرطوشه جزاء نصائحه التى حسمت الخلاف وعقدت الصلح بين الفريقين

لما ذاع خبر الصلح فى اسبانيا خضع الى عبد الرحمن شيوخ القبائل من اليمانية والمضرية فى الجنوب والغرب وجاءت اليه وفود الجهات تترى لتعرب له عن طاعتها واخلاصها فاكرم مثواهم واحتفى بهم وابقى القادة منهم فى قياداتهم والعمال فى عمالاتهم فخرجوا من عنده فرحين شاكرين وعادوا الى مدنهم وألسنتهم تطوى مدحه وتردد الثناء عليه . ثم انه زار المدن الشهيرة من الاندلس والاسترامادورة ASTRAMADURE . توجه الى ماردة فى طنطنة مسموعة وأبهة مرموقة يصحبه كثير من اصدقائه وكوكبة من فرسان زناته فدخلها فى يوم مشهود واخترق شوارعها ممتطياً جواداً نهْداً مُطَهَّماً تحفه تهليلات الفرح والسرور من الاهلين . وفى هذه المدينة استقبل مبعوثى البرتغال (لوزيتانية) والقنطرة و بطليوس وغيرها وقدموا له مراسيم الطاعة بالنيابة عن بلادهم

---

١ دوزى

عاد عبد الرحمن الى قرطبة بهجا من نجاح سياحته السياسية وصفا له جو الحدثان زمنا رزق فيه بمولود سماه هشاما في رابع شوال سنة ١٣٩ (أول مارث سنة ٧٥٧) أى في السنة الهجرية التي تولى فيها .

وفي هذه السنة ابتنى الامير منية الرصافة تشبيها برصافة جده هشام في الشام فاتخذ بها قصرا عاليا يشرف على جميع الجهات يرى منه الرائى مناظر على مسافات شاسعة ودحا حوله حدائق واسعة نقل اليها غرائب الغروس واكارم الشجر من كل جهة وغرس بيده فيها نخلة احضرها من الشام والنخل ما كان معروفا عند الاسبانيين في ذلك الوقت فكانت هى أول نخلة غرست فى أرض اسبانيا ومنها تولد النخل الاسبانى . ويروى أن الامير كان يراقب نماء هذه النخلة من قصره وينشد

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بارض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهى فى التغرب والنوى

وطول اكتئابى عن بنى وعن أهلى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى

سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى

يسح ويستمرى المساكين بالوبل

قال ابن سعيد والرمان السفرى (١) الذى فاض على ارجاء الاندلس وصار لا يفضلون عليه سواه أصله من هذه الرصافة

كان الامير كثير الحنين نحو الشرق موطنه القديم دائم التفكر فى بقايا الامويين المضطهدين المشتتين فى العراق ومصر وبرقة حتى بعث معاوية بن صالح الحضرمى رسولا الى الشرق يدعو من شاء منهم الى التوجه الى الاندلس وانشد يتشوق الى معاهده بالشام مخاطبا الرسول

أيها الراكب الميمّم أرضى ... أقرِ من بعضىَ السلام لبعضى

ان جسمى كما علمت بارض ... وفؤادى ومالكيه بارض

قُدّر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفونى غمضى

قد قضى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضى

ففى أوائل سنة ١٤٠ عاد الرسول الى اسبانيا ومعه كثير منهم وكان من بينهم عبد الملك بن عمر المروانى وابناؤه فعقد له الامير على اشبيلية (٢) ولابنه عمر على المدوّر ونصب معاوية قاضى القضاة

---

١ قيل سبب تسميته بذلك أن الامير أرسل رسولا يحضر اخته من الشام الي الاندلس فجلب طرائف من رمان رصافة هشام فأعطي جزءا منه الى سفر بن زيد من جند الاردن فغرس عجمه فأينع وأثمر وجاء بجناه الى الامير فاغترس منه بجنان الرصافة فانتشر نوعه

٢ فى نفح الطيب صحيفة (١٥٦) ان عبد الملك بن عمر المرواني وفد على عبد الرحمن من المشرق فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة

في اثناء ما كان عبد الرحمن يصرف السنين الاولى من حكمه في اصلاح شؤون اسبانيا وتوطيد دعائم ملكه فيها كان يوسف يصرف ثروته الواسعة في تأليف حزب له سرًّا

ففي أوائل سنة ١٤٣ ظهر له ان حان الوقت المناسب لايقاد نار الثورة وردّ ماسلب منه فثار واستولى على حصن المدوّر وما جاوره في غرب قرطبة وقام معه نحو ٢٠ الف ثائر وأخذ يجدّد سلطانه على الاقاليم حينئذ بادر عبد الملك وابناؤه وتحت إمرتهم جنود من ا كش وشدونة واشبيلية الى ردّ هذا الحصن وغيره من المدن المجاورة (١) فان سكانها انقلبوا ينادون باسم يوسف فهاجموهم حتى هزموهم

وأخذ عبد الملك يطارد المنهزمين نحو أرض تدمير حيث كان فيها العدوّ قويّ الجانب كثير العدد بعد ان كتب الى عبد الرحمن يخبره بالنصر وان يمده بمدد عظيم يجيء من طريقين كي يفرّق قوى يوسف المجتمعة ويشغلها فلحقهم في براري لورقة LORCA (٢) ودارت رحى الحرب بين الفريقين وانجلت عن تبديد شمل الفهريين واصابة يوسف بعدة جراحات أودت بحياته فقطع رأسه وأرسل الى عبد الرحمن (٣) وروى ان هذه الملحمة وقعت بين ماردة وطليطلة وأن

سنة ١٤٠ فعقد له على الشابليه ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور (١) كذا يؤخذ من كندي وروزي (٢) كذا في روزي . وفي كندي لوشة *LOXA*
(٣) كذا يؤخذ من روزي وكندي . وفي التواريخ العربية مايخالف ذلك

يوسف اغتاله بعض جنده اثناء هزيمته وأرسلوا رأسه الى قرطبة دليلا على طاعتهم وكانت مدة حكم يوسف ٩ سنين و ٩ أشهر

وأما أولاد يوسف الثلاثة فاكبرهم أبو زيد اقتفى اثره والى طليطلة تمّام وقتله وأرسل رأسه الى قرطبة فعلّق بجانب رأس أبيه وأوسطهم أبو الاسود حبسه بدر فى طليطلة فى ٩ ذى القعدة سنة ١٤٣ (٣ مارث سنة ٧٦٠) ومنّ عليه بحياته على شرط ان يسجن فى أحدى قلاع قرطبة الحصينة طول عمره وأصغرهم قاسم بن يوسف نجا بنفسه والتجأ الى الجزيرة الخضراء عند عاملها رزق بن النعمان الغسّانى فأجاره وجهّز جيشا هاجم به شدونة واشبيلية (١) ولكن تمّام توجّه اليه وردّه الى ارضه وأخذ قاسما وساقه الى قرطبة مغلولا فلم يقتله عبد الرحمن بل ارسله الى طليطلة تحت قيادة بدر ليسجنه فى قلعة تاجه كافأ عبد الرحمن تمّاما بتوليته منصب الحجابة وهى تقابل فى زماننا رياسة الوزراء

واقتفى بدر خطوات الصميل وراقبه الى ان جاء به من شقندة الى قرطبة وزجّه فى السجن حتى مات خنقا بحبل وقيل قطع رأسه بسكين

---

١ كذا يؤخذ من رومي وفى ابن الاثير ان رزق بن النعمان الغساني وكان على الجزيرة الخضراء ثار بالاندلس على عبد الرحمن فى سنة ١٤٣ فاجتمع اليه خلق عظيم فسار الي شدونة فملكها ودخل مدينة اشبيلية وعاجله عبد الرحمن فحصره فيها وضيق على من بها فتقربوا اليه بتسليمهم رزقا فقتله فامنهم ورجع عنهم

الآن بلغ عبد الرحمن ما كان مطمح انظاره فقد تبوأ عرش مملكة اسبانيا الواسعة الارجاء بحكمته وشهامته ودهائه بعد ان اهلك عتاة اعدائه المنازعين له فى سلطانها ومن العجب العجاب ان بلغ هذا المرقى بعد ان طُلَّ دَمه وفرّ من وطنه اتقاء الفتك به وقاسى الشدائد وتجشم الاخطار ضالا فى صحارى افريقية بين قبائل المغرب خمس سنوات ومع هذا الرقى ماصفت له الايام ولم يهنأ بما أتاحه له القدر من الملك والسلطان فانه حكم اسبانيا ٣٣ سنة هجرية لم يكن فيها لواء السلم منشورا بل نازعه فى الامارة الفهريون واليمانيون والافارقة ونصارى الشمال والفرنج

ففى سنة ١٤٤ للهجرة بلغ الامير أن قبيلة قوية تحت أمرة هشام ابن عذرة الفهرى قامت على وزيره فى طليطلة واخذت منه القصر وطردته وفكّت اسار قاسم بن يوسف الفهرى من السجن واجتمع تحت لوائها عشرة آلاف رجل فسار اليهم عبد الرحمن بنفسه وحاصرهم فى طليطلة وشدد الحصار عليهم طويلا حتى اضطر غير الفهريين من المحاصرين الى ان يتذمروا على هشام بن عذرة وفى ذلك الحين جاء الامير خبر ثورة اشدّ خطرا من هذه فاضطر الى ان يصالح هشاما على شرط ان يفتح المدينة بدون ريث وان يسلم ابنه محمدا رهينة على الصلح وان يردّ قاسما الى السجن فخضع ابن عذرة لهذه الشروط كرها وألقى مقاليد المدينة الى الامير فى (آخر سنة ١٤٥ للهجرة — افريل

سنة ٧٦٣)

وفى سنة ١٤٥ ارسل الخليفة العباسى ابو جعفر المنصور الى والى القيروان العلاء بن مغيث ان ينزع اسبانيا من ابن معاوية ويردّها الى خلافة بنى العباس فاستعدّ هذا الوالى لما دعاه اليه الخليفة فبلّغ شيخ تاهرت عاصمة زناته خبر الاستعداد الى عبد الرحمن اثناءما كان يحاصر طايطلة وهذا ماحمله على عقد الصلح مع ابن عذرة فى شهر (افريل سنة ٧٦٣) وفى هذا الشهر نفسه أغار العلاء على شواطىء الاندلس وجاء نبؤه الى طايطلة فندم هشام على الصلح ودعا حزبه الى السلاح ونزعوا الى الثورة ثانية وهاجموا القصر وقتلوا جميع من كانوا يدافعون عنه ومن بينهم سعيد بن المسيّب والى طليطلة واستولوا على ابواب وحصون المدينة ودعوا الى (المنصور الخليفة العباسى) فبلغت الانباء الى قرطبة فأمر الامير قائده بدرا بجمع جيوش من قلعة رباح وطابيرة وغيرها وان يحاصر طايطلة آخذا معه محمد بن هشام الرهين وأن يمنع ابن عذرة من أن ينضم الى ابن مغيث ولكنّ بدرا قد فاتته الفرصة وحاصر المدينة بعد أن خرج منها هشام قاصدا العلاء

وهذا الاخير أوغل فى اقليم باجة من جهة الغرب قاصدا قرطبة محرضاً الامـة على اشهار السلاح فى وجه (الداخل) قائلا « انه آبقٌ شقيٌ من قوم اخنى عليهم الدهر ملعونين على منابر الشرق مغضوب عليه من خلافـة الاسلام الشرعية » حاملا اللواء الاسود

شعار بني العباس ليستميل القلوب اليه مدّعيا انه استلمه من الخليفة نفسه وان من يتبعه فجزاؤه الجنة فاتبعه ناس كثيرون تزعزعت أفكارهم من زخرف قوله — وفوق ذلك كان يكثر العطايا لتابعيه ويعدهم باضعافها عند الفوز

فى هذه الاثناء جمع عبد الرحمن جنودا من انحاء شتى ورتبها ثلاث فرق كانت ثالثتها أشد بأسا لأنها كانت مؤلفة من فرسان قرطبة واشبيلية وشريش ثم قدّم شراذم من جيشه تناوش العدو فلما صارت على مرأى من معسكر العلاء الكثير العدد خرج عساكره عن متاريسهم ووقعت بين الفريقين مناوشات غير كبيرة الجدوى وكان هشام وقتئذ وصل الى هذا المعسكر ليدعو والى القيروان الى الاسراع فى الاستيلاء على طليطلة عاصمة الأندلس القديمة

ولما طلع فجر اليوم التالى زحف العسكران للقتال فبدأت عسكر ابن مغيث بالهجوم فكانت ملحمة شديدة استمرت بدون رجحان فريق على آخر الى منتصف النهار ثم هجم فرسان الاندلسيين بحمية شديدة على الافارقة فبدّدوا شملهم وحلّوا عقد نظامهم وقتلوا العلاء قائدهم

قال روشي ما معناه تقدم عبد الرحمن الى العلاء وقابله فى أرض بَطَلْيَوْس وتقاتلا أياما بدون ان يظهر فريق على آخر ولكن آل الامر الى ان لا يحتمل العباسيون هجمات فرسان الامويين

وان يسقط لواء الخليفة فى يد الامير والى قتل العلاء وسبعة آلاف من جيشه والى انهزام باقيه الى افريقيــة ـ وبعد أن فُضَّت هذه المعركة الشعواء ســنة ١٤٦ قطع ابن معاوية رأس ابن مغيث ويديه ورجليه وأرسل هــذه الاشلاء سرًّا الى القيروان ومعها هذه الكتابة « هكذا يقتصّ عبد الرحمن بن معاوية بن أمية من المعتدين عليه كالعلاء بن مغيث والى القيروان » ويروى ان العلاء ابن مغيث ثار بباجة سنة ١٤٦ ودعا الى طاعة المنصور فاتبعه الناس الى ان كادت دولة الامير تنصرم فخرج اليه من قرطبة وصار بقرمونة فتحصن بها مع مواليه وثقاة رجاله فنازله العلاء وحاصره بها نحو شهرين فلما طال الحصار ملّ عسكر العلاء الانتظار وعلم عبد الرحمن ما هم عليه فأمر بنار فأوقدت بالقرب من باب المدينة وقال لاصحابه وكانوا نحو سبعمائة من أبطال الرجال « لِنُلْق اغماد سيوفنا فى هذه النار ونحلف على الموت كراما فى ساحة الوغى اذا لم يُكتب لنا النصر » فكلهم القوا الاغماد فى اللهب وخرجوا من المدينة والشجاعة تغلى فى صدورهم وانقضوا على المحاصرين انقضاض العقبان على الغربان فبددوا شملهم وقتلوا العلاء رئيسهم وسبعة آلاف منهم ثم ان الامير أمر بجزّ رأس العلاء ورؤس اشراف اصحابه وقُرِّطَت فى آذانها صكوك باسمائهم وأودعت اسفاطا وأنفذ الامير قوما توجهوا بها الى القيروان فطرحوها فى الليل فى الاسواق فتسمّع الناس أمرها

واتصل الامر بابى جعفر فانكسرت حدّته وقيل ان رأس ابن مغيث حملت فى سَفَط ومعها اللواء الاسود الى مكة ليقع عليها نظر المنصور وهو حاجٌّ فلما رآها ارتاع وقال ماهذا الا شيطان (يعنى عبد الرحمن) الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه بحرا (١)

لم تكن هذه الهزيمة حاسمة للنزاع لان هشام بن عذرة قاوم زمنا وتحت رايته بقايا الفهريين والعباسيين فانه لما لم تمكنه العودة الى طليطلة التى كان بدر يحاصرها توجه الى شذونة فاستولى عليها ثم فاجأ اشبيلية وخرّب فيها دار الصناعة والقصر فعادت الجنود الأموية اليه ففرّ الى شذونة حيث تجمعت احزابه ولكن عبد الملك بن عمر حاصرهم فيها وضيق عليهم دائرة الحصار فلم يبق لهم الا أحد أمرين أما أن يسلموا البلد وأما أن يخرجوا ويخترقوا معسكر العدو وقد عوّلوا على الامر الاخير ففى ليلة ليلاء خرجوا من بابين من أبواب المدينة وفاز عدد عظيم منهم بالنجاة الى جبال رندة وجاز بعضهم البحر الى أفريقية ولكن هشاما ما أمكنه الفرار معهم لشيخوخته فأدركته خيل الامويين وأصيب فرسه بضربة فسقط ووقع فى قبضة عبد الملك فعجّل بقتله سنة ٧٦٥ م

لنعد الى حصار طليطلة . ابتدأ حصارها سنة ٧٦٣ م ومكث الى سنة ٧٦٦ وسبب طول الحصار أنها كانت ذات حصون

١ ابن عذاري ودوزي والمقري مع تصرف

قوية وأهلها وان كانوا اخلاطا من المسلمين والنصارى المستعربين لم ينشقوا فى الرأى بل أجمعوا أمرهم على خطة واحدة فى السياسة وهى أن لا ينقادوا لامير قرطبة ضاربين صفحا عن اختلافهم فى الدين ، وصدقهم فى الدفاع عن المدينة ثبّط عزائم المحاصرين فبنوا مساكن وقتية أمام طليطلة ووطدوا أنفسهم على سكناها واكتفوا بأن يقلقوا أحيانا أحراس أبواب المدينة وينهبوا الاطعمة التى كانت تصل اليها عادة بدون كبير مانع ومن طول المقام ضاعت حميّتهم فتراخوا في الحصار الى أن صار كهدنة بينهم وبين أهل المدينة فما كانوا يهاجمونها ولا يمسكون الطرق عليها بل آل الامر الى تبادل الروحات والجيئات بين المعسكر والمدينة والتساهل فى دخول سفن النهر حاملة الاقوات اليها وان سكان ضواحيها يزرعون ويحصدون ويدخلون المحصود اليها بدون كبير مشقة

استبطأ الامير بدرا فأرسل اليه تمّاما ليَجْهزا معا على طليطلة سريعا فلما وصل تمّام تغيّرت الشؤون الى شدة ومضاء عزيمة وتيقظ واقدام فتوالى الهجوم على المدينة وتسلق الجند جدرانها الواطئة فذعر اهلها ورضخوا الى التسليم بعد أن نجّوا قاسم بن يوسف الفهرى فعبر النهر سبحا وولّى الفرار وفتحوا أبواب المدينة على أمان من تمّام سنة ١٤٩ (١) (٧٦٦)

١ فى كتدى ان فتح المدينة كان فى آخر سنة ١٤٨ وما ذكرناه مأخوذ من روى

وفى سنة ١٤٩ (١) (٧٦٦) ثار سعيد اليحصبي المعروف بالمطرى بكورة لبلة طالبا بثار من قتل من اليمانية مع العلاء وتغلب على اشبيلية فسار اليه عبد الرحمن ففرّ وامتنع بقلعة رعوان (٢) فحاصره وكان قد وافقه على الخلاف غياث بن علقمة اللّخمى بمدينة شذونة فأمدّ فبعث عبد الرحمن بدرا فحال دون المدد ودون المطرى. ثم طال عليه الحصار فخرج من القلعة وقاتل وقُتل فقدّم أهل القلعة عليهم خليفة بن مروان فدام الحصار ثم استأمنوا الى عبد الرحمن وسلموا اليه الحصن فخرّبه وقتل خليفة ومن معه ثم سار الى غياث فحاصره بشذونة حتى استأمن فأمنه وعاد الى قرطبة (٣)

يؤخذ من ابن الاثير وابن عذارى ودوزى « ان عبد الرحمن عزل فى هذه السنة أبا الصباح رئيس اليمانية عن اشبيلية » فانه كان يوجس خيفة منه من يوم واقعة المصارة حين اشار على قبيلته بقتله) فنزع الي الخلاف ودعا اليمانيين الي السلاح فوجه اليه الامير حاجبه تماما فأمنه ولاطفه حتى جاء به قرطبة فغدر به عبد الرحمن (٤) و يروى بعضهم أن ابا الصباح قدم قرطبة فى أربعمائة فارس على غير عهد فأوصله تمّام الى الامير فعاتبه فأغلظ له أبو الصباح فى

---

١ فى ابن الاثير أن ثورة المطرى كانت فى سنة ١٤٨ وفي غيره أنها كانت فى سنة ١٤٩ والظاهر أنها طالت في غضون السنتين ٣ وقيل زعواق

٣ ابن خلدون وابن عذارى ٤ ابن الاثير

الجواب فأمر بقتله (١) وقيل أن الامير حاول قتل أبي الصباح بخنجر فقاومه فاستعان عليه بحرسه فقتلوه ثم أمر عبد الرحمن بطمس آثار الدم وتغطية الجثة بغطاء ثم أحضر وزراءه وقال لهم ان أبا الصباح محبوس في القصر واستشارهم في قتله فاشاروا عليه بأن لا يفعل خشية من خطر يتوقع من فرسان ابي الصباح الذين هم بباب القصر وخالفهم في الرأي أحد أقارب الامير. حينئذ قال عبد الرحمن « قد قتلته » وكشف الغطاء وارسل من أخبر الفرسان بان صاحبهم قضى نحبه فلينصرفوا فانصرفوا بسلام

ولم يذكر حادثة أبي الصباح هذه في سنة ١٤٩ ابن خلدون ولا المقّري ولا رومي ولا كندي والظاهر أنها وقعت قبل هذه السنة فقد ذكروا عقب واقعة المصارة سنة ١٣٨ أن عبد الرحمن اغتال ابا الصباح بعد عام — وتقدم أيضا أن عبد الرحمن ولّى عبد الملك اشبيلية حين قدومه من الشرق سنة ١٤٠

ويروى أن عبد الرحمن غزا في هذه السنة جبال جليقية GALICE وجبال البشكنس في شمال اسبانيا فاخضع الثائرين الذين كانوا نبذوا الطاعة وعاد جنده الى قرطبة مثقلا بالغنائم الواسعة يقود كثيرا من الاسرى ومن قطعان الماشية

---

١ ابن عذاري

وفي سنة ١٥١ (١) ثار في شرق الاندلس رجل من بربر مكناسة يعرف بشقنا (٢) بن عبد الواحد كان يعلّم الصبيان وادعى انه من ولد فاطمة والحسين عليهما السلام وتسمى بعبد الله بن محمد وسكن شنتبرية واجتمع اليه خلق من البربر فسار اليه عبد الرحمن فهرب في الجبال واعتصم بها فرجع وولّى على طليطلة حبيب بن عبد الملك فولّى هذا على شنتبرية سليمان بن عثمان فنزل اليه شقنا واخذه وقتله وغلب على ناحية قورية وأفسد في الارض فعاد اليه عبد الرحمن سنة ١٥٢ وأعياه أمره وصار ينتقل في البلاد ويهزم العساكر وسكن حصن شيطران (٣) من جبال بلنسية ثم سار اليه عبد الرحمن سنة ١٥٦ واستخلف على قرطبة ابنه سليمان فأتاه الخبر بزحف أهل غرب الاندلس من اليمانية نحو قرطبة (٤) تحت قيادة عبد الغفار بن حميد اليحصبي زعيم لبلة وحياة بن ملابس زعيم اشبيلية فرجع عن شقنا وانهض عبد الملك في معظم الجيش لقتالهم فسار اليهم ولما قرب منهم قدم ابنه أمية في اكثر العساكر فخالطهم فوجد فيهم قوة فخاف الفضيحة معهم فانحاز منهزما

---

١ كذا في ابن الاثير — وفي ابن خلدون سنة ١٥٠ — وفي ابن عذارى سنة ١٥٢

٢ بالنون بعد القاف كما في ابن الاثير وابن خلدون وفي دوزى *Chakya* (شقيا) بالياء ولم يذكر اسمه المقري ولا ابن عذارى

٣ وقيل شطران وسيطران

٤ المقرى صحيفة ٧١٨ طبع بولاق

الى أبيه فلما جاءه سقط فى يده وقال له ما حملك على ان استخففت بى وجرّأت الناس والعدوّ عليّ ان كنت فررت من الموت فقد جئت اليه وضرب عنقه ثم لقيهم مستميتا فهزمهم وأثخن فيهم حتى جرح ولحق بعبد الرحمن فشكرها له وجزاه خيرا ووصله بالصهر وولاّه الوزارة ونجا عبد الغفار وحياة بن ملابس الى اشبيلية فسار عبد الرحمن اليها سنة ١٥٧ وقتل خلقا كثيرا من أهلها ممن كانوا مع عبد الغفار وحياة واستراب من يومئذ بالعرب وعلم أنهم على دغل وحقد فانحرف عنهم الى اتخاذ الموالى فابتاع كثيرا منهم فى كل ناحية حتى بلغ من فى قبضته منهم اربعين الف رجل صار بهم غالبا على اهل الاندلس من العرب فاستقامت مملكته وتوطّدت

وفى سنة ١٥٨ غزا عبد الرحمن مدينة قورية وفتك بالبربر الذين كانوا أسلموا عامله الى شقنا

وفى سنة ١٦٠ وقيل التى بعدها غدر بشقنا رجلان من اصحابه وجاءا برأسه الى عبد الرحمن

وفى سنة ١٦١ وقيل التى قبلها سار عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى (١) من أفريقية الى الاندلس مظهرا الدعوة العباسية ونزل بتدمير فاجتمع اليه البربر وكان سليمان بن يقظان عاملا على

---

١ انما سمي بذلك لطوله وزرقته وشقرته — كذا في ابن الاثير في حوادث سنة ١٦١

برشلونة فكتب اليه يدعوه الى امره فلم يجبه فسار اليه فلقيه سليمان فهزمه وعاد الى تدمير وزحف اليه عبد الرحمن من قرطبة وأحرق سفنه تضييقا عليه فى الهرب فاعتصم بجبل بلنسية فبذل فيه عبد الرحمن الاموال فاغتاله رجل من اصحابه البربر وحمل رأسه الى الامير سنة ١٦٣ فأعطاه الف دينار

ما ذكرناه من تاريخ الفاطمى وابن حبيب مرجعنا فيه الى ابن الاثير وابن خلدون والمقرى وابن عذارى

وجاء فى كندى ورومى فى هذا الموضوع ما يخالف ذلك وهاك تعريب ما جاء فيهما ملخصاً « ان من فرّوا من شذونة الى جبال رندة ثم الى أفريقية التجؤا الى والي مكناسة واستشاروه وأن هذا الوالى كان يسمى عبد الغافر (كذا) وانه كان شابا عالى القدر يفتخر بأنه من سلالة فاطمة بنت النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وزوج علىّ (عليه السلام) فنزع الى الثورة وأخذ يعد مُعِدّات القتال وقبيل دخوله اسبانيا اذاعوا فضله وعظمته فى الجزيرة وانه سيجوز اليها البحر فى جيش جرّار وثروة واسعة وأنه سيهب أموالا طائلة للمسلمين المخلصين الذين يشهرون السلاح فى وجه الداخل الجائر الغاصب امارة الاندلس

ولما علم بذلك عبد الرحمن أمر سكان البيرة بصدّ الثائرين ووضع حامية قويّة فى المنكب وأمر بالتيقظ ومراقبة السفن التى ترسو

فى الثغور وأعلن بانه يجزل العطاء لكل من يأتيه برأس من رؤساء من يثورون مع الفاطمى وهذا الاعلان جعل من كانت نفسه تجيش الى الثورة تخلد الى السكون التام فانه كان لا يثق بعضهم ببعض الا القليل ونجم عن ذلك ان عبد الله بن حارثة ذبحه حرسه فى مدينة جيّان وأرسلوا رأسه الى الامير فى قرطبة سنة ١٤٩

هذا ولما أتم المكناسى مدّاته جاز البحر الى الاندلس ومعه كلّ من فى افريقية من الشيعة وأغلب فرسان البربر ونزلوا المنكب والمريّة واحدثوا هرجا وازعجوا هاتين الكورتين فبلغ خبرهم والى البيرة اسعد بن عبد الرحمن الشيبانى فتوجّه اليهم واقتفى آثارهم وقاتلهم قتالا شديدا وانتصر عليهم حتى الجأهم الى الفرار نحو جبال رندة فانضموا الى ثائرها لكنه اصيب بجرح بليغ اضطره الى العودة الي البيرة حيث مات سنة ١٥٠ للهجرة (مارث أو اقريل سنة ٧٦٧) فحزن عليه الامير حزنا شديدا لانه كان فارسا مغوارا ذا رأى سديد وقد دلّت الآثار العربية فى (الاسكوريال ESCURIAL) (١) على ان هذا الوالى هو الذى انشئت تحت رعايته مبانى غرناطة وحصونها الجديدة وأن عبد الرحمن أقام مكانه عبد السالم بن ابرهيم (كذا)

وأما الافريقى فقد تبعه الشّرد واللصوص واعتصموا جميعا بجبال

---

(١) برج فى اسبانيا فى سفح جبال نهر رامة على بعد ٤٠ كيلو مترا من مدريد نحو الغرب

رندة فكانت هذه الجبال بورة تأشب العصاة وثاروا فى مبدأ الأمر ينهبون ويخربون القرى المتاخمة لمأواهم ثم استفحل أمرهم فأخذوا يشنّون الغارات على أرقش وشدونة وكثيرا ما كانوا يدفعون عصاباتهم الى برارى اشبيلية فيسلبون سكان الاطراف وكان يطاردهم والى المدينة بفرسانه كى يلحقهم فى السهل ولكنهم كانوا يلجؤن سريعا الى الجبال حيث لا تقدر خيل الوالى أن تصيب رماتهم بضرر وكانوا يجتنبون المعارك الحقيقية الحاسمة للنزاع جاعلين اعداءهم فى فزع دائم مدّخرين من المؤن مايقوم باحتياجهم وبذلك اقلقوا زمنا طويلا راحة والي اشبيلية وقوّاد قرمونة و بيانة وأرقش وشدونة

وفى سنة ١٥١ (كذا) رسا فى طرطوشة عشرة سفن تقِل عساكر من البربر تحت قيادة عبد الله (كذا) بن حبيب الصقلبي جاءوا لاعانة المكناسى ولكن مرساهم كان بعيدا عن جبال رندة وكانوا يظنون ان سكان اسبانيا الشرقية يساعدونهم على ابن معاوية ولكن خاب ظنهم ولما بلغ الامير نزولهم جهّز جيشا وسار بنفسه الى ابن حبيب ولكنه لما وصل الي بلنسية جاءه الخبر من والى طرطوشة بانه بدّد شمل الافريقيين وان سفن ترجونة الحربية احرقت بعض مراكب العدوّ والجأت البعض الآخر الى الفرار ففرح عبد الرحمن بذلك لكنه لم يعد الي قرطبة بل تابع السير ليزور مدائن شرق اسبانيا فانه لم يزرها مع انها جزء من مملكته فزار طرطوشة و برشلونة

وطرجونة ووشقة وسرقسطة ثم عاد الى قرطبة من طريق طايطلة ـ وأما ابن حبيب نفسه فقد قتل لانه لم يجئ له ذكر في كلام المؤرخين (كذا)

وأما عساكره الذين تفرّقوا فانهم تمكّنوا من الانضمام الى عصابات المكناسى فى جبال رندة فتقوّت عزائمهم وتعدّدت غاراتهم ففازوا فى استبة ASTAPA على فرقة من الجنود التى جاءت من اشبيلية لتعترضهم وهزموا عساكر بيانة وقرمونة وخيّم معسكرهم على اميال من اشبيلية ولما علم أهلها بفوز الفاطمى نزع الساخطون منهم الي الثورة وأخبر كبيرهم وهو حيون بن سلمى (كذا) KAYOUN BEN SALEMA سرّا عبد الغافر (كذا) بانه يساعده على أخذ المدينة اذا هجم عليها

ولما بلغ والي اشبيلية وهو عبد الملك بن عمر (١) اقتراب عبد الغافر منها بعث طليعة تستكشف أمره تحت قيادة ابنه الصغير قاسم (كذا) فلما رأى قوتهم عاد مذعورا الي أبيه فقتله لجبنه ثم دارت رحى الحرب بين عبد الملك وعبد الغافر نهارا كاملا فانهزمت عساكر المكناسى ولكن انهزامهم كان نحو اشبيلية ولم يقتف اثرهم عبد الملك لما حلّ به من تعب النهار بل صرف الليل مستريحا فى ميدان القتال وأما المنهزمون فباتوا على بعد رمية سهم

---

١ ولاه عبد الرحمن اشبيلية سنة ٧٥٩ كذا فى رومي

من المدينة ولم يجرءوا على أن يجوسوا خلالها وفى صباح اليوم التالي وقع الهرج فى المدينة فان الشيخ حيون وحزبه أرادوا أن يفوا بوعدهم للمكناسى فاجتهدوا فى أن يستولوا على أبواب المدينة ويسلموها اليه وبينا هو عازم على أن يمدّ اليهم يد المساعدة اذ فاجأه عبد الملك فلم يتقهقر ووقعت بينهما واقعة دموية هائلة لم تنفرج حلقتها الا حين أرخى الليل ستاره وقد جرح فيها عبد الملك — وأما عبد الغافر فلم [يمكنه] ان يدخل المدينة بمساعدة حيون فنجا ليلا وفرّ فارا الى قشتالة CASCHTALA (كذا) (١)

ولما بلغ خبر ذلك الى الامير فاض صدره وأخذ يستجيش الجيوش من العسكر لمطاردة عبد الغافر حتى حصره بجيشان من قرطبة والبيرة نحو رابية استجة على شواطىء نهر شنيل وقتل والى البيرة عبد السلام ابن ابراهيم (كذا) فى سنة ١٥٦ للهجرة (٧٧٣) وقتل ابن سلمى (كذا) ونحو خمسين من الرؤساء الافريقيين و[أصحاب] قبيلة مكناسة .

وبعد هذه الواقعة توجّه عبد الرحمن الى اشبيلية ليزور واليها عبد الملك بن عمر ويعزّيه على ما أصابه من فقد ابنه وجرحه البليغ فى واقعة المكناسى على ابواب هذه المدينة وكان من تعزية الامير له ان ولاه سرقسطة واسبانيا الشرقية كلها » اه

---

(١) تسمي الآن قزالة *CAZALLA*

فاذا قابلنا بين الروايتين العربية والافرنجيه نرى بينهما اختلافا كثيرا
(١) ففى الاولى ان الفاطمى كان معلم صبيان وانه كان يعرف بشقنا ابن عبد الواحد وتسمى بعبد الله بن محمد . وفى الثانية انه كان والى مكناسة فى افريقية وانه كان يسمى عبد الغافر

(٢) وفى الاولى ان ابن حبيب الصقلبى يسمى عبد الرحمن وانه جاء اسبانيا سنة ١٦١ أو التى قبلها بعد قتل الفاطمى . وفى الثانية انه يسمى عبد الله وانه جاء اسبانيا سنة ١٥١ ليشد ازر الفاطمى

(٣) وفى الاولى ان الفاطمى غدر به رجلان من اصحابه سنة ١٦٠ او التى بعدها وفى الثانية انه قتل سنة ١٥٦ فى واقعة استجة وان الذى قتله هو والى البيرة عبد السالم بن ابراهيم

(٤) وفى الاولى ان عبد الغفار زعيم لبلة وحياة بن ملابس زعيم اشبيلية زحفا لأخذ قرطبة حينما توجّه الأمير نحو الشرق لقتال شقنا الفاطمى . وفى الثانية ان عبد الغافر هو المكناسى الفاطمى وانه جاء من الشرق لاخذ اشبيلية بايعاز من حيون بن سلمى

(٥) وفى الثانية ان الامير عيّن عبد الملك والى سرقسطة واسبانيا الشرقية ولا أثر لذلك فى الاولى وغير ذلك كثير والصحيح مافى التواريخ العربية فان التواريخ الافرنجية تستمدّ منها وتنقل عنها ولكنها عند النقل قد تكون كحاطب ليل

وفى سنة ١٦٣ (كما يؤخذ من ابن الاثير) عزم عبد الرحمن

على غزو بنى العباس وأخذ ثاره منهم فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيي بسرقسطة فسيّر اليهما ثعلبة بن عبيد فى عسكر كثيف فقاتلاهما قتالا شديدا حتى أخذ أسيراوتفرّق عسكره واستدعى سليمان قارله ملك الافرنج ووعده بتسليم المدينة وثعلبة اليه فلما وصل اليها اخفق مسعاه فى حصارها فعاد الى بلاده ومعه ثعلبة وهو يظن انه يأخذ به عظيم الفداء فاهمله عبد الرحمن مدة ثم طَلَبه من الافرنج فأطلقوه

وفى سنة ١٦٤ سار الامير الى سرقسطة وفرّق اولاده فى الجهات ليدفعوا كل مخالف ثم يدركونه فسبقهم اليها وكان الحسين قدقتل سليمان وانفرد بالمدينة فوافاه عبد الرحمن على اثر ذلك وضيّق على أهلها تضييقا شديدا فرغب الحسين فى الصلح وأذعن للطاعة فأجابه عبد الرحمن وصالحه وأخذ ابنه سعيدا رهينة ورجع عنها وغزا بلاد الافرنج فدوّخها ونهب وسلب و بلغ قَلَهُرَّة ثم سار الى بلاد البشكنس فقاتلهم وفتح بعض حصونهم ثم رجع الى قرطبة ثم ان الحسين نقض العهد فعاد الامير سنة ١٦٦ الى سرقسطة وحصرها وضايقها ونصب عليها المجانيق فملكها عَنْوة وقتل الحسين اقبح قتلة ونفى اهل سرقسطة منها ليمين تقدمت منه ثم ردّهم اليها

وفى سنة ١٦٨ ثار محمد بن يوسف الفهرى الملقب بابى الاسود فلقيه الامير على الوادى الاحمر بقسطلونة وهزمه وأثخن فى اصحابه

حتى قتل منهم اربعة آلاف سوى من تردّى فى النهر ولم يزل يقتفى آثار المنهزمين حتى جاوز قلعة رباح ثم لقيه ثانية سنة ١٦٩ وهزمه ثم هلك الفهرى سنة ١٧٠ بقرية من أعمال طليطلة وقام مكانه اخوه قاسم فغزاه الامير فجاءه بغير امان فقتله

ويؤخذ من دوزى ما تعريبه مع تصرف

« تعاقد محافظ برشلونة سليمان بن يقظان الاعرابى وعبدالرحمن ابن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى وأبو الاسود بن يوسف الذى كان عاقبه الامير بالسجن الدائم وتعامى حتى فرّ على ان يكونوا يدا واحدة على عبد الرحمن الاموى وان يطلبوا مساعدة شرلمان الذى اشتهر فى العالم بفتوحاته فتوجّهوا فى سنة ٧٧٧ للميلاد الى پَدِرْبُرن PADERBORN حيث يعقد شرلمان الجمعية العمومية واستنجدوه على أمير اسبانيا فأجاب طلبهم واتفقوا على ان الاعرابى وحلفاءه فى شمال نهر ابرة يساعدون شرلمان بعد أن يجوز جبال البرانس ويعترفون بسلطانه عليهم وان الصقلبى يجنّد البربر من افريقية ويقودهم الى اقليم تدمير (مرسية) كى يساعدوا الحركات التى تقع فى الشمال رافعين لواء الخليفة العباسى حليف شرلمان — هذه المؤامرة لو نفذت لكانت أشدّ وقعا على عبد الرحمن من الحوادث السابقة ولكن من سعد طالعه أن طرأ عليها ما أوقف حركتها فان الصقلبى أبحر حقيقة بجيش من البربر الى كورة مرسية ولكن وصل قبل أن يجوز شرلمان جبال

الأبواب فطلب مساعدة الاعرابى فأجابه ان الخطة المتفق عليها فى (پدر برن) أن ابقى فى الشمال لاساعد جيش شرلمان فأحفظ هذا الجواب الفهرى فوجّه جيشه اليه ليقاتله فصدّه الاعرابى واعاده الى تدمير فمتك به بربرى (١) يظن انه سفير ارسله الامير عبد الرحمن لهذا الفرض. هذا ما كان من أمر ابن حبيب وأما أبو الاسود فلم يذكر لنا مؤرخ من الفرنج أو العرب مافعل (كذا) فلم يبق من أعضاء مؤامرة (پدر برن) الا الاعرابى وحليفاه أبو ثور محافظ وشقة وجاندو كونت سردانية فلما جاوز جيش شرلمان جبال البرانس (١٦١ الهجرة — ٧٧٨ الميلاد) استولى على پنپلونه ووصل الى أبواب سرقسطة فقاوم دخوله فيها أميرها حسين بن يحيى من سلالة سعد بن عبادة الانصارى الذى طمح نظره الى الخلافة بعد موت النبى (صلى الله عليه وسلم) وكان لحسين سلطان على قلوب أهل المدينة لنسبه هذا فكبر عليهم أن يدخل مدينتهم ملك الفرنج ولما لم يستطع الاعرابى أن يقنعهم وخشى ان شرلمان يسيء الظن فيه القى بنفسه بين يديه وبينما الملك آخذ فى حصار المدينة اذ جاءه خبر أن البشكنس (٢) اغتنموا فرصة غيبته عن بلاده وسطوا عليها وأحرقوا وخرّبوا وذبحوا فاضطر أن يترك سريعا

---

١ فى تاريخ ابن عذارى ان قاتل ابن حبيب اسمه مشكار البربرى

٢ الافرنج يسمونهم بسكس *BASQUES* أو فكونس *VACONS* الظاهر ان الاسم العربى منحوت من هذين اللفظين ويؤخذ أيضا من كتاب (مسالك الممالك) للاصطخرى صحيفة ٤١ أنه يقال (بسكونس)

شواطئ نهرابره ويرجع الى شواطئ نهر رينRHIN وعند رجوعه انقضّوا على مؤخرة جيشه عند مضايق جبال البرانس فمزّقوها كل ممزّق وقتلوا الكونت روتلند قائد حدّ بريطانيا ونهبوا أمتعتها وفرّوا سراعا وقد أرخى الليل سدوله وعقب ذلك عاد الاعرابى الى سرقسطة فصدّه حسين خائنا لدينه فقتله فى المسجد ثم جاء عبد الرحمن وحصر المدينة فاطاعه حسين لكنه فيما بعد رفع لواء الثورة فأسلمه سكان المدينة المحصورون الى عبد الرحمن فقتله شرقتلة ثم أن الاميرغزا البشكنس وأخضع كونت سردانيه الى دفع الجزية ثم ثار أبوالاسود على الامير فالتقيا فى الوادى الاحمر GUADALIMAR وكانت بينهما معركة دمويّة قتل فيها من اصحاب الفهرى أربعة آلاف كانت اشلاؤهم أقواتا للسباع والنسور والسبب فى انخذال الفهريين خيانة قائد الجناح الايمن من جيش ابى الأسود (١)

لم يكن تتابع ثورات الثائرين على الامير حائلا دون سعيه فى ارتقاء بلاد الجزيرة فى الزراعة والعمارة والمعارف فقد بلغت قرطبة فى عهده شأوا بعيدا فى العمران والحضارة والعلم والفلسفة حتى صارت نبراس الاندلس وكعبة الاسلام فى الغرب — كان يرى فيها شوارع متسعة ومبان ضخمة وقصور مشيدة على طراز العمارات الشرقية الجميلة وحمامات

---

(١) فى ابن عذارى أن هذه الواقعة كانت يوم الاربعاء مستهل ربيع الاول سنة ١٦٩

وفنادق و بساتين على طول ضفة الوادى الكبير وجوامع ومعاهد للصلاة والتعليم — كان يهرع اليها من اسبانيا ومصر والشام والعراقين العلماء والشعراء والاطبّاء والفلاسفة. وقصارى القول انها كانت تضارع بغداد فى العظمة والشهرة (١)

وفى سنة ١٧٠ (٧٨٦) أمر الامير عبد الرحمن ببناء جامع قرطبة الشهير الذى تضلّ العين فى بدائعه وأخرج عليه مائة الف دينار . قيل أن هذا سوى ثمانين الف دينار دفعت ثمن الكنيسة التى كانت مكانه ومات قبل تمامه

ذكر بعض المؤرخين ان فى الجامع أشياء غريبة من الصنائع العجيبة يعجز عن وصفها الواصفون. قيل من بدائعه أن فيه ثلثمائة ونحو ستين طاقا على عدد أيام السنة وأن الشمس تدخل كل يوم من طاق الى أن يتمّ الدور ثم تعود وان فيه تنورا من نحاس أصفر يحمل الف مصباح وان فيه مصحفا من القرآن كتبه عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وقفه الامير على الجامع وفى آخر سنة ١٧١ (٧٨٨) لما أحس عبد الرحمن بقرب منيته دعا الي حضرته الحاجب وقاضى القضاة ووزراءه وولاة الاقاليم وعمّال الامصار واشهدهم على أنه عهد الي ابنه هشام بالولاية العامة على اسبانيا وأمرهم أن يعترفوا له بذلك فاطاعوا أمره ووعدوه بالاخلاص والطاعة لولى عهده حين يقوم

(١) دوزى ج ٣ ص ٢١٠ و ٢٤١

بأعباء الامارة وصافحوا هشاما يدا بيد دليلا على رضاهم وخضوعهم
واختار عبد الرحمن ابنه هشاما خليفة له فى الامارة مع انه كان أصغر من أخيه سليمان لانه كان يرى فيه فطانة واستقامة ودينا ودماثة أخلاق وأسداء معروف دونه ويروى أن أمّ هشام المسماة حوراء (١) كان لها ضلع فى هذا الاختيار وقد حضر سليمان مجلس تولية العهد لهشام فاستاء سرًّا من تفضيل أخيه الاصغر عليه
وفى سنة ١٧٢ مات الامام عبد الرحمن يوم الثلثاء لست بقين من ربيع الآخر (٣٠ سبتمبر سنة ٧٨٨) بعد أن حكم ٣٣ سنة هجرية (٣٢ سنة ميلادية)

ذنابات

الاولى — يحكى عن كيفية فرار عبد الرحمن الداخل من المشرق الى المغرب انه قال بينما أنا جالس يوما فى قرية على الفرات ذات شجر وغياض فى ظلمة بيت تواريت فيه لرمد ألمّ بى اذ دخل من باب البيت ابنى سليمان وهو ابن أربع سنين فزعا باكيا وهوى الى حجرى فجعلت أدفعه لما كان بى ويأبى الا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع فخرجت لأنظر فاذا بالروع قد نزل بالقرية ونظرت واذا بالرايات السود عليها منحطة وأخ لى حدث

---

١ و قيل اسمها (جمال) وقيل (حلل)

السن كان معى يشتدّ هاربا و يقول لى النجاة يا أخى فهذه رايات المسوّدة فضربت بيدى على دنانير تناولتها ونجوت وأخى يتبعنى وأعلمت اخواتى بمتوجّهى وأمرتهن أن يلحقننى ومولاى بدر معهن وخرجت وكمنت فى موضع ناء عن القرية فما كانت ساعة حتى أقبلت الخيل وأحاطت بالدار فلم تجد أثرا ومضيت فأتيت رجلا من معارفى بشطّ الفرات وأمرته أن يبتاع لى دوابّ وما يصلح لسفرى فدلّ علىّ عبد سوء له العامل فما راعنا الاّ جلبة الخيل تحفزنا فاشتددنا فى الهرب فسبقناها الى الفرات ورمينا فيه بأنفسنا والخيل تنادينا من الشطّ ارجعا لا بأس عليكما فسبحت وكنت أحسن السبح وسبح الغلام أخى فلما قطعنا نصف الفرات تقصّر أخى ودهش فالتفت اليه لأقوّى من قلبه فاذا هو قد أصغى اليهم وهم يخدعونه فناديته تقتل يا أخى الىّ الىّ فلم يسمعنى واغتر بأمانهم وخشى الغرق وانقلب نحوهم وقطعت أنا الفرات و بعضهم قد همّ للتجرد للسباحة فى أثرى فاستكفّه أصحابه عن ذلك فتركونى ثم قدّموا الصبىّ أخى الذى عاد اليهم بالامان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وانا أنظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فاحتملت فيه ثكلا ملأنى مخافة ومضيت الى وجهى أحسب انى طائر وانا سائر على قدمىّ فلجأت الى غيضة أشبة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ثم خرجت هاربا أؤمّ المغرب حتى وصلت الى افريقية

الثانية ــ يصفه بعض المؤرخين بأنه كان أصهب خفيف العارضين طويل القامة نحيف الجسم له ضفيرتان فصيحا لسنا شاعرا حليما عالما حازما سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه لا يخلد الى راحة ولا يسكن الى دعة ولا يكل الامور الى غيره ولا ينفرد فى الامور برأيه شجاعا مقداما بعيد الغور شديد الحذر سخيّا جوادا يكثر لبس البياض وكان يقاس بالمنصور فى حزمه وشدته وضبط المملكة

الثالثة ــ قال ابن حيّان وقّع الى سليمان بن يقظان الاعرابى على كتاب منه سلك به سبيل الخداع « أما بعد فدعنى من معاريض المعاذير والتعسّف عن جادّة الطريق لتمدّن يدا الى الطاعة والاعتصام بحبل الجماعة أو لألقين بنانها على رضف المعصية نكالا بما قدّمت يداك وما الله بظلام للعبيد »

الرابعة ــ ذكر ان أبا جعفر المنصور قال يوما لبعض جلسائه أخبرونى من صقر قريش من الملوك قالوا ذاك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكّن الزلازل وأباد الاعداء وحسم الادواء قال ماقلتم شيئا قالوا فمعاوية قال لا قالوا فعبد الملك بن مروان قال ما قلتم شيئا قالوا يا أمير المؤمنين فمن هو قال صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا اعجميا منفردا بنفسه فمصّر الامصار وجنّد الأجناد ودوّن الدواوين وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته . ان معاوية نهض بمركب

حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه وعبد الملك بيعة أبرمتاها

الخامسة — قيل لما خرج من البحر أول قدومه على الأندلس أتوه بخمر فقال اني محتاج لما يزيد في عقلي لا لما ينقصه فعرفوا بذلك قدره ثم أهديت اليه جارية جميلة فنظر اليها وقال ان هذه من القلب والعين بمكان وان انا اشتغلت عنها بهمّتي فيما اطلبه ظلمتها وان اشتغلت بها عما اطلبه ظلمت همتي ولا حاجة لي بها الان وردّها على صاحبها

﴿ ٢ — هشام بن عبد الرحمن ﴾

لما توفي الامير عبد الرحمن يوم الثلثاء ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٧٢ (٣٠ سبتمبر ٧٨٨) (١) كان ابنه الاكبر سليمان واليا على طليطلة وابنه هشام على ماردة وابنه عبد الله هو الذى حضر وفاته بقرطبة (١) وصلّى

---

١ يقول رومي ان تاريخ الوفاة كان يوم الثلثاء ٣٠ سبتمبر سنة ٧٨٨ وفي تمهيداته ان هذا التاريخ يوافق ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٧٢ للهجرة وفي كندى ان تاريخ الوفاة كان في ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٧١ وخطأه رومي في اليوم والسنة — وفي التواريخ العربية انه مات يوم الثلثاء لست بقين من ربيع الثاني سنة ١٧٢ وهذا هو الصحيح لانه يؤخذ من تقويم مقارنات السنين الهجرية بالسنين الميلادية ان شهر ربيع الثاني من سنة ١٧٢ — ٢٩ يوما وان اوله يوم الاثنين الموافق ٨ سبتمبر من سنة ٧٨٨ فيلزم ان يكون يوم الثلثاء لست بقين من الشهر العربي هو يوم ٢٣ منه الموافق ٣٠ سبتمبر

عليه(١) ثم ذهب الى قصر الامارة مؤملا ان يقبل عليه كبراء المدينة ويحيّوه بتحيات أمير جديد فلم يحم حول القصر منهم أحد(٢) ولما تحقق ان رغبات الاهلين منصرفة عنه الى أخيه هشام ولىّ العهد رأى من الحكمة أن لا يركب هواه فجدّد البيعة لاخيه هذا وكتب اليه بنعى أبيه وبالامارة (٣) وبأن يحضر قرطبة ليذهب هو الى ماردة

فسار هشام من ساعته الى قرطبة فدخلها بعد يوم الوفاة بستة أيام فقابله أهلوها بفرح وسرور وبايعه الخاصّة والعامّة يوم الاحد مستهل جمادى الاولى سنة ١٧٢ وكان عمره وقتئذ فوق الثلاثين (٤) وكان مهيبا شهما تقيّا كريما عادلا وكانوا يلقبونه بالعادل وبالرضىّ

---

١ ابن الاثير ويؤخذ من روى ان عبد الرحمن بعد ان عهد الى ابنه هشام بالامارة في محفل حافل توجه الى ماردة حيث تنازل فيها عن الحكم الى ابنه هشام الذى كان معه وان عبد الله بقى فى قرطبة — ولم يذكر لنا التاريخ ما كان قائما به من الاعمال — وان سليمان توجه الى طليطلة — واستمرت اقامة عبد الرحمن فى ماردة الى اواخر ربيع الثانى سنة ١٧٢ للهجرة وفيها مرض ومات ثم شهرت امارة هشام في هذه المدينة فى ٢٤ هذا الشهر (أول اكتوبر سنة ٧٨٨) وهتف الخطباء باسمه على المنابر

٢ كندي (٣) ابن الاثير (٤) قال كندى ان عمره ٣٠ سنة وخطأه رومى وقال ان هشاما ولد فى أول مارث سنة ٧٥٧ فيكون عمره في أول اكتوبر سنة ٧٨٨ أحدى وثلاثين سنة وسبعة أشهر وأقول ان كندى جعل امارة هشام فى سنة ١٧١ لا فى سنة ١٧٢ واغفل الشهور التى أقل من سنة

وأمّا عبد الله فرحل الى ماردة بأذن من أخيه (١)

ولما علم سليمان ببيعة هشام غصّ بها فانه كان يروم الأمر لنفسه ويحسد أخاه هشاما على تقديم والده له عليه وكتب الى أخيه عبد الله يستقدمه من ماردة الى طليطلة فجاءها بدون ان يعلم الامير ولكن وزير ماردة أعلمه ذلك

فاتفق الاخوان سليمان وعبد الله ان يستقلا فى أقاليمهما و يتصرفا تصرف الحاكم المطلق بدون ارتباط بالامير فعارضهما وزير طليطلة غالب بن تمّام فيما اتفقا عليه فسجنه سليمان فارسل الامير رسولا يسأله عن سبب سجن الوزير فكان جواب سليمان ان جاء بالمسجون وخزقه أمام الرسول وقال له «قل لمولاك يدعنا نحكم فى اقاليمنا أحراراً جزاء ما ألمّ بنا من الضرر من امارته التى سبقت ابّانها»

هذا الجواب أحفظ هشاما فكتب الى ولاة الاقاليم وقضاتها بأن سليمان واخاه عبد الله شقّا عصا الطاعة فليحافظوا على مدائنهم وحصونهم من اعتدائهما ولا يطيعوا لهما أمرا ولا يسمحوا لهما بالايواء اليهم وجهز عشرين الف جندى وتوجّه الى طليطلة فلما علم بذلك سليمان جهّز خمسة عشر الفاً وسار الى قرطبة تاركا ابنه وأخاه يحفظان المدينة فالتقى الجيشان

---

(١) كندى ورومى — وفى ابن الاثير فى سنة ١٧٣ ان عبد الله خاف من أخيه هشام فمضى هاربا الى أخيه سليمان وهو بطليطلة فأرسل هشام جمعا فى اثره ليردوه فلم يلحقوه

بالقرب من حصن بلخ BOULCHE OU BOULKH
ودارت رحى الحرب كأنها بين خصمين اختلفا فى الدين واللغة وكانت
المعركة هائلة سالت فيها الدماء على الصحصحان ولم يحل دون منايا
القتال الا أن أرخى الليل سدوله فتمزق جيش سليمان وآوى الى الجبال
تحت أستار الظلام سنة ١٧٣ وفى صبيحة اليوم التالى لما لم ير الجيش
الغالب أثرا للمغلوب تابع سيره نحو طليطلة حتى حاصرها. وكانت منيعة
الاركان لحصانة موقعها من جهة ولعناية عبد الله وشهامته من أخرى

وأما سليمان فانه جمع قوته ونزل من الجبال الى برارى قرطبة
فاحتل" قلعة شقندة فخرج اليه عبد الله بن عبد الملك المروانى من قرطبة
وقاتله حتى أخرجه من شقندة والجأه الى الجبال ثانية فاستنجد بوزير
ماردة و بشيوخ هذه الكورة فقاموا لكن لا لنجدته بل لقهره وطرده
الى أرض تدمير

لمّا رأى عبد الله أن أخاه سليمان لا يمكنه ان يفلح فى ان ينضم
اليه وان مؤن المدينة نفدت وان الاهلين عيل صبرهم وضعفت عزائمهم
سأل قوّاد الجيش فى ان يسمحوا بجواز رسولين الى الامير ليفاوضاه
بالنيابة عن أهل المدينة فى الصلح فجاز متنكرا هو ووزيره وتوجّها
الى قرطبة فقابله هشام بصدر رحيب وعفا عما سلف ووعد بالعفو عن
أخيه سليمان اذا جاءه معتذرا ثم عادا الى طليطلة ففتحت أبوابها وقوبل
فيها الامير على الرحب والسعة ودخل قصر الامارة هو وأخوه وابن

أخيه وأقام أحد أقارب الوزير غالب بن تمّام الذى خزقه سليمان عاملا على طليطلة وأسكن أخاه قصرا فى ضواحيها ثم عاد الى قرطبة مفكراً فى الوسائل التى تخضع أخاه الثانى سليمان

ولما علم هذا بتسليم طليطلة حزن كثيرا ولكنه لم ييأس وأخذ يجول فى أنحاء كورة تدمير مستفزّا الاهلين الى الثورة وأن يشدّوا أزره فقاد اليه هشام جيشا كانت مقدمته مؤلفة من نخبة فرسان الاندلس تحت امرة ابنه الحكم وكان شابا لم يرأس فرقة قبل هذه المرة فجدّت هذه المقدمة فى المسير حتى لاقت عساكر سليمان فى برارى لورقة وكانت تنتظر قائدها الذى كان يجمع مددا من البلاد المجاورة فشباب الحكم دفعه الى أن يهجم عليها بدون ريث ولا امهال ولا سماع نصيحة سوى صوت حميّته فبدّد شملها وفرّق جمعها تاركة ميدان الحرب مغطّى باشلاء قتلاها فلما حضر جيش هشام لم ير من يقاتله ففرح الامير بنصر ابنه نصرا مبينا واثنى على شجاعة فرسانه ثناء حسنا ولكنه عاتب الحكم على عجلته واقدامه بدون نظر فى العواقب ونصحه بان يقدّم الرأى قبل الشجاعة

ولما وصل المنهزمون الى سليمان ندب حفلّه ثم توجّه ومعه شرذمة من فرسانه الى أرض بلنسية ومرّ بالقرب من دانية ولم يزل مرتكبا التعاسيف وجيش هشام يقتفى أثره حتى ألقى بنفسه فى جزيرة شقر XUCAR وهى محل حصين يكتنفه النهر وهناك كتب الى أخيه يلتمس

الصلح فأجابه بان يترك اسبانيا و يأخذ ماله و ٦٠ الف دينار مصالحة على تركة أبيه فرضخ سليمان الى ذلك ورحل قاصدا عدوة المغرب ليسكن طنجة وكان ذلك فى الاشهر الاولى من سنة ١٧٤ للهجرة (٧٩٠) وأما عبد الله فقيل انه بقى فى اسبانيا وقيل انه لحق بأخيه

فى أثناء قيام الشجار بين هشام وأخويه ثار سعيد بن الحسين بن يحيى الانصارى بشاغنت من اقليم طرطوشة فى شرق الاندلس واجتمع له خلق كثير وملك مدينة طرطوشة وأخرج عاملها يوسف القيسى (١) فجاء الى والى بلنسية موسى (٢) أمر من الأمير هشام بان يقمع العصاة فلمّا قرب من طرطوشة قابله سعيد بن الحسين ووقع بين الخصمين معركة انهزم فيها سعيد وقتل (٣) وسار موسى الى طرطوشة فملكها فخرج عليه مولى للحسين بن يحيى اسمه جحدر فى جمع كثير فقاتله وقتل موسى (٤) وانهزم اصحابه فى أواخر سنة ١٧٣ للهجرة (٧٨٩) (٥)

فى هذه الاثناء أيضا ثار مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونه وخرج معه جمع كثير فملك مدينة سرقسطة ومدينة وشقه وتغلب

---

١ ابن الاثير (٢) ابن الاثير يسميه موسى بن فرتون وكندى ودوزي يسميانه موسي بن حذيرة *HODHEIRAH* (٣) ابن الاثير
(٤) كذا فى ابن الاثير وفي دوزي ان الذي قتل سعيدا هو ابو عثمان الذي خلف موسي فى ولاية بلنسية (٥) كندى ودوزي

على الثغر كله (١) فكلّف الامير هشام ابا عثمان والى بلنسية الجديد الذي خلف موسى بان يطفىء نار هذه الثورة فتوجّه الى اسبانيا الشرقية فى أوائل سنة ٧٩٠ للميلاد وسار الى مطروح بن سليمان وهو فى سرقسطة فحصره فلم يظفر به فرجع ابو عثمان ونزل حصن طرطوشة بالقرب من سرقسطة وبث سراياه على أهل سرقسطة يغيرون ويمنعون عنهم الميرة ثم ان مطروحا خرج يوما يتصيّد فأرسل البازى على طائر فاقتنصه فنزل مطروح ليذبحه بيده ومعه صاحبان له قد انفرد بهما عن أصحابه فتعاوراه بسيوفهما حتى قتلاه واحتزا رأسه وتقدّما به الي أبي عثمان فسار الى سرقسطة ونزلها بدون ممانع وبعث برأس مطروح الى الامير هشام

لما سكنت زوابع الثورات فى اسبانيا باخضاع اخوى الأمير وقمع الثائرين فى شرقها وعمّ السلام البلاد صرف هشام عزيمته الى غزو الفرنج فى الشرق الاعلى والبشكنس والاستوريين والجلالقة فى شمالها

ففى مبدأ سنة ١٧٥ للهجرة أرسل كتبا الى البلاد كافّة يستنفرهم الى الجهاد بخيلهم ورجلهم وسلاحهم ومالهم وخطب الخطباء بذلك فى جميع المساجد فلبّوا دعوته العامّة وصار يرسل الجيوش المؤلفة منهم تباعاً

---

١ ابن الاثير وابن عذارى وفى كندى وروسى ان بهلول بن مخلوق ابا الحجاج استولي على سرقسطة ووضع هو وولاة برشلونه وطرجونه حدود الارض التى أرادوا ان يستقلوا بها

فى هذه السنة والسنين التاليات بعضها الى الحدود لردّ البلاد التى غصبها هؤلاء الاقوام و بعضها الى داخل بلادهم للاستيلاء عليها

قال ابن عذارى نقلا عن الرازى وغيره ان الامير هشاما أغزى فى سنة ١٧٦ ابا عثمان الى ألبه (١) والقلاع فلقى الاعداء فهزمهم وقتل منهم كثيرا وأغزى يوسف بن بخت جليقية فلقى ملكهم برمود BERMOUDE (٢) وواضعه الحرب فانهزم الجلالقه اه

وفى سنة ١٧٧ لما فطن الامير هشام الى ان اقليم سبتمانية خال من الحامية بسبب اشتغال شرلمان وابنه لويز ملك اكيتانه باطفاء ثورة الثائرين على ابنه الثانى ملك ايتاليا ITALIE وجّه جيشا عرمرما تحت امرة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد الى أرض الفرنج (الفرنك FRANK) فدخلها حتى بلغ جرنده (٣) فقتل رجالها وهدم أ سوارها وأبراجها وفتحها ثم رحل عنها الى أربونه (نربونة)

---

١ تراها في التواريخ العربية بالباء الموحدة وقد رأيتها مضبوطة بالتحريك فى تاريخ ابن عذاري وقد بحثت عنها فى معجم ياقوت وغيره فلم أرها ثم رأيت مايقابلها فى تاريخ رومى مرسوما هكذا *ILIA* ايليا وهذا يدل على انها بالياء المثناه لا بالموحدة فحرر

٢ أو (برمند *VERMENDUS*) يروي انهما التقيا في محل يسمى (بريبا) فوقعت بينهما معركة كان الفوز فيها للعرب ورجع جيش المسلمين مثقلا بالغنائم والاسلاب

٣ كذا في ابن الاثير وفى كنندى جيرونه *GERONA*

ففعل بها مثل ذلك حتى استولى عليها (١) ثم جاس البلاد شهورا يخرّب الحصون ويحرق ويغنم والسكان يفرّون من بين يديه طالبين النجاة ثم رجع ومعه غنائم واسعة من الذهب والفضة والانسجة النفيسة وبلغ خمس هذه الغنائم الذي كان باسم الامير ٤٥ الف مثقال من الذهب العين وقد فرح اهل قرطبة بهذا الفوز المبين وحبس الامير الخمس على بناء الجامع الكبير في قرطبة وهذه الغزوة من أشهر غزوات المسلمين

وأمر الامير هشام عبد الله بن عبد الملك والى سرقسطة بان يقيم على الحدود

وفى سنة (١٧٨) أغار عبد الكريم بن عبد الواحد ثانية على بلاد ايليا ILIA والقلاع فغنم وسلم

وفى ابن الاثير فى حوادث سنة ١٧٩ أن هشاما صاحب الاندلس سيَّر جيشا كثيفا عليهم عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث الى جليقية فساروا حتى انتهوا الى استرقه ASTORGA وكان أذفونش ملك الجلالقة قد جمع وحشد وامدّه ملك البشكنس وهم جيرانه فصار فى جمع عظيم فأقدم عليه عبد الملك فرجع اذفونش هيبة له وتبعهم عبد الملك يقفو أثرهم ويهلك كل من تخلف منهم فدوّخ بلادهم وأوغل فيها يغنم

---

(١) في كندى ان العرب أخذوا مدينتى جيرونه وزربونه بالقوة ووضعوا السيف فى رؤس اهليهما وعبارة ابن الاثير تفيد أنهم اشرفوا على فتحهما

ويقتل ويخرّب ورجع سالما

وكان قد سيّر هشام جيشا آخر من ناحية أخرى فدخلوا أيضاً على ميعاد من عبد الملك فاخربوا ونهبوا وغنموا فلما ارادوا الخروج من بلاد العدو اعترضهم عسكر الفرنج فنالوا منهم وقتلوا نفرا من المسلمين وعاد الباقون سالمين اه

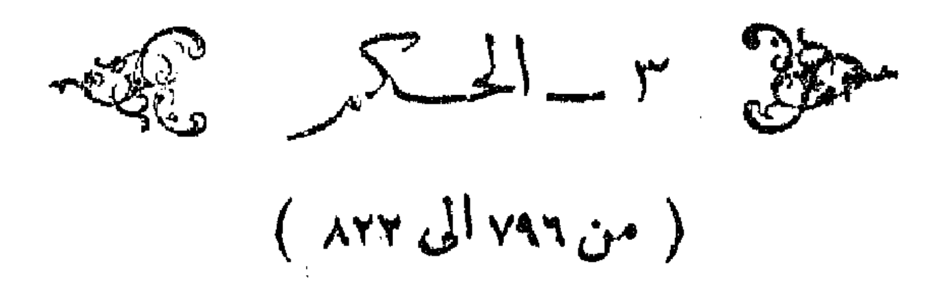
وفى رومى « فى سنة ١٧٨ (٧٩٤) اغار عبد الكريم بن عبد الواحد ثانية على بلاد ايليا ILIA والقصور . وفى الوقت عينه زحف أخوه عبد الملك من طريق آخر على أرض النصارى فلقى فى استرقه ASTORGA ملك جليقية وملك البشكنس فلم يجرأا على مهاجمته فتوغل عبد الملك فى بلادهم لكن عند رجوعه مثقلا بالغنائم كمن له العدوّ فى الطريق فخسر المسلمون خسارة تذكر وقتل منهم شجعانهم ومن بينهم يوسف بن بخت الذى كان قائد فرقة منهم وردّت منهم الغنائم والاسرى » — يظهر ان هذه الغزوة ابتدأت فى أواخر سنة ١٧٨ وانتهت فى سنة ١٧٩ وهى آخر غزوة غزاها هشام

ما كان غزو هشام صارفا له عن تحسين قرطبة فقد أنشأ فيها كثيرا من المبانى والمساجد التى كانت تتخذ مدارس لتعليم الفقه واللسان العربى ويروى أنه منع النصارى أن يتكلموا بغير هذا اللسان وان يكتبوا بلسانهم اللاتينى — وكان شغف المسلمين فى عهده بعد الغزو بهندسة الابنية وقرض الشعر وفقه الدين

واشتهر بالشعر فى عصره عامر بن ابى جعفر وكان قيّما فى طايطلة على التركات التى لا وارث لها الآيلة الى بيت مال المسلمين

واشتهر بالفقة زياد بن عبد الرحمن الذى رحل الى الشرق ليتلقى الموطّأ عن مالك بن أنس ثم عاد الى الاندلس فادخل مذهبه فيها

وفى سنة ١٧٩ للهجرة (٧٩٥ للميلاد) جمع هشام فى القصر الحاجب والوزراء وقاضى القضاة والولاة والخطباء وأعلمهم بان ابنه الحكم هو ولىّ العهد بعده وكان عمره وقتئذ ٢٢ سنة ثم مرض هشام فى أوائل صفر سنة ١٨٠ للهجرة ومات فى ثانى عشر هذا الشهر (٣٦ ابريل سنة ٧٩٦) بعد ان حكم سبع سنين قمرية وتسعة اشهر كذلك وثمانية عشر يوما أو سبع سنين افرنجية وستة أشهر كذلك وستة وعشرين يوما (١)



٣ ــ الحكم

(من ٧٩٦ الى ٨٢٢)

بعد وفاة هشام ولِىَ الامرَ بعده ابنه الحكم بعهد منه وشهرت

---

(١) انظر رومى (ص ٣١٠ ج ٣)

امارته فى موكب حافل يوم ١٤ صفر سنة ١٨٠ (٢٨ ابريل سنة ٧٩٦) وفى الجمعة الاولى (١٥ صفر) من حكمه حضر الصلاة فى جامع قرطبة الكبير وخطب الخطيب باسمه على المنبر وكان وقتئذ ابن خمس وعشرين سنة (١) وكان الناس يأملون فيه أن يكون خير خلف لأبيه وجدّه فان سيماه السامية كانت تنبئ بذلك وتربيته من شأنها أن تهدى الى الصراط المستقيم ولكن لا يعلم الباطن الا الله . يصفه بعض المؤرخين بانه كان عالما فطنا فصيحا شاعرا صارما حازما لكنه متكبر قاسى القلب سريع الغضب ويصفه البعض بانه كان طاغيا مسرفا له آثار سوء قبيحة امه ام ولد اسمها زخرف اه وأعماله الآتية تنبئك عن صفاته فانها أكبر شاهد

لما ولى الامارة الحكم اختار عبد الكريم بن عبد الواحد (٢) حاجبا له فانه تربى معه فى الصغر وكان أمين كتبه وكان الامير يعجب بعلمه وقريضه وامانته وشجاعته

وقد نازعه فى الامارة عمّاه سليمان وعبد الله : فالاول كان يعيش فى طنجة من ابتداء سنة ٧٩٠ ولثروته واخلاقه كثرت أشياعه والثانى لم يترك اسبانيا (على قول) بل أقام فى القصر الذى فى ضاحية طليطلة

---

١ فى كثير من التواريخ ومنها كندي انه ابن ٢٣ سنة ولكن في روي انه كان ابن ٢٥ سنة وهو الصحيح

٢ يقول كندي عبد الكريم بن عبد الوليد

لا يحرك ساكنا مدة حكم اخيه هشام للمعاهدة التي بينهما ولكنه في هذه الاثناء كوّن لهحزبا قويّا من قوّاد أعمال طليطلة كبيرهم عبيد الله ابن حمزة — فلما جاء عبد الله النبأ بموت أخيه وولاية الحكم نزعت نفسه الى الثورة لكنه رغب أن يتفاوض مع سليمان في الأمر أوّلا فرحل هو وأسرته الى طنجة بعد أن عهد الى ابن حمزة بزعامة حزبه.

هنا لا ينص التاريخ على ما اتفق عليه الاخوان سليمان وعبيد الله لكن الحوادث الآتية تعرب عن هذا الاتفاق فان عبد الله بعد أن أقام مدة قصيرة في افريقية ذهب سرًّا الى (شرلمان) ملك الفرنج (الفرنك) فاستقبله في قصره في مدينة (اكس لاشبال) AIX-LA CHAPELLE سنة ٧٩٧ وعقب ذلك دعا شرلمان ابنه لويس من اكيتانه وقابل نائب (ألفونس) ملك استوريا وجليقية ويظهر أنهم اتفقوا على أن يشعلوا نيران الثورة في عدة جهات من اسبانيا في آن واحد كي ينزعوا الامارة من الحكم فقد عاد لويس الى اكيتانه ومعه عبد الله وقصد هذا اسبانيا ولوى على طليطلة فوجد عبيدة بن حمزة (١) ومعه قوّاد حصون اقليش (٢) UCLES وهباده (٣)

---

١ كذا في كندي ورومي وفي ابن الاثير عبيدة بن حميد وقيل أيضا ابن عمير حرر

٢ قال ياقوت اقليش مدينة بالاندلس من اعمال شنت مرية وقال الحميدي بليدة من أعمال طليطلة

٣ كذا في كندي وفي رومي هباده *HUBÉDA*

HUELDE وشنت بريه مستعدّين له استعدادا تامًّا فأماطوا جميعا لثام الاستتار ورفعوا لواء العصيان واستولوا على أبواب وقصر طليطلة فى خريف سنة ١٨١ (٧٩٧) ولم يبق على طاعة الحكم من قوّاد ضواحى طليطلة الا عمروس قائد طلبيرة وفى الوقت عينه جاز سليمان بجيش جرّار من افريقية الى اسبانيا فبلغ الحكم قيام عمّيه فعبّى جيوشه ووجّه فرسان أرقش وشريش وشدونه واشبيليـة لصدّ سليمان ومنع اتصال جيشه بجيش أخيه عبد الله وتوجّـه هو الى طليطلة

وفى هذه الاثناء أرسل لويس ا كيتانه جيشا اجتاز الثغور واستولى على نربونه وجيرونه سنة ٧٩٧ للميلاد وهدّد مدن الحدّ الشرقى وخضعت له مدن بنبلونه ووشقه ولاردة ونجم عن ذلك ان قامت ثورة فى برشلونه أعقبها سقوط المدينة فى يد من أهداها الى شرلمان .

دعت هذه الكوارث قاضى وشقة المسمّى عبد السلام بن عبد الوليد الى ان يكتب الى الحكم بان الافرنج شنوا الغارة الشعواء على البلاد وان سقطت فى أيديهم بعض المدن وان ولاة الحدود مالوا اليهم وأن والى وشقه سلّم المدينة بشروط معيبة فلما قرأ ذلك الحكم ترك ثورة طليطلة الى القائد عمروس وتوجّه فى الحال الى الحدود يقود جيشا عظيما فاستردّ وشقـة ولاردة وبرشلونه وجيرونه ثم زحف على أرض افرنجـة فدخل نربونه وفتك بالافرنج فتكا ذريعا وسبى نساءهم

وأولادهم وغنم غنائم واسعة رجع منصورا ولذا لقبوه بالمظفر (١) وأقام على الحدود عبد الكريم بن عبد الواحد وفطيس بن سليمان وأسرع هو الى طايطلة وحارب عمّيه فى عدة وقائع كان له فيها الغلب عليهما حتى الجأهما فى سنة ١٨٣ الى أرض تدمير

ودارت رحى الحرب دورات بين الحكم وجيش عمّيه كان فيها الغلب له عليهما وفى الواقعة الاخيرة حمى الوطيس بين الجيشين وكلاهما يكرّ على الآخر كرّ من يثق أن الفوز له وقد اظهر سليمان وأخوه عبد الله شجاعة ليس فوقها شجاعة حتى خال الرائى وقتئذ أن سيكون لهما الغلب ولكن قدّر الله اصابة سليمان بسهم فى نحره فسقط صريعا ووطئته سنابك الخيل فلما رأى عبد الله ما أصاب أخاه اخذ فى الهزيمة وقد خيّم الظلام الى ان التجأ الى بلنسية ثم جيء بجثة سليمان الى ابن أخيه الحكم فبكاه وشيّع جنازته باجلال واحترام سنة ١٨٤ (٢)

---

١ كندى وروى ولم أر فى التواريخ العربية اثرا لهذه الواقعة فى السنين الاولى من حكم الحكم وبعد ان يرى الحكم قيام الثورات فى الجنوب والجوف من عميه ويتركهما قاصدا الحدود قبل ان يطفىء نيرانها الا ان ابن الاثير وتبعه غيره ذكر أن الحكم سير فى سنة ١٨٠ جيشا مع عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الفرنج فدخل البلاد وبث السرايا ينهبون ويقتلون ويحرقون حتى غنموا مال الفرنج واسروا رجالهم وسبوا حريمهم وعادوا سالمين .... اه بتصرف وتاريخ هذه الواقعة سابق تاريخ قيام سليمان وعبد الله على الحكم

٢ كذا يؤخذ من كندي — وفى ابن الاثير فى حوادث سنة ١٨٥ ان سليمان انهزم وقصد ماردة فتبعه طائفة من عسكر الحكم فأسروه فلما حضر عنده

بعدئذ لم يسع عبد الله الا ان يطلب الصلح من الحكم فأجابه اليه على ان يجعل أولاده نزلاء عنده فى قرطبة فذهب عبد الله الى طنجة وأرسل ولديه الى الحكم فقابلهما بحفاوة واجلال ورتب لعمه كل شهر الف دينار وفوق ذلك خمسة آلاف فى كل سنة وأباح له السكنى فى قصور ضاحية بلنسية وعفا عن القوّاد الذين كانوا معه وزوّج اخته المسماة (كنزاً) لأكبر ولدى عمه المسمى أصبغ وكان بذلك حسم النزاع سنة ١٨٦ (١)

وفى سنة ١٨٤ التى قامت فيها المعركة الاخيرة بين الحكم وعمّيه سلّمت طليطلة زعيم الثورة عبيدة بن حمزه الى القائد عمروس فقطع رأسه وأرسله الى قرطبة ودخل المدينة وأقام ابنه يوسف محافظا عليها وأسرع فى اللحاق بالامير ومعه القوى التى أمكنه أن يعدّها ولم يترك حامية فى طليطلة فأدركه فى معسكره فى جنجيلة (٢)

يؤخذ من رومى ان الفرنج انتهزوا فرصة قيام الخصام بين الحكم

= الحكم قتله وبعث برأسه الى قرطبة وكتب الى أولاد سليمان وهم بسرقسطة كتاب أمان واستدعاهم فحضروا واعتده بقرطبة

١ في ابن الاثير وغيره ان الصلح تم في سنة ١٨٦ وفي كندي وتبعه رومى انه كان فى سنة ١٨٤ والمتبادر ان الواقعة الاخيرة هى التى كانت في سنة ١٨٤ (٨٠٠) وأما الصلح فكانت خاتمته فى سنة ١٨٦

٢ قال ياقوت جنجيله مدينة بالاندلس بين شاطبة ومرسيه

وعمّيه فى السنين ٧٩٨ و ٧٩٩ و ٨٠٠

١ — فاغاروا على اسبانيا الشرقية وأوغلوا فيها وسبب ذلك انهم بعد أن ضربهم الحكم فى آخر سنة ٧٩٧ واخرجهم من الانحاء التى فتحوها وطردهم من اسبانيا الشرقية ومن جزء من سبتمانية ماصدّهم ذلك كله عن مقصدهم نحو اسبانيا ففى أوائل سنة ٧٩٨ اجتمع مجلس أمّتهم فى طاوشة وقرّر ارسال تجريدة الى اسبانيا وفى PLAIDE ذلك الوقت كان بهلول يحكم البلاد الجبلية التى تتاخم اكيتانه وقد ضربه الفرنج فى السنة الماضية فأرسل مبعوثين ليقدّموا الى المجلس هدايا ويلتمسوا الصلح فاكرم لويس وفادتهم وأجاب ملتمسهم وربّما كان ارسال التجريدة الى اسبانيا من ملتمسات بهلول من المجلس وقد استولت هذه التجريدة على جرونه وروذة وأميرياس

٢ — واقاموا قلاعا قويّة على الحدود وقد شغلتهم اقامة هذه القلاع عن ارسال بعثة حربية فى سنة ٧٩٩ الى ماوراء جبال الابواب ولكنها لما كملت فى السنة الاولى من القرن التاسع ورأى لويس حصانتها على طول جبال البرانس اجتاز الحدود الى اسبانيا وكان مقصده الوحيد على ما يظهر أن يتحقق من صحة الوعود والقيود التى ارتبط بها زيد محافظ برشلونه وحسن محافظ وشقة فان الاول اطاع شرلمان طاعة اسميّة سنة ٧٩٧ ولما قرب الملك من برشلونه جاء اليه

زيد واستقبله باجلال وتعظيم ولكن لم يسلّمه المدينة فتقدم الملك الى لاردة وهاجمها فأخذها ثم خرّبها وخرّب عدة قصور وقلاع على الطريق الذى بين لاردة ووشقة ووالى هذه المدينة رفض ان يسلمها وكانت حصينة فاكتفى لويس باتلاف مزرعات قمحها وباحراق ما كان خارجا عن أسوارها ولما جاء الشتاء عاد هو وجيشه الى اكيتانه

وفى ربيع السنة التالية عقدت الجمعية العمومية لمملكة اكتيانه فى طلوشه وقررت أخذ برشلونه فجمعت الجنود من أربع امم تابعة لهذه المملكة: من الفرنك والبشكنس والقوط والاكيتان وجازت حدود جبال البرانس حتى وصلت الى اسوار برشلونه وحاصرتها وكان أميرها يسمى زيدون فأثار حميّة سكانها وحضهم على الدفاع والذود عن بيضتهم وصدّ الاعداء عن عاصمتهم فاستعدوا ودفعوا هجمات العدوّ برميه بالنبال والقلاعات من فوق أسوار المدينة ولكن آل الامر الى سقوطها فى سنة ٨٠١ م

ويؤخذ من كندى ان نصارى الفرنج أغاروا فى سنة ١٨٥ على شرق اسبانيا فحاصروا مدينة جيرونة حتى خضعت ثم توجهوا الى برشلونه فحاصروها زمنا طويلا اذ كانت منيعة فان المسلمين كانوا حصنوها تحصينا قويّا وان الحكم لما بلغه ثورة بهلول بن مرزوق وانه يقود النصارى نحو طرجونة وكورة طرطوشة أمر بتوجيه قوة تطفىء ثورته وتردع هؤلاء الخائنين — وفى اثناء اعداد معدّات القوة جاء الخبر الى

قرطبة بسقوط برشلونه سنة ١٨٥ بعد أن طال حصارها سبعة أشهر (١) وفي أثر ذلك سار الحكم نفسه الى شرق اسبانيا ومعه قائد فرسانه محمد ابن مفرج والوالي عمروس ولكن هذا عاد الى طليطلة وسبب ذلك أن يوسف بن عمروس أحفظ أهل طليطلة وأهاج نفوسهم عليه لغلظته وقسوته حتى تجمعوا حول بيته ورموه بالحجارة وجرحوا كثيرا من حرسه وأرادوا الفتك به لولا أن حال دون ذلك كبراء المدينة وكتبوا الى الحكم بهيجان الطليطليين وقيامهم على واليهم وانه غير أهل لمنصبه فأطلع الحكم عمروسا على ما كتبه هؤلاء في ولده وأمره ان يدعوه الي الحدود فرجاه هذا أن يقوم مقام ابنه في ولاية طليطلة لينتقم من أهلها فأجاب الأمير رجاءه

لما استرد الحكم سرقسطة توجه الى مدن الحدود الاخرى ليستردها فأخذ تطيلة وترك يوسف بن عمروس قائدا لها واحتل ... لونه وعند نزوله نحو شواطئ نهر ابرة استولى على وشقة ثم زار حدود فرنجة — وفي هذه الاثناء رغب يوسف قائد تطيلة الجديد أن يبرهن على أهليته فأغار على حدود الفرنج فوقع أسيرا في كمين نصبوه له سنة ١٨٧ ففداه أبوه منهم فأطلقوه (٢)

---

١ جاء في ابن الاثير ان الفرنج ملكوا برشلونة سنة ١٨٥ واخذوها من المسلمين ونقلوا حماة ثغورهم اليها وكان سبب ملكهم اياها اشتغال الحكم بمحاربة عميه عبد الله وسليمان

٢ استخلصنا هذا من كندى وروى لكن جاء في ابن الاثير في حوادث

ثم سار الحكم الى طرجونه فوجد ان بهلولا جلا عنها فاقتفى اثره الى أن أدركه فى برية طرطوشه يقود عصابات من الجبليين والنصارى فاشتبك القتال بينهما فى عدة ملاحم قاوم فيها بهلول مقاومة تذكر لكنه قهر فى الملحمة الاخيرة التى دامت أربع عشرة ساعة فجىء به حيًّا بين يدى الامير فقطع رأسه سنة ١٨٨ (٨٠٤)

حصل هذا ولم يسترد الامير برشلونه ويحتمل أن توالى المعارك وتتابع الاسفار أضعفت قوى جيشه فحال ذلك دون استرداد هذه المدينة الحصينة . يذكر بعض المؤرخين هنا أن الحكم بعد أن وطّد دعائم الأمن فى الحدود عاد من طرطوشه الى بلنسية فشاطبة فدانية فتدمير فقرطبة فى أوائل سنة ١٨٩ للهجرة (٨٠٥)

سنة ١٨٧ ان الفرنج ملكوا مدينة تطيلة وسبب ذلك ان الحكم استعمل على ثغور الاندلس قائدا كبيرا اسمه عمروس فاستعمل ابنه يوسف على تطيله وكان قد انهزم عن الحكم أهل بيت من الاندلس أولو قوة وبأس لانهم خرجوا عن طاعته فالتحقوا بالمشركين فقوى أمرهم واشتدت شوكتهم وتقدموا الى مدينة تطيله فحاصروها وملكوها من المسلمين فأسروا أميرها يوسف بن عمروس وسجنوه بصخرة قيس واستقر عمروس بمدينة سرقسطة ليحفظها من الكفار وجمع العساكر وسيرها مع ابن عم له فلقى المشركين وقاتلهم ففض جموعهم وهزمهم وقتل اكثرهم ونجا الباقون منكوبين وسار الجيش الى صخرة قيس فحصروها وافتتحوها وخلصوا يوسف أمير الثغر وسيروه الى أبيه وعظم أمر عمروس عند المشركين وبعد صيته فيهم أه ولا يخفى مافى هذه العبارة من المغايرة لما نقلناه عن كندى ورومى

وفى هذا الوقت ارتقى الى عرش أمارة المغرب ادريس بن ادريس وهو الثانى من امراء الأدارسة فأرسل اليه الحكم وفدا يهنئه بهذا الارتقاء ويعقد معه محالفة على من يناوئهما وكان يصحب هذا الوفد خمسمائة فارس فقوبل بالحفاوة والاجلال وكانت حاضرة امارة ادريس (وليلى WALILI) لافاس فانه هو الذى خطّها فى سنة ١٩١ ــ هـ (٨٠٧ م)

وفى سنة ١٩٠ للهجرة (٨٠٦) (١) حدث حادث فظيع فى طليطلة وهو أن عمروسا لما ولى امارة طليطلة خلفا لابنه عزم أن ينتقم من الطليطليين فانتهز فرصة توجّه عبد الرحمن بن الحكم الى اسبانيا الشرقية يقود خمسة آلاف فارس ومروره بالقرب من طليطلة فدعاه ان يعرّج على المدينة فلبّى دعوته وكان ابن خمس عشرة سنة فأولم له الوالى وليمة فاخرة وأطلعه على ما عزم عليه من دعوة أعيان المدينة الى الوليمة والفتك بهم فاظهر ابن الامير سخطه من هذا الامر الشائن فأجابه الوالى بان عداوة الطليطليين للامويين نار كامنة دائما متى كشفها ريح الفرص ثاروا عليهم فيجب افزاعهم بما يخمد أنفاسهم حتى لاتقوم لهم قائمة بعد ذلك فهذا القول خدع الشابّ فلما جاء المساء وبادر

---

(١) هذه الحادثة يذكرها ابن الاثير فى حوادث سنة ١٩١ لكن فى تاريخ كندى وتاريخ رومى أنها حدثت فى سنة ١٩٠ ويذكرها دوزى فى ٨٠٧ (١٩١) ويؤخرها عن حادثة ائتمار فقهاء قرطبة على خلع الحكم

المدعوون الى قصر الولاية للاحتفاء بابن أميرهم الحكم أخذ الحرس كل مدعوّ داخل وقادوه الى حفرة وقطعوا رأسه حتى قتلوا أربعمائة مدعوّ من الاشراف وفى اليوم التالى طرحت رءوسهم أمام اهل المدينة فذعروا من منظرهم البشع ووجفت قلوبهم وشاع أن هذه المكيدة الشنعاء من تدبير الحكم فملئت قلوب الطليطليين بغضا فيه وكانوا لا يلصقونها بعبد الرحمن لصغره ولكنهم ما نسوا أنه كان الآلة فيها فثاروا عليه أيام امارته

وبعد ثلاثة أيام سار الامير الشابّ وفرسانه الى سرقسطة على الحد الذى كان وقتئذ نهر ابره ويقال ان السبب فى تجريدة عبد الرحمن هذه أن البنبلونيين PAMPLUNOIS والنفاريين كانوا خاضعين للحكم منذ غزوته سنة ٨٠٢ ولكنهم فى ٨٠٦ خضعوا للفرنج من تلقاء انفسهم

وفى ذلك الوقت كان الحكم ولّى أصبغ ابن عمه مدينة ماردة فعزل هذا وزيره فتوجّه المعزول الى قرطبة ووشى بالوالى عند الأمير وقال له انه يتربص فرصة مناسبة ليلقى عن عاتقه نير الخضوع للامارة الشرعية فاثّرت هذه الوشاية فى نفس الامير حتى أدّت به الى عزل ابن عمه وتولية الوزير فتوجه هذا الى ماردة فرحا بنصرته وأعطى كتاب العزل والتولية الى اصبغ فرفض ان يترك منصبه وكتب الى الامير جوابا يعجب فيه من سماع وشاية الوزير المعزول ويقول له ان

حفيد عبد الرحمن لا يطرد من عمله كما تطرد السوقة فهاج هذا الجواب
غضب الحكم فبعث فى الحال كوكبة من فرسانه الى ماردة فرأت
أبوابها مغلقة فبانت الامير فحضر وعزم ان يدخل المدينة بالقوة
ويمثل بأصبغ ولكن قدر الله درأ ذلك فخرجت كنز زوج أصبغ
وأخت الحكم ممتطية جوادا يصحبها خادمان واخترقت معسكر الحصار
الى ان دخلت خيمة أخيها فلما رآها ارتاع وهاجت فيه عاطفة الحنان
اليها فترامت على قدميه وأخذت تبرئ زوجها بفصاحة لسان وقوة
جنان وتدحض عنه ما رماه به الوزير بحجج بالغة حتى اقنعت أخاها
وصرفت عنه الظنون وذهب شيطان الشقاق وجاء ملاك الوفاق ودخل
الامير واخته المدينة واقام فى ضيافة ابن عمه أياما الى أن جاءه كتاب
من قاسم ابن عمه عبد الله يدعوه الى قرطبة لقيام فتنة فيها فعاد
مسرعا فقال له « علمت ان كثيرا من وجهاء وفقهاء المدينة ممن ينقم
عليك قسوتك وأثرتك وطاعة هؤلاء ائتمروا بك ليقتلوك واختاروا
أن أكون اميرهم فلم يسعنى الا اظهار الميل لما يرومون وقد اطلعتك
على أمرهم وانا لا أزال على بيعتك » فبعث الحكم وسأله تصحيح
ما بلغ فأخذ معه بعض ثقات الامير وأجلسهم فى قبة فى داره
وأخفى أمرهم وحضر القوم عنده ليتفقوا على موعد ينفذون فيه
مأربهم فقال لهم هذا الذى تدعوننى اليه لا يقوى على القيام به فئة
قليلة فسموا له آخرين منهم فقال انى لا أثق بمن سميتم دون ان اسمع

منهم كما سمعت منكم فتطيب نفسي وأدخل في الامر على قوة و بصيرة فأقره وسمع مقالتهم فقال لهم موعدنا يوم الجمعة في المسجد وقت الصلاة وثقات الحكم بحيث يرون ويسمعون ويكتبون اسماءهم فلما صح عند الحكم أمرهم بشهادة هؤلاء الثقات عليهم أخذهم وصلبهم جميعا — وروى دوزى هذه الحادثة بصورة أخرى في سنة ٨٠٥ فقال

اتفق يحيى بن يحيى وعيسى بن دينار وفقهاء آخرون وبعض الاعيان على تولية ابن شماس بن عم الحكم امارة اسبانيا وخاطبوه في هذا الشأن فطلب منهم ان يعرفوه اسماء من يمكنه ان يعتمد عليهم فوعدوه بذلك في ليلة يعودون فيها اليه فلما خرجوا من عنده توجه سرا الى قصر الحكم وأطلعه على أمرهم فكان يسمع منه ويلوح على سيماه الريب في الامر فقال له وقد كاد يتميز من الغيظ « تريد ان تثير غضبي على أعيان عاصمتي — تالله ان لم تثبت ما أخبرتني به لأقطعن رأسك » فسأله ابن شماس أن يرسل معه ثقة في ليلة كذا فأجاب الحكم سؤاله وأرسل اليه في الليلة المعينة ناموسه (كاتب اسراره) ابن الخاضع وغلامه الخاص بخدمته المسمى (هيسنت HYACINTHE) (١)

---

١ وهو اسم نبات يسمى بالعربية السنبل أو الخزامى ويسمى بالافرنجية أيضا (*ZACINTHE* زسنت) وذكر دوزى في تقييداته عدة ابنية لهذا الاسم منها (يزنت) عن ابن الابار ثم قال اذا اضيفت جميع الحركات حصل (يزنتو *YAZINTO*) وبالاسبانية *ZACINTO* زسنتو)

وكان اسبانيا نصرانيا فاستترا وراء ستار وادخل ابن شماس من ائتمروا وسألهم عمن يعتمد عليهم من الرجال فذكروا له اسماء المؤتمرين والناموس من وراء الستار يكتب الاسماء فى برنامج وكان بعضها أسامى اناس مخلصين فى الظاهر للامير فخشى الناموس ان يذكروا اسمه بين الاسماء فأحدث جَلَبَةً بنطقه بعض ما يكتبه على الورق فشعر المجتمعون بالامر وقاموا مخذولين صائحين فى وجه ابن شمّاس قائلين له «غدرتنا ياعدوّ الله» ونجا بعضهم بالفرار من المدينة وممن فرّوا عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى الى طليطلة وقبضت الحكومة على اثنين وسبعين رجلا من المؤتمرين وصلبتهم قال كندى ورونى ان من صلبوا كانوا ثلثمائة وان الحادثة وقعت سنة ١٩٠ (٨٠٦) وان من كانوا اختاروه ليكون أميرهم هو قاسم بن عبد الله عم الحكم وانه هو الذى أفشى سرهم — ويؤخذ من أبن الاثير أن اهل قرطبة هاجوا ثلاث هيجات الاولى فى سنة ١٨٧ وان عدد المصلوبين فيها اثنان وسبعون وانهم كانوا اختاروا محمد بن القاسم القرشى المروانى عم هشام ابن حمزة وأخذوا له البيعة على أهل البلد وانه هو الذى أطلع الحكم على أمرهم والثانية فى سنة ١٩١ وان الحكم عاد بسببها من ماردة الى قرطبة وكشف عن الذين اثاروا الفتنة وصلبهم منكسين وضرب اعناق جماعة منهم ولم يعين هنا العدد ولا من أختاروه أميرا والثالثة

في سنة ١٩٨ وقيل سنة ٢٠٢ (١) ويسميها بواقعة الربض وملخصها ان أهل قرطبة نقموا من الحكم انهماكه ولذاته وقتله جماعة من أعيانهم فعرّضوا به فكانوا ينادون عند انقضاء الاذان (الصلاة يامخمور الصلاة) وشافهه بعضهم بالقول وصفّقوا عليه بالاكفّ وتعرضوا لجنده بالاذى والسبّ فحصّن قرطبة وعمّر اسوارها وحفر خنادقها وارتبط الخيل على بابه واستكثر المماليك ورتّب جمعا لا يفارقون باب قصره بالسلاح ثم وضع على أهل قرطبة عشر الاطعمة كل سنة من غير خرص ثم قتل عشرة من رؤساء سفهائها وصلبهم فهاج لذلك أهل الربض فاجتمعوا بالسلاح فقاتلهم الجنود فغلبهم الربضيون وأحاطوا بالقصر فنزل الحكم من أعلاه ولبس سلاحه وركب وحرّض الناس فقاتلوا بين يديه قتالا شديدا وامر ابن عمه عبد الله فثلم في السور ثلمة وخرج منها ومعه قطعة من الجيش فأحرق الربض وأتى أهله المحاربين من ورائهم وفتك بهم فانهزموا وكانت مقتلة عظيمة واخرج من كانوا في المنازل والدور واسرهم فقتل الحكم من وجوههم ثلثمائة وصلبهم منكسين واقام النهب والقتل والاحراق والتخريب في أرباض قرطبة ثلاثة ايام واشار على الحكم حاجبه عبد الكريم ان يعفو فنودي

---

١ نقل رومي عن بعض مؤرخي العرب ان واقعة الربض كانت يوم الاربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ للهجرة وقال ابن الاثير في آخر عبارته « وذكر بعضهم هذه الوقعة سنة اثنتين ومايتين »

بالامان على ان من بقي من اهل الربض بعد ثلاثة ايام قتلناه وصلبناه فخرج من بقي منهم مستخفيا ومعهم نساؤهم واولادهم وماخف من اموالهم ... اه

قال المقرى (ناقلا عن ابن خلدون مع تصرف) كان للحكم الوقعة الشهيرة مع اهل الربض لانه فى صدر ولايته قد انهمك فى لذاته فاجتمع اهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ وطالوت الفقيه وغيرهما فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربى من قرطبة وكان محله متصلا بقصره فحصروه سنة تسعين ومائة (١) فقاتلهم وغلبهم فافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة وبالاسكندرية من أرض المشرق ونزل بها جمع منهم ثم ساروا بها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون وغلبهم وأجازهم الى جزيرة اقريطش (٢) فلم يزالوا بها الى أن ملكها الفرنج من أيديهم بعد مدة اه

وفى سنة ١٩٠ (٨٠٦) كانت قوّاد الحكم تحارب على حدود جليقية حتى اضطر ملكها الفونس أن يطلب هدنة ثلاث سنين من

---

١ كذا في ابن خلدون ويظهر ان المقرى أغفل هذه العبارة لشكه في تاريخ الحادثة قان ابن الاثير وهو من المآخذ التي أخذ عنها ابن خلدون أرخ هيجات قرطبة بسنين ١٨٧ و ١٩١ و ١٩٨ أو (٢٠٢)

٢ جزيرة جريد أو كريت الآن

القوّاد فأجابوه الى طلبه وكان الحكم وقتئذ بماردة

وفى سنة ١٩١ ثار فى باجة حزم بن وهب وقصد أشبونة فارسل اليه الحكم ابنه هشاما فى جمع كثير فأذلّه ومن معه حتى طلبوا الامان

وفى أثناء ما كان الحكم مشغولا بأهل ماردة وقرطبة كان الفرنج يغيرون على المسلمين المتاخمين لهم على طول جبال البرانس حتى استولوا على جزء عظيم من أرض اسبانيا بين هذه الجبال ونهر ابرة

وفى ابتداء سنة ١٩٢ حاصر الفرنج تحت قيادة لويس ملك اكيتانه مدينة طرطوشه فتوجّه اليهم عبد الرحمن من سرقسطة يقود جيشا جرّارا وانضم اليه جيش من بلنسية تحت قيادة واليها فرفعوا الحصار عن المدينة وفتكوا بالمحاصرين فتكا ذريعا حتى تغطت ميادين القتال بجثثهم وصارت أقواتا للطيور والوحوش وانهزم لويس ابن شرلمان الى اكيتانه وعاد عبد الرحمن بن الحكم الى قرطبة وكان ابن تسع عشرة سنة فقوبل فيها بالفرح والسرور سنة ١٩٣ ودعا عمروسا ليخلفه فى اسبانيا الشرقية

وفى سنة ١٩٣ (٨٠٩) نزل نصارى جليقيه الى (لوزيتانيا) تحت قيادة ملكهم الفونس فخرقوا مدنها وقاتلوا أهلها واستمروا فى سيرهم حتى وصلوا الى اشبونة فنهبوا وخربوا ضواحيها الى ان جاءهم الحكم نفسه فدفعهم الى أرضهم وعاد الى قرطبة تاركا قواده تحاربهم الى (سنة ٨١١)

وفى سنين ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ عاودت أهل ماردة الخلاف على الحكم

وعصوا عليه فسار اليهم بنفسه وقاتلهم ولم تزل سراياه وجيوشه تتردّد اليهم حتى خضعوا وخرج منها واليها أصبغ وسكن قرطبة وفى هذه السنين (كما جاء فى ابن الاثير) طمع الفرنج فى ثغور المسلمين وقصدوها بالغارة والقتل والنهب والسبى وكان الحكم مشغولا بأهل ماردة فلم يتفرغ للفرنج فاتاه الخبر بشدة الامر على الثغور وما بلغ العدو منهم وسمع ان امرأة مسلمة أخذت سبية فنادت واغوثاه ياحكم . فعظم الامر عليه فجمع عسكره وسار الى بلاد الفرنج سنة ١٩٦ وأثخن فى بلادهم وافتتح عدة حصون وخرب البلاد ونهبها وقتل الرجال وسبى الحريم ونهب الاموال وقصد الناحية التى كانت بها تلك المرأة فخلصها من الاسر فلما فرغ من غزاته قال لاهل الثغور هل أغاثكم الحكم فقالوا نعم ودعوا له وأثنوا عليه خيرا وعاد الى قرطبة مظفرا

قال المقّرى فى سبب هذه الغزاة ان العباس الشاعر توجّه الى الثغر فلما نزل بوادى الحجارة سمع امرأة تقول واغوثاه بك يا حكم لقد أهملتنا حتى كلب العدوّ علينا فأيمنا وأيتمنا فذهب الى الحكم وأنشده قصيدة يصف له فيها خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه منها

تدارك نساء العالمين بنصرة * فانك أحرى أن تغيث وتنصرا

فأنف ونادى فى الحين بالجهاد فخرج الى وادى الحجارة ومعه الشاعر وسأل عن الخيل التى أغارت من أى أرض العدوّ كانت فأعلم بذلك فغزا تلك الناحية وأثخن فيها وفتح الحصون وخرّب الديار وقتل

عددا كثيرا وجاء الى وادى الحجارة فأمر باحضار المرأة وجميع من أسر له أحد فى تلك البلاد فأحضر وأمر بضرب رقاب الاسرى بحضرتها وقال للعباس سلها هل أغاثها الحكم فقالت المرأة وكانت نبيلة والله لقد شفى الصدور وأنكى العدو واغاث الملهوف فاغاثه الله وأعز نصره فارتاح لقولها و بدا السرور فى وجهه وقال

ألم تر ياعباس انى اجبتها ☆ على البعد أقتاد الخميس المظفرا
فادركت أوطارا و برّدت غلة ☆ ونفّست مكروبا وأغنيت معسرا

فقال العباس نعم جزاك الله خيرا عن المسلمين وقبّل يده

ويؤخذ من رومى ان الفرنج فى سنة ٨١٠ ارادوا أن يعاودوا الكرة على طرطوشه فذهب جيشهم أولا الى برشلونة وصنعوا فيها زوارق سهلة الحمل كل منها مقسم الى أربعة أقسام يمكن حمله على حصانين او بغلين ويسهل تركيبه عند ارادة الاستعمال واستحضروا لهذا الغرض مطارق ومسامير وقيرا وشمعا ومشاقا وليخفوا أمرهم كانوا يسيرون ليلا ويختبئون نهارا فى الغابات ولا يشعلون النار لئلا يدل عليهم دخانها حتى وصلوا الى شاطئ نهر ابرة بعد ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع ركبوا زوارقهم ووضعوها فى الماء واخترقوا بها النهر قائدين خيلهم تسبح حول الزوارق فلما وصلوا الى الشاطىء الآخر فاجؤا فرقة من العسكر كانت تخفر النهر فولّت مدبرة تاركة وراءها امتعتها وخيامها فبات فيها الافرنج وفى اليوم التالى قابلهم والى طرطوشة المسمى عبيد الله او عبدون

بمن قدر على جمعه من الجنود ودارت رحى الحرب بين الفريقين وانجلت عن فوز الطرطوشيين وعن ارتداد الفرنج الى اكيتانة على اعقابهم خاسرين (١)

لما رأى الحكم تتابع الحروب بين المسلمين وبين الافرنج من جهة الشمال الشرقى وبين نصارى جليقية من جهة الشمال الغربى أرسل مبعوثين الى شرلمان امبراطور الفرنج يطلب الصلح ومع هؤلاء المبعوثين (كونت) كان أسيرا عند الامير منذ سنين فوصلت هذه البعثة الى مدينة (اكس لا شبال AIX-LA-CHAPELLE) فى الوقت الذى وصلت فيه اليها بعثة امبراطور القسطنطينية (نسافورة NICEPHORE) لمثل غرض البعثة الاولى فعقد شرلمان الصلح مع البعثتين فى شهر اكتوبر سنة ٨١٠ م

ومع هذا أغارت تجريدة بحرية من المسلمين فى نهاية هذه السنة على جزيرة قورصة CORSE) فخربتها لكن يظهر ان هذه التجريدة قامت من ثغور اسبانيا قبل ان يعلم الصلح فى زمن كانت فيه وسائل نقل الانباء صعبة وقليلة السرعه

وفى نهاية هذه السنة أيضا طرد عبد الرحمن بن الحكم عمروسا من سرقسطة والجأه الى وشقة مسقط رأسه لما ظهر من ان له علائق بالفرنج وانه كان يطلعهم على المحالّ التى يسهل عليهم مفاجأتها وكان

---

١ هذه الحادثة لا أثر لها فى التواريخ العربية التى بأيدينا

عمروس هذا من المولودين أبوه مسلم وأمه نصرانية فيحتمل أن الفرنج حالفوه على استقلاله بالثغر الاعلى تحت رعايتهم

وفى سنة ٨١١م فسخ عقد الصلح بين الحكم وشرلمان وعاد الشجار بين الامتين على أرض اسبانيا حتى أن لويس تأهب لاخذ طرطوشة (١) ويحتمل أن سبب ذلك استمرار غزوات المسلمين البحرية الى جزائر البحر المتوسط التابعة لمملكة أفرنجة

وفى سنة ١٩٧ (٨١٢) دخل عبد الرحمن جيرونه وغزا أرض نربونه فقاتل أهلها ونهبها وعاد ومعه كثير من الاسرى والغنائم الواسعة وكان ابن احدى وعشرين سنة وكان حاكم اسبانيا الشرقية ومحافظ الحدود (٢) جاء فى ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٠٠ ان الحكم جهز جيشا مع عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الفرنج بالاندلس (يعنى نصارى جليقية) فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط

---

١ روى رومى عن قصدى منجم ان لويس سار الى طرطوشه بنفسه يقود جيشا كثير العدد والعدد وحاصرها أربعين يوما وهو يرمى حيطانها بالمجانيق حتى طلب أهلها عقد شروط والقى محافظها عبيد الله مفاتيحها الى لويس فحملها وهو فرح الى أبيه » واعقب رومى هذه الرواية باستبعاد استيلاء لويس على طرطوشة كما استولى على برشلونه وانه ترك فيها حامية واقام فيها محافظا — لانه لم يوجد لذلك اثر فى تاريخ عربى ولا أفرنجى وقد جاءت اخبار مختلفة تتكلم عن طرطوشة بعد هذا الزمن باعتبار انها مدينة خاضعة للحكم الاسلامى

٢ رومى

بلادهم فخربها ونهبها وهدم عدة من حصونها فاستنقذ خزائن ملوكهم فلما رأى ملكهم فعل المسلمين ببلاده كاتب ملوك جميع تلك النواحى مستنصرا بهم فاجتمعت اليه النصرانية من كل أوب فأقبل فى جموع عظيمة بازاء عسكر المسلمين بينهم نهر فاقتتلوا قتالا شديدا عدة أيام المسلمون يريدون أن يعبروا النهر وهم يمنعونهم فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون اليهم فاقتتلوا أعظم قتال فانهزم المشركون الى النهر فأخذهم السيف والاسر فمن عبر النهر سلم وأسر جماعة من كنودهم (١) وملوكهم وقامصتهم وعاد الفرنج ولزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من جوازه فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوما فجاءت الامطار وزاد النهر وتعذر جوازه فقفل عبد الكريم عنهم سابع ذى الحجة اه وجاء فى ابن خلدون ما نصه « وفى سنة ٢٠٠ بعث الحكم العساكر مع الحاجب عبد الكريم بن مغيث الى بلاد الفرنج فسار فيها وخربها ونهبها وهدم من حصونها وأقبل اليه ملك الجلالقة فى جموع عظيمة وتنازلوا على نهر واقتتلوا عليه أياما ونال المسلمون منهم أعظم النيل وأقاموا على ذلك ثلاث عشرة ليلة ثم كثرت الامطار ومد النهر وقفل المسلمون ظافرين وجاء فى تاريخ ابن عذارى نحو ذلك وسمّى النهر نهرارون وقال ان المشركين قتل منهم عدد عظيم لا يحصى كثرة وضاقت الحال أيضا بالمسلمين فقفل عبد الكريم

---

(١) جمع كند المعروف الآن بكنت

ظافرا لسبع خلون من ذى القعدة ويؤخذ من كندى ورومى

١ — ان جيش الحكم فى سنة ١٩٧ (٨١٢) كان يحارب نصارى الشمال الغربى تحت قيادة عبد الكريم وعبد الله فكان للجيش فى المبدأ نصرات لكن صعب القتال على المسلمين منذ دخلوا فى أرض جبلية يجهلونها فغلب النصارى القائد عبد الله على حدود جليقية فقتلوه وفرّقوا جنده أيدى سبا وفرّ فرسانه حاملين الرعب الى عساكر عبد الكريم حتى اضطروهم الى الفرار مع ما هو عليه قائدهم من المهارة والشجاعة فغرق بعضهم فى النهر ولجأ البعض الى الغابات المجاورة وتساقّوا اشجارها ليختبئوا فيها ولكن عسكر النصارى أدركوهم ورموهم بالسهام

٢ — وان عيسى بن أحمد الرازى قال بقى الجيشان بعد الهزيمة يواجه أحدهما الآخر بدون قتال ثلاثة عشر يوما فلا النصارى يجرءون على المسلمين ولا هؤلاء يجرءون على أولئك ثم اشتبك الفريقان فى مناوشة دموية جرح فيها عبد الكريم برمح ومات أثر جرحه بيومين فأخذ جيشه فى الهرب

لا يخفى ما بين كلام مؤرخى العرب وكلام مؤرخى الافرنج فى هذه الحادثة من التناقض لكن جاء فى تقييدات رومى (ص ٣٩٣ ج ٣) ان مرفى MURPHY يروى هذه الحادثة بوجه آخر أقل خسرانا على المسلمين قال « فى هذا الوقت (٨١٢) تقدم (اذفُنش)

ملك الجلالقة يقود جنودا كثيرة نحو المسلمين فالتقى الجيشان بالقرب من نهر واقتتلا ثلاثة عشر يوما كان فيها الفوز للمسلمين لكن هطلت امطار غزيرة أمدّت النهر فطغى ماؤه فاضطر المسلمون وان كانوا ظافرين الى ترك ميدان القتال » فهذه العبارة تؤيّد ماجاء فى التواريخ العربية ويذكر مؤرخو العرب هـذه الحادثة فى حوادث سنة ٢٠٠ للهجرة ومؤرخو الافرنج يذكرونها فى حوادث ٨١٢ للميلاد المقابلة لسنة ١٩٧ فيحتمل أنها ابتدأت فى سنة ١٩٧ وانتهت فى سنة ٢٠٠ والله أعلم بالحقائق

وفى ربيع سنة ١٩٨ أغار عبد الرحمن على جليقية ليأخـذ بثار من قتل من المسلمين فى السنة الماضية فطرد النصارى من مدينة سمّورة التى على نهر دورو DUERO واستولى على عدة قلاع والتقى بالاعداء على نهر (١) ففتك بهم حتى سالت دماؤهم كالنهر وانهزم من نجا منهم وبعدئذ عقد الصلح بين الفريقين وعاد عبد الرحمن الى قرطبة مثقّلا بالغنائم يقود كثيرا من الاسرى وقـد اكسبت عبد الرحمن نصراته فخرا وشهرة واسعة فجمع والده الحـكم الامراء والوزراء وقاضى القضاة والولاة والقوّاد والسراة وعهد اليه أمامهم بولاية الامر من بعده فارتضوه جميعا وحلفوا له يمين الطاعة وكان ذلك فى يوم مشهود ساد فيه الفرح والسرور ومن ذلك اليوم سُمّى ولىّ العهد سنة ١٩٩

---

١ لم يسموا النهر ولعله نهر ازلا *EZLA*

يؤخذ من روى (ان اختيار عبد الرحمن ولى عهد كان فى سنة سكنت فيها زوابع الحروب لاستمرار زمن الصلح بين المسلمين والفرنج ولعقد عبد الرحمن الصلح مع الجلالقة عقب غزوته الاخيرة فى سنة ٨١٣) وكأنه نسى قوله قبل ذلك ان عقد الصلح فسخ فى سنة ٨١١ وان عبد الرحمن غزا أرض نربونه سنة ١٩٧ (٨١٢) الا أنه يحتمل ان عبد الرحمن استعاد الفرنج الصلح عقب غَزْوه إيّاهم هذه السنة كما انه عقده مع الجلالقة فى السنة التالية

ويؤيّد ذلك قوله فيما بعد أن موت شرلمان امبراطور الفرنج فى ٢٨ يناير سنة ٨١٤ لم يغيّر شيئا فى العلائق التى بين العرب والفرنج الى سنة ٢١٥ ففيها فسخ الصلح الذى عقد بين الامتين فى سنة ٨١٣ وعادت الخصومات بينهما الا ان عبد الرحمن والى اسبانيا الشرقية أرسل سفراء الى (لويس) الذى خلف أباه شرلمان يطلبون منه اطالة زمن الصلح ثلاث سنين فقابلهم فى سنة ٨١٦ وبعد مطاولة أجاب طلبهم فى ٨١٧

قال ابن الاثير « وفى هذه السنة (٢٠٠) خرج خارجىّ من البربر بناحية مورور فاستدعى الحكم قائدا وأخبره بذلك سرّا وقال له سر من ساعتك الى هذا الخارجىّ فأتنى برأسه والا فرأسك عوضه وانا قاعد مكانى هذا الى ان تعود فسار القائد الى الخارجىّ وقتله وأحضر عند الحكم رأسه فأحسن اليه ووصله وأعلى محله (مَوْرور

بفتح فسكون فضم)

ويؤخذ من رومى وكننى ان الحكم كان لايخرج من قصره زمن السلم مفوّضا شؤون الحكومة الى ابنه عبد الرحمن مواليا هو بمجالس اللهو والطرب والخمر فى حدائقه بين غلمانه ونسائه اللاء كنّ يحسنّ الغناء وضرب آلات الموسيقا وكان هذا يلهيه عن أمور الدين وكان يغضب الفقهاء والعلماء منه رأيه فى شرب الخمر وسفكه الدماء وجوره على الرعية فكرهه الناس لذلك ولاتقاء شرّهم اتخذ حرّاسا : مائتى جندى يرابطون على شواطئ النهر بازاء قصره فى ثكنتين بنيتا لهذا الغرض وخمسة آلاف مملوك من الصقالبة منهم مائتا راجل وثلاثة آلاف فارس يحرسون ذاته خاصّة وهؤلاء المماليك يخدمون فى القصر وعند الحاجة يحملون السلاح ونفقات هؤلاء الحرّاس الجأت الامير الى ان يفرض على الاهلين رسوما يؤدّونها على عروض تجاراتهم المختلفة الداخلة فى المدينة فامتلأت صدورهم حنقا عليه وتذمروا وتوقف بعضهم عن ادائها واهانوا الجباة فامر الحكم بالقبض على عشرة من المتوقفين ونشأ عن ذلك ضجيج وصخب فى أنحاء المدينة وقضى عليهم قضاء صارما بان يصلبوا على اوتاد على شاطئ النهر ففعل بهم ذلك فى ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ فهرع سكان الربض الجنوبى من قرطبة ليروا هؤلاء المصلوبين فضرب جندى أحدهم فرموه بالحجارة وهجموا عليه فجرى أمامهم مغطّى بدمائه حتى احتمى فى حرس المدينة وقد تمادوا فى

الهيجان حتى انقضّوا على الحرس وفرّقوا شمله ووصلوا الى قصر الأمير صارخين عليه ومهددين إيّاه

لما علم الحكم بأمرهم تسربل بسلاحه وهمّ بالنزول اليهم فاراد اخصاؤه ان يمنعوه فلم يسمع لهم قولا فجمع فرسانه وركب فى مقدمتهم وطرد المتجمهرين وكانوا عزّلا ففر كثير منهم الى مساكنهم وأوصدوا أبوابها عليهم ومن بقوا منهم فى الشوارع اجتهدوا فى ان يقاوموا فلم يفلحوا وقبض على ثلثمائة منهم فقتلوا ورميت اشلاؤهم بالقرب من النهر — وفى اليوم التالى أمر الحكم بتخريب أرباض قرطبة لاسيما الربض الجنوبى (١) وأباح نهب منازلها ثلاثة أيام خلا ان يمسّ النساء ضرر

وفى اليوم الرابع نودى فى الناس بالامان على أن يهاجروا من قرطبة ففرّ منهم كثير الى قرى طليطلة ورحل منهم خمسة عشر الفا الى افريقية فأقام منهم ثمانية آلاف فى المغرب والباقون ذهبوا الى مصر (٢) وقد اختاروا أبا حفص عمر بن شعيب البلوطى (٣) رئيسا لهم فلما وصلوا الاسكندرية اعترض لهم أهلها ومنعوهم الدخول لكنهم

---

١ كان هذا الربض يمتد على الشاطىء الايسر لنهر الكبير فى جنوب قرطبة بازاء قنطرة السمح (٢) يروى ان الذين ذهبوا الى مصر كانوا خمسة عشر الفا خلا النساء والاطفال

٣ نسبة الى فحص البلوط أتى برية قلعة رباح

قَوَوْهم (١) ودخلوا المدينة عنوة وفتكوا بأهلها وتغلبوا على حكومتها فجاءهم عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون واتفقوا على الجلاء عن الاسكندرية على مال وسكنى جزيرة اقريطش (جريد او كريت) التى كانت قليلة السكان وقتئذ فرحلوا اليها وتغلبوا على أهلها وحكموها مدة ١٣٨ سنة الى ان فتحها (ارماتاس) ابن امبراطور اليونان قسطنطين فى سنة ٣١٥ للهجرة (٩٦١ للميلاد)

هذه هى وقعة الربض الأخيرة وقد سبق كلام ابن الاثير وابن خلدون والمقرّى فيها

ولا يخفى ما فى روايتها من الاختلاف ومن أجلها لقبوا الحكم بالربضى وكنوه بابى العاص ومن هذه التسمية الاخيرة سماه الافرنج ابولاز ABULAZ

وفى سنة ٣٠٣ للهجرة (من يوليه سنة ٨١٨ الى يونيه سنة ٨١٩) وتاليتها توجه عبد الرحمن الى حدود جليقية يقود جيوش ماردة فغزا النصارى وغلبهم فى عدة مناوشات ثم ذهب الى حدود الفرنج فأوقف سير غاراتهم على اسبانيا ورجع الى قرطبة سنة ٢٠٥ (٨٢٠ — ٨٢١) وعند مروره بطرجونه وجّه السفن الراسية على شواطى اسبانيا هنالك الى جزيرة سردينا فقاتلوا نصاراها وأحرقوا أسطولهم أمام الجزيرة وقبضوا على ثمانى سفن تجارية لهم ورجعوا الى ساحل اسبانيا

---

١ قاويته فقووته أي غلبته

أحدثت فظائع وقعة الربض تأثيرا سيئا فى عقل الحكم حتى مرض ومات فى الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ (١) بعد أن حكم ٢٦ سنة قمرية و ١٠ أشهر و ١١ يوما

قال ابن خلدون (ناقلا عن ابن الاثير مع تصرف) توفى الحكم ابن هشام آخر سنة ست ومائتين لسبع وعشرين سنة من ولايته وهو أول من جنّد بالاندلس الاجناد المرتزقة وجمع الاسلحة والعدد واستكثر من الحشم والحواشى وارتبط الخيول على بابه واتّخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الامور بنفسه وكانت له عيون يطالعونه باحوال الناس وكان يقرّب الفقهاء والعلماء والصالحين وهو الذى وطّأ الملك لعقبه بالأندلس اه

٤ ـ عبد الرحمن الثانى ابن الحكم

(من ٢٠٦ الى ٢٣٨)

قبض عبد الرحمن على دفة حكومة اسبانيا فى السنين الاخيرة من حياة أبيه الحكم فلما مات هذا فى الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ للهجرة انتقل لقب الامارة العامة الى ابنه وكان ابن احدى وثلاثين سنة وثلاثة اشهر وستة ايام (٢)

---

١ فى ابن الاثير انه مات لاربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٠٦

٢ كندى وروى وفيه نظر يتبين مما يأتي أخيرا ـ قال ابن الاثير ان عبد الرحمن ولد بطليطلة أيام كان أبوه الحكم يتولاها لابيه هشام

يصفه بعض مؤرخيه بانه كان اسمر اللون طويل القامة اقنى الانف أكحل العين عظيم اللحية حازما ماهرا شجاعا عالى الهمة أديبا شاعرا عالما بالشريعة والفلسفة وأنه أول من شاد القصور الجميلة والمتنزهات ومهّد الطرق واتى بالماء العذب الى قرطبة من الجبال وبنى المدارس وشاد الجوامع وزاد فى جامع قرطبة وكان محبا للعلماء والادباء ولم يكن فى زمانه دار ملك كدار ملكه ابهة ومجدا وزاد حرسه الف فارس

فى أول ولايته ثار عليه عم أبيه عبد الله البلنسى ولم يطفىء برد لحيته نار طمعه فى ملك اسبانيا فعبر من طنجة مجاز جبل طارق بقوة عظيمة قاصدا قرطبة مدّعيا انه أمير اسبانيا ظانا أن أولاده يمدّون اليه أيدى المساعدة وكانوا ثلاثة مرتقين الى مراتب سامية فى الحكومة وهم قاسم وأصبغ وعبيد الله فتقدم اليه عبد الرحمن وغلبه فى عدة معارك حتى الجأه الى الفرار الى مدينة بلنسية فجاءها الجيش الغالب وحاصرها الى ان جاء ابنا عبد الله قاسم واصبغ الى المعسكر وطلبا العفو من الامير عن أبيهما فعفا وصفح وتقابل عبد الرحمن وعبد الله وزال الخلاف وولاّه الامير كورة تدمير مدة حياته وبعد سنتين مات عبد الله سنة ٢٠٨ (٨٢٣) وكان شيخا كبّارا ولد فى الشام قبل دخول ابيه اسبانيا كذا يؤخذ من كندى ورومى وقال ابن الاثير « لما ولي خرج عليه عم ابيه عبد الله البلنسى وطمع بموت الحكم وخرج من بلنسيه يريد قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فلما بلغ ذلك عبد الله خاف

وضعفت نفسه فرجع الى بلنسية ثم مات وقال ابن خلدون فى هذا الموضع « خرج عليه لاول ولايته عبدالله البلنسى عم أبيه وسار الى تدمير يريد قرطبة فتجهز له عبد الرحمن فحام عن اللقاء ورجع الى بلنسية ومات أثر ذلك » فيؤخذ من كلام هذين المؤرخين ان عبد الله لم يخرج على الامير من طنجة بل من بلنسيه وانه لم تحدث معارك بين الفريقين وسبق ان الحكم اسكنه ضاحية بلنسية

وفى السنة التالية لسنة الولاية (٢٠٧) حدثت الوقعة المعروفة بوقعة (بالس) (١) وسببها ان الحكم كان قد بلغه عن عامل البيرة المسمى ربيعا انه يظلم أهل الذمة وثبت الامر لديه فقبض على العامل وصلبه ومات الحكم اثر ذلك فجاء المظلومون الى قرطبة يطالبون رد الاموال التى ظلمهم فيها ربيع ظانين أنها ترد اليهم ووقفوا بباب القصر وشغبوا فبعث اليهم الامير عبد الرحمن من يسكنهم فلم يقبلوا بل دفعوا من جاءهم فخرج اليهم الجند وأوقع بهم ونجا فلهم الى البيرة

فى هذه الاثناء أغار كند (٢) برشلونة على بلاد المسلمين من وراء الثغر (٣) فخربوا وأحرقوا ونهبوا وعادوا مثقلين بالغنائم (٨٢٣)

---

١ يظهر أنها سميت بذلك لانها وقعت أمام القصر واسم القصر بلغة الافرنج (بالس *PALAIS*)

٢ أو كونت ويجمعه ابن الاثير على كنود وهو لقب رتبة من رتب الافرنج

٣ الثغر اسم نهر في اسبانيا يخرج من فرنسا من شق سرديا على جبال البرانس ويصب في نهر ابرة

فجاء خبر ذلك الى عبد الرحمن عقب ان عقد الصلح مع عم أبيه فى بلنسية وكان يريد ان يطلق سراح الجنود فأمسك وأرسل فريقامنهم فى المقدّمة تحت قيادة عبد الكريم فقابل النصارى وهزمهم وحصرهم فى برشلونه حتى جاء الامير بقوّاته العظيمة وأحدق بالمدينة ووالى الهجوم عليها حتى فتحها (١) وأخلاها من العدوّ وأمر بردمّ أسوارها ثم سار الى ارغل URGEL فأصابها ما أصاب اختها ثم طارد الافرنج حتى ألجأهم الى قلاعهم المقامة على الجبال ثم عاد الى قرطبة منصورا سنة ٢٠٧ للهجرة (٢) (٨٢٣)

وفى هذه السنة نشأت الفتنة فى كورة مرسيه بين اليمانية والمضرية فاقتتلوا بلورقة وكانت بينهم وقعة تعرف بوقعة (المصارة) قتل فيها نحو ثلاثة آلاف رجل وكان الامير عبد الرحمن يرسل القوّاد بالجيوش ليزيلوا الشقاق المستحكم بين الفريقين ويكفّوهم عن القتال فكانوا اذا جاء قائد الامير يسكنون واذا رحل عنهم يهبّون الى الخصام وداموا على ذلك سبع سنين

وفى ربيع السنة التالية جاء من القسطنطينية الى قرطبة وفد من قِبَل قيصر الروم ميخائيل الى الامير عبد الرحمن بهدية ثمينة من الخيل المطهّمة المجهزة بعُدَد فاخرة لم ير لها فى اسبانيا نظير فاستقبل الامير

---

(١) يستبعد رومى فتح عبد الرحمن برشلونه ويعده كفتح لويس طرطوشه

(٢) هـذه السنة تبتدىء فى فبراير سنة ٨٢٢ وتنتهى فى فبراير سنة ٨٢٣

هذا الوفد بالحفاوة والاجلال وقبل الهدية واضافهم فى قصره فبلغوه أن القيصر يرغب ان يكون له حليفا على حزب المأمون خليفة بغداد وان هذا يسهّل عليه تجديد ملك اجداده فى الشرق فوعدهم الامير خيرا وغمرهم بالهدايا الجزيلة وأرسل معهم يحيى الغزال (١) من كبار أهل الدولة ومعه هديّة برسم القيصر من أفراس الاندلس الرائعة الكريمة ومن سيوفها البتّارة المصوغة فى معاملها الموشّاة بالحلى الجميلة وكان يحيى فصيحا شاعرا حكيما ماهرا فى فنّ الملاحة

وفى السنة عينها (٢٠٨) أو فى مبدأ السنة التالية جاء الى عبد الرحمن فى قرطبة وفد من النقاريين والجبليين يدعونه الى التحالف وهم من البشكنس وحملهم على هذا ما اشيع من ان الفرنج سيغيرون على الجبليين (سكان جبال البرانس) مدّعين ان عصيانهم يتجدد دائما وعلى اثر هذه الاشاعة اقسم النقاريون على اهلاك هؤلاء القوم

---

١ كذا فى التواريخ العربية ويسميه كندى (يحيي بن حكم الغزلى) وتبعه رومى الا انه قال (ابن الحكم) ويؤخذ من تقييدات هذا انه سمى بالغزلي لانه كان ينظم شعر الغزل وانظر هل هـذا الشاعر هو المعني فيما يرويه ابن عذارى من « ان الغزال الشاعر دخل على الامير فقال الامير جاء الغزال بحسنه وجماله فقال له الوزير أجز مابدأ به الامير فقال

قال الامير مداعبا بمقاله   جاء الغزال بحسنه وجماله
أين الجمال من امرئ أربى على   متعدد السبعين من أحواله

فان صح ذلك يكون ما أبداه رومى من علة التسمية وهم

الجرمانيين الذين هم وان كانوا نصارى مثلهم الا انهم على الدوام يقاتلونهم اكثر من الأندلسيين المسلمين وعلى هـذا دعوا هؤلاء لمساعدتهم على عدو الفريقين فأجاب عبد الرحمن دعوتهم وحالفهم . وما كانت هذه الاشاعة التي حملت الجبليين على ان يحالفوا الاندلسيين بدون أساس ففي أواخر سنة ٨٢٣ أمر ملك اكيتانه ان يجتاز جيش قوي الجبال تحت امرة قائدين يسميان (ايلوس ELUS)و(أرناريوس ARNARIUS) . وقتئذ كان المقصد من اجتياز الجيش غير معلوم هل كان محاربة العرب أو الجبليين أو النفاريين أو البنبلونيين وقد علم بعد أن الجيش قصد بنبلونه فدخلها وقضى مأربه فيها ثم عاد فوقع في أيدي أعدائه

هنا لم يذكر المؤرخون السبب الذي اقتضى توجـه جيش ملك الأكيتان الى بنبلونه وما هو المأرب الذي قضاه بها ويظهر ان الفرض كان اتخاذ المدينة مركزا حربيا للاستيلاء على الأقوام المجاورين فحال دون ذلك ان سمع الجيش بتوجه العرب والبشكنس نحو الحدود فعاد مسرعا تاركا المدينة على ما كانت عليه

ذكر المؤرخون الاندلسيون ان ولاة الحدود في سنة ٢٠٩ للهجرة (٨٢٤) قاتلوا فرنج الجبال في عدة معارك دموية وغلبوهم وقتلوا كثيرا منهم في مضايق جبال البرت ومن تلك المعارك معركة (بُرت شزر PORT-SCHAZAR) التي هي ثغر بنبلونه فان العرب مزّقوا

الفرنج فيها كل ممزّق واخذوا قادتهم اسرى الى قرطبة وغنموا غنائم واسعة . يظهر ان هـذه المعارك هى المعنيّة فى التواريخ العربية بغزوة البة والقلاع قال ابن خلدون (نقلا عن ابن الاثير) « فى سنة ثمان (٢٠٨) أغزى عبد الرحمن حاجبه عبد الـكريم بن عبد الواحد بن مغيث الى البة والقلاع فخرّب كثيرا من البلاد وانتسفها وفتح كثيرا من حصونها وصالح بعضها على الجزية واطلاق اسرى المسلمين وانصرف ظافرا » وقال ابن عذارى « وفى سنة ٢٠٨ كانت الغزاة المعروفة بغزاة البة والقلاع غزاها عبدالـكريم بن عبد الواحد بالصائفة واحتل بالثغر وتوافت عليه عساكر الاسلام واختلفوا فى الدخول على اىّ باب يكون الى دار الشرك ثم اجتمعوا على ان يكون من باب (البة) اذ كان ذلك الباب انكى للعدوّ وأحسم لدائه فاقتحموا من فجّ يقال له جرنيق وكان وراءه بسيط للعدوّ فيه خزائنه وذخره فوقع اهل العسكر على تلك البسائط فاستصفوها وعلى ذخر تلك الخزائن فانتهبوها و انصرفوا غانمين ظافرين »

وفى سنة ٢٠٩ أرسل الامير عبد الرحمن الى حد (الجوف) (١)

---

١ يؤخذ من كندي ورومى ان (الجوف) فى شمال اسبانيا لكن جاء في ياقوت الجوف أرض مطمئنة أو خارجة فى البحر في غرب الاندلس مشرفة على البحر المحيط والجوف أيضا من اقليم (اكشونية) من الاندلس وقال أيضا (اكشونية) مدينة بالاندلس يتصل عملها بعمل اشبونه وهى غربى قرطبة

عبيد الله بن عبد الله البلنسى لان النصارى كانوا ابتدءوا هناك فى شن الغارات وكان عبيد الله هذا قائد السيّافه وقد أقامه الاميرمحافظا على هذا الحد فقاتل (اذفُنْش) ورجح عليه حتى اضطره الى ان يلتجئ الى جباله وحصونه وعاد هو الى قرطبة ومعه كثيرمن الاسرى والغنائم فاستقبله الامير بالاجلال سنة ٣١٠ ﻫ

وبعد اشهر اعاده الامير الى قتال هؤلاء الاعداء أنفسهم فتوجّه يقود الجيوش مشاة وفرسانا وبقى هناك سنتين

ما كانت حروب عبد الرحمن العديدة عائقة له عن تحسين قرطبة واعلاء حضارتها وجلب الماء الصافى من الجبال اليها فى أنابيب الرصاص وبناء الجسور على نهرها (١) وعن تشييد القصور والمدارس والجوامع ذات النافورات المرمرية فى قرطبة وغيرها من المدائن وعن ان يعيش ملكا منعما فى قصره الباذخ مغمورا فى الترف والرفاهية يفيض بأعطياته على مهندسى مبانيه وشعرائه ومغنيه وجواريه وكانت تلجئه نفقات هذه الشؤون ونفقات الحروب الى فرض ضرائب باهظة على الاهلين حتى سخطوا وتذمروا من ذلك — وكان لنصارى المدائن العظيمة ارتباط بأهل أوروبا فان كثيرا منهم كانت تدفعهم رغباتهم فى التجارة الى السفر من اسبانيا الى بلاد الغال (فرنسا الآن) وجرمانيا حتى الى جزيرة (برتون BRETON) فطنطنوا فى شكاويهم

---

(١) كندى

من الامير الى الاوروبيين ففى سنة ٢١٣ (٨٣٨) جاء كتاب من (لويس) ملك الفرنج الى أهل ماردة يحرّضهم على الثورة على الامارة(١) فصادف منهم صدورا حرجة من قسوة الشرطة فى جبى الضرائب التى كانوا يسمونها بالزكاة فرفعوا لواء العصيان تحت امرة محمود بن عبد الجبّار الذى كان جابيا فى عهد الحكم وفصل من وظيفته فى مبدأ حكم عبد الرحمن لانه شهر نفسه فى حزب خصمه عبد الله وهجموا على بيوت العمّال ونهبوا وخرّبوا وفتكوا بهم وما نجا الوالى من القتل الا بالهرب من المدينة ـ فى هذه الأثناء كان الامير يتأهب للرحيل الى الشمال الشرقى من اسبانيا ليغزو الفرنج ويردّ الي امارته حدودها القديمة التى كانت تمتد الى جبال البرانس فلما جاءه نبأ ثورة الماردين وقف عن السير وأمر والى طليطلة عبد الرؤوف بن عبد السلام بالتوجه الى ماردة لاطفاء نار الثورة فيها فلما بلغتها جنوده هدموا أبنية ضواحيها ومنازل النزهة بها وأتلفوا بساتينها فأغضب فعلهم هذا الامير فكتب الى عبد الرؤوف يلومه وينهاه ان لا يزيد خسائر الأهلين وأنه إذا فتح المدينة لايعامل أهلها بالقسوة . هذا وقد استمر حصار المدينة عدة أشهر ساءت فيها أحوال المحصورين وكان من بينهم نحو أربعين الف رجل مسلحين كان يدفعهم تلمّس القوت الى نهب بيوت الغنى والتجارة فاجتمع رؤساء المسلمين المخلصين

(١) انظر نص الكتاب فى تاريخ دوزى صحيفة ٤٤١ ومابعدها من الجزء الثالث

الامارة وقرّروا فيما بينهم ان يفتحوا أبواب المدينة لجيش الامير فبعثوا بستة من شبانهم الى المعسكر ليعلموا القائد بالامر ويدعوه الى الدخول في ساعة معيّنة ليلا فدخل الجنود المدينة بدون معارض ولما أصبح الصباح تتبعوا العصاة فى الشوارع وقتلوا منهم سبعمائة رجل وفرّقوا شمل الباقين منهم ولم يؤذوا أحدا من الاهلين امتثالا لامر الامير وبعد أيام نادوا فى المدينة بالامان سنة ٢١٣ (٨٢٨) وقد فرّ رؤساء الثورة ومن بينهم محمود بن عبد الجبار والتجؤا الى جليقية ·
ما انتهت فتنة ماردة الا واعقبتها ثورة طليطلة وكان يسكن هذه المدينة كثير من النصارى واليهود الاغنياء الذين هم وان كانوا خاضعين لحكومة الامير الا انهم أعداء للمسلمين ويريدون ان يلقوا نير حكمهم عن عاتقهم فكانوا يحدثون الفتن والقلاقل لاضطراب الحكومة وزعزعة اركانها ويسرّهم حلول المصائب بها فثاروا وكان زعيم ثورتهم شابّا غنيّا يهوى الانتقام يسمى هاشما كان يحرض الأهلين على القيام على الوالى ويعطى فى سبيل ذلك كثيرا من المال الى الفقراء حتى استمال بذلك أحراس قصر الولاية وهجم عليه هو وشيعته وقتلوا عمّاله ونهبوا جميع الاسلحة وكان الوالى ميسرة الفتى غائبا فى قلعة رباح فاخبر عبد الرحمن بما بلغه من أمر الثورة فأرسل الامير ابنه أميّة (١) ومعه فرقة من الفرسان لنجدة الوالى فلم ينالا غرضا من هاشم بل

(١) وقيل أمية بن الحكم وسيأتى ان الوليد بن الحكم حاصر طليطله ايضا

استمر عصيانه نحو تسع سنين

في هذا الوقت كانت مدينة ماردة هادئة لحسن ادارة واليها عبد الرؤوف فانه كان يشغل ذوى البطالة باعمال تكسبهم أرزاقهم ويطارد الشاردين ويقيم الشرطة والعسس لاتقاء شر اجتماع المفسدين الذين لا يروق لهم الصيد الا فى الماء العكر وأحراساً تحفظ المدينة من الطوارئ فبينما عبد الرؤوف يوطّد دعائم السلام فى المدينة اذ جاءه أمر الامير بالتوجّه الى حصار طليطلة اذ قد مرّت ثلاث سنين وقادة الامير لم يحلوا بطائل من ثائريها الى أن جاءت سنة ٢١٧ (٨٣٢) ففيها أمكن أميّة ان يحدق بهم بواسطة كمين اكمنه لهم على شواطىء نهر البرش وان يفتك بهم فتكا ذريعا حتى كاد يستأصلهم قتلا وألجأ من قدّر الله نجاته منهم الى المدينة وفى السنة التالية حضر من ماردة عبد الرؤوف يقود قوّة عظيمة فقاتل ثوّار طليطلة وانتصر عليهم الا أنه لم يجن ثمر انتصاره

بعد أن فارق عبد الرؤوف ماردة عاد الناقمون من الحكومة الى الثورة ودعوا محمد بن عبد الجبّار وشيعته الى المدينة فدخلوها وهجموا على الحرس ونهبوا مخازن الاسلحة وقتلوا قائدين ولما بلغ الامير أمرهم أمر قوّاد تلك الكورة أن يحشدوا الجنود ويذهبوا الى ماردة ثم حضر الامير نفسه وحرسه وقابل القواد والجنود المحشودة فى مكان يسمى بعين الكبوش فأمر القوّاد بأن ينبهوا جنودهم الى ان من

يحاربونهم هم أناس من دينهم فمن يهرب منهم أو يخضع لا يُعَدّ عدوا فلا يُمَسّ بأذى بل يكفى نزع سلاحه منه وأن القصاص لا يحلّ الا على زعماء الثورة الذين الجؤا أهل المدينة الى حمل السلاح

لما وصل الامير وجنوده الى ضاحية ماردة أراد أن لا يدخلها سافكا الدماء فأمر كل جندى أن يعلّق فى سهمه رقعة يكتب فيها « ان الامير يعفو عن الثائرين اذا فتحوا أبواب المدينة ماعدا زعماء الثورة » وان يقذفوا بالسهام الى المدينة ففعل الجنود ما أمروا به فلما قرأ الثائرون والخاصون للامير هذه الرقاع فتحوا أبواب المدينة وقد فرّ زعماء الثورة وفيهم محمود بن عبد الجبّار فدخلها الامير بحرسه وقابله الاهلون بالفرح والسرور

وأقام أياما أمر فيها والى الكورة المسمى عبد الله بن كليب باصلاح القلاع والاسوار وقد أشار بعضهم على الامير بهدمها لئلا يعود السكان الى العصيان فلم يكترث الامير باشارته ووضع فى القلعة الاصلية رقعة كتب فيها

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم هب بركتك ووقايتك أمة أطاعتك

بَنَى هذه القلعة وأسوارها فى عهد ما كان الامير بن الحكم (ايده الله) يحكم أمة تطيع الله عامله عبد الله بن كليب بن ثعلبة وخادمه جعفر بن محسن رئيس البنائين فى ربيع الثانى سنة ٢٢٠

(٨٣٥) (١) ومع هـذا ما زالت نار الحرب مستمرة فى طيطلة ثلاث سنين أخرى وحصارها شديد والثائرون يدافعون عنها بثبات غريب الى ان ألجأهم الجوع الى الخروج من المدينـة لقتال جيوش ميسرة وعبد الرؤوف فسقط هاشم زعيم الثورة جريحا فجىء به الى عبد الرؤوف فقتله فى الحال ودخل المدينـة سـنة ٢٢٣ (٨٣٨) وأعلن الامان العام بناء على أمر جاءه من الامير وأخـذ يصلح ما أفسدته أيدى الحدثان ويوطد دعائم السلام وقد قلده الامير ولاية المدينة ودعا ميسرة الى قرطبة واتخذه وزيرا (٢)

روى المؤرخون حوادث ماردة وطليطلة بروايات مختلفة لا تخلو من التناقض

جاء فى ابن الاثير فى حوادث سـنة ٢١٣ ان أهل ماردة قتلوا عاملهم فثارت الفتنة عندهم فسير اليهم عبد الرحمن جيشا فحصرهم وأفسد زرعهم واشجارهم فعاودوا الطاعة وأخذت رهائنهم وعاد الجيش بعـد أن خرب سور المدينة ثم أرسل عبد الرحمن اليهم بنقل حجارة السور الى النهر لئلا يطمع أهلها فى عمارته ولما رأوا ذلك عادوا الى العصيان واسروا العامل عليهم وجددوا بناء السور واتقنوه فلما دخلت سنة ٢١٤ سار الامير فى جيوشه الى ماردة ومعه رهائن اهلها فلما بارزها راسله

---

(١) كندى وروى
(٢) كندى وروى

اهلها وافتكوا رهائنهم بالعامل الذى اسروه وغيره وحصرهم وأفسد بلدهم ورحل عنهم ثم سيّر اليهم جيشا سنة ٢١٧ فحصروها وضيقوا عليها ودام الحصار ثم رحلوا عنها فلما دخلت سنة ٢١٨ سيّر اليها جيشاً ففتحها وفارقها أهل الشر والفساد وكان منهم محمود بن عبد الجبار فحصره عبد الرحمن فى جمع كثير من الجند وصدقوه القتال فهزموه وقتلوا كثيرا من رجاله وتبعتهم الخيل فى الجبل فأفنوهم قتلا واسرا وتشريدا ومضى محمود فيمن سلم معه من اصحابه الى (منت سالوط) فسيّر اليه عبد الرحمن جيشاً سنة ٢٢٠ فهرب فجدّت سرية فى طلبه فهزمها وغنم مامعها ومضى لوجهته وقابلته سرية أخرى فنال منها مانال من سابقتها وسار حتى وصل الى بلاد المشركين واستولى على قلعة لهم فأقام بها خمسة أعوام حتى حصره أذفونش ملك الفرنج (الجلالقة) فملك الحصن وقتل محمودا ومن معه سنة ٢٢٥

وفى حوادث سنة ٢١٤ ان هاشما الضرّاب خالف بمدينة طليطلة وكان ممن خرج منها لما أوقع الحكم بأهلها فسار الى قرطبة ثم عاد فاجتمع اليه أهل الشر فأغار على البربر فاشتدت شوكته واجتمع له جمع عظيم وأوقع بأهل سنتبريه وكان بينه و بين البربر وقعات كثيرة فسير اليه عبدالرحمن جيشا فقاتله فلم يستظهر أحد الفريقين على الآخر فسيّر اليه عبد الرحمن جيشا كثيفا سنة ٢١٦ فلقيهم هاشم بالقرب من حصن سمسطا فاشتدت الحرب بينهم ودامت عدة أيام ثم انهزم هاشم

وقتل هو وكثير ممن معه من أهل الطمع والشر وطالبي الفتن وكفى الله الناس شرّهم (واستمر اهل طليطلة على الخلاف)

وفي حوادث سنة ٣١٩ أن عبد الرحمن سيّر جيشا مع امية بن الحكم الى طليطلة فحصرها وكان أهلها قد خرجوا عن الطاعة فقطع أشجارهم وأهلك زروعهم فلم يذعنوا الى الطاعة فرحل عنهم وانزل بقلعة رباح جيشا عليهم ميسرة الفتى فلما أبعد خرج جمع كثير من أهل طليطلة لعلهم يجدون غفلة من ميسرة فينالون منه ومن أصحابه غرضا وكان ميسرة قد بلغه الخبر فجعل الكمين في مواضع فلما وصل أهل طليطلة الى قلعة رباح للغارة خرج الكمين عليهم من جوانبهم ووضعوا السيف فيهم وا كثروا القتل وعاد من سلم منهم منهزما الى طليطلة وجمعت رؤس القتلى الى ميسرة فلما رأى كثرتها عظمت عليه وارتاع لذلك ووجد في نفسه غما شديدا فمات بعد أيام يسيرة وفيها أيضا كان بطليطلة فتنة كبيرة تعرف بملحمة العراس قتل من أهلها كثير

وفي حوادث ٣٢٠ « سيّر عبد الرحمن ملك الاندلس جيشا الى طليطلة فقاتلوها فلم يظفروا بها »

وفي حوادث ٣٢٢ ان جماعة من اهل طليطلة خرجوا سنة ٣٢١ الى قلعة رباح وكان بها عسكر لعبد الرحمن فاجتمعوا كلهم على حصر طليطلة وضيقوا عليها وعلى أهلها وقطعوا عنهم باقي مرافقهم الى ان دخلت سنة ٣٢٢ فسيّر عبد الرحمن اخاه الوليد فرأى أهلها وقد بلغ

بهم الجهد كل مبلغ واشتد عليهم طول الحصار وضعفوا عن القتال فافتتحها قهرا وعنوة يوم السبت لثمان خلون من رجب وأمر بتجديد القصر على باب الحصن الذى كان هدم أيام الحكم وأقام بها الى آخر شعبان سنة ٢٢٣ حتى استقرّت قواعد أهلها وسكنوا

وجاء فى دوزى ماترجمته . كانت الثورات لاتنقطع فى مدينة ماردة فان نصاراها كان بينهم وبين لويس ملك الفرنج تراسل واستمر عصيان طليطلة عدة سنين فان الطليطليين بعد سنين قلائل منذ يوم الحفرة حصلوا على استقلالهم وهدموا قصر عمروس فاحتال الحكم على أخذ المدينة فاظهر انه يريد غزو قطالونيا فتوجه الى مرسية وخيم بها معسكره ولما أبلغته عيونه أن الطليطليين يظنون الآن أنهم بعيدون عن تهديد الامير حتى انهم يهملون إيصاد أبواب المدينة ليلا نهض مسرعا اليها حتى جاءها ودخلها وهم غافلون فملكها بدون قتال وأحرق منازل القسم المرتفع منها وكان من بين هذه المنازل منزل شاب يسمى هاشما فجاء قرطبة وهو معدم فاشتغل بالحدادة ثم عاد الى طليطلة وفؤاده مشتعل بحب الانتقام فكوّن له عصابة تمكن بها من طرد جند عبد الرحمن وشيعته (٨٣٩) وأخذ يجوب البلاد ينهب ويحرق قرى العرب والبربر حتى استفحل أمره وقويت عصابته فأمر عبد الرحمن محمد بن بسيم محافظ الحدّ ان يقمع هؤلاء المفسدين فلم يحل بطائل منهم واستمر هاشم سنة كاملة يعثو فى البلاد فسادا بدون ان يناله قصاص الى ان

جاء المدد الى محمد ولامه الامير على تراخيه فهاجم الاشرار وكان له الغلب عليهم بعد معركة دامت أياما قتل فيها زعيمهم وتفرقوا ومع هذا استمرت طليطلة على استقلالها الى ان جاءت سنة ٨٣٤ فأرسل اليها عبدالرحمن ابنه أميّة فحاصرها ولكن الطليطليين نجحوا فى صدّ هجماته على المدينة فاضطر الى رفع الحصار عنها والعود الى قرطبة فلما رأى الطليطليّون تباعد جيش العدو عنهم عزموا على ان يتحرشوا به ولكن أمية ترك فى قلعة رباح جيشاً تحت أمرة ميسرة فلما علم هذا بمقصد الطليطليين أكمن لهم كمينا فلما جاؤا أحدق بهم الكمين واثخن فيهم حتى قتل منهم كثيرا وقدم العسكر رؤس القتلى الى قائدهم فارتاع من رؤيتها وحزن على ابناء أمته ومات بعد أيام فأن ميسرة هذا كان من الاسبان الذين ارتدوا عن النصرانية (كهاشم)

لما اتحدت كلمة الطليطليين امكنهم ان يحافظوا على استقلالهم بضع سنين وان كان الامير فى خلالها انزل بهم الكوارث فلما زال الوفاق من بينهم سهل على الامير قنصهم . لا ندرى ما الذى حصل فى المدينة ولكن الحوادث التى طرأت فيما بعد حملتنا على الظن بوقوع الخلف بين مسلميها الاسبان والنصارى فان رئيسا يسمى ابن مهاجر (١) ترك المدينة هو وحزبه سنة ٨٣٦ قاصدين قلعة رباح لينضموا الى قائدها ويساعدوه على فتح المدينة واتفقوا جميعاً على ان

---

١ يظهر انه من الفريق الاول

يضيقوا دائرة الحصار عليها ويمنعوا عنها الميرة فحاصرها الوليد بن الحكم سنة حتى أضرها الجوع وجاء أهلها رسول من قبل القائد ينصحهم بان يسلموا طوعا ويغتنموا وقتاً يخوّل لهم وضع شروط للتسليم والاّ عما قريب يسلمون كرها فرفضوا وعاد الرسول وأخبر الوليد بضعفهم وحالتهم السيئة واعجله على الهجوم عليهم بشدة فهجم فسقطت المدينة فى ١٦ يونيه سنة ٨٣٧ بعد ان استقلت نحو ثمانى سنين

يؤخذ من رومى انه بعد اخذ طليطله بقليل اخذ العرب يقاتلون نصارى الشمال فان هؤلاء آووا العاصى محمد بن عبد الجبار عند نكبته الاولى وربما مدّوا اليه يد المساعدة فى ثورة ماردة الاخيرة فكان هذا سببا فى الحرب فقد أغار جنود ماردة وبطليوس واشبونه (لسبونة) سنة ٨٣٨ على أرض جليقيه وحاربوا ملكها أذفونش فكان الفوز لهم وقيل كان الفوز له (١) ومهما يكن من الامر فان محمد بن عبد الجبار فرّ من انتقام عبد الرحمن فآواه أذفونش واسكنه ورفقاءه جليقيه فى ارض قريبة من مدينة (لوغو LUGO) فما كان من النزيل بعد اقامته ثمانى سنين الا ان رأى فى استطاعته ان يثور على من اكرم مثواه ويؤسّس امارة مستقلة فى جليقيه وأما التحالف السرّى الذى يتوهم حصوله بين عبد الرحمن وابن عبد الجبار على أذفونش فيجب

---

(١) فى كندى ان أهل ماردة وبطليوس واشبونه خربوا مدائن جليقية وحاربوا ملكها أذفونش

أن يدرج فى عـداد الخرافات التاريخية التى كثرت فى التواريخ الاسبانية الجديدة . فابتدأ ابن عبد الجبار منازعاته بالاستيلاء على قصر (سنت كرِستين SAINTECHRISTINE) على بعد فرسخين من لوغو وتحصن فيه وكان يأمل ان يكون حصنا يستطيع منه ان يستولى على البلاد — هنا يغالى المؤرخون الاسبانيون فى عدد جيشه فيقولون انه يبلغ ٥٠ الفا ويقصون علينا مع العجب انتصار أذفونش على هذا العدد الكثير والذى يظهر انه حقيقى (أن أذفونش لما بلغه قيام ابن عبد الجبار جاءه وهاجمه وغلبه وقتله واستولى على حصنه)

وفى هذه الاثناء ابتدأت الحرب فى اقليم (قوطيه GOTHIE) الشامل أرض سبتمانيا وكورة برشلونه وقد ساعدت الظروف جيش الامير فانتصر وذلك انه فى سنة ٢٢٤ (٨٣٨) امر الامير عبدالرحمن والى سرقسطه ان يجمع الجنود من اسبانيا الشرقية ويسرع بها الى أرض الفرنج فشن عبيد الله بن عبد الله البلنسى (١) وابن عبدالكريم الغارات على هـذا الاقليم مدة سنتين بجيوش جرّارة وأغار موسى والى تطيلة على سردانيا وأنزل بها النوائب وقامت سفن عربية من طرجونه وأمدتها سفن أخرى خرجت من موانى جزائر (ميورقه) واتجهت كلها الى شواطئ (مرسليا) ونهبت ضواحيها واستولت

---

(١) يظهر ان ابن البلنسى كان والى سرقسطه

على كثير من خيراتها وأسرت كثيرا من أهلها (١) فى هذا الوقت جاء قرطبة من القسطنطينية سفراء من قبل ملك الروم (تيوفيل THÉOPHILE) يطلبون المساعدة على المعتصم خليفة الشرق فاستقبلهم الامير بصدر رحيب واكرم مثواهم وكتب الى الملك يخبره انه متى خاص من الحروب الداخلية يرسل اليه سفنه لتساعده ثم غمرهم بالعطايا وصرفهم

يذكر مؤرخو الافرنج ان وفدا جاء قبيل ذلك الزمن من قبل المأمون الى لويس ملك الفرنج بهدية من المنسوجات والعطور

وفى سنة ٨٤٠ للميلاد مات لويس ملك الافرنج فى المانيا وعقب موته انفجر الشجار بين ولديه (پپن PEPIN) و(كرلوس CHARLES) ويظهر أن كونت برشلونه المسمى (برنار) دخل فى حزب الاول سرّا وساعده على ان يستقل فى امارته عن أخيه وقد علم هذا بذلك فدعا (الكونت) اليه بعد أن عقد الجمعية العمومية فى (طلوشه) وقتله بيده (٢) فقام غليوم بن برنار لينتقم من قاتل والده وكان له حزب كبير فهجم أوّلا على (ألدرام ALDERAM) كونت برشلونه الذى عيّنه الملك خلف ابيه وليتحقق من نجاح ثورته

---

١ يظهر أن الغرض من هذه الحروب كان يرمى الى كسب الاموال اكثر من فتح البلاد فان الضرورة كانت تدفع العرب من وقت الى آخر فى ظروف معينة الى ان يدّخروا النفقات لقتال اعدائهم المجاورين (٢) انظر رومى صحيفة ٤٧٣ ج ٣

دعا أمير قرطبة الى مساعدته وكان يقاتل باسم (پپن) المعزول فلبى الامير دعوته وثارت (البشكنس) على كرلوس أيضا فاتقدت نيران الثورات بين برشلونه وبنبلونه (اى فى اقليم قطالونيا) فى السنة الخامسة و الاربعين من القرن التاسع الميلادى وجاءت جيوش الأمير بناء على دعوة غليوم ودخلت فى غمار هذه الثورات التى استمرت الى سنة ٨٤٧ فان الصلح عقد فى هـذه السنة بين الملك كرلوس والامير عبد الرحمن واعقب ذلك خمود نار القتال ومع هذا قد استولى غليوم على برشلونه وامپرياس سنة ٨٤٨ ولكن لم تدم مدة حكمه فان أحزاب (ألدرام) قاموا فى السنة التالية على غليوم وقتلوه واعادوا الولاية الى زعيمهم

قلنا ان جيوش الامير دخلت فى غمار الثورات فى قطالونيا ولزيادة البيان نقول — ان جيشين من المسلمين اجتازا نهر (ابره) أحدهما تحت قيادة والى سرقسطة ابن البلنسى وقد أغار على الاقاليم السفلى من جبال البرانس واستولى على قلاع كثيرة والآخر تحت أمرة عبد الكريم وقد اتجه نحو برشلونه وأحدق بها وكان بها كثير من اليهود فساعدوا الجيش على تسليمها واقتفى الجيشان آثار اعدائهما فى مضايق الجبال حتى ارض الفرنج قال رومى ما كان يتوقع ان تخرج برشلونه من قبضة المسلمين بعد هذه المره ولكن دل تاريخ الفرنج فيما بعد على انها عادت الى حكمهم واقول يظهر ان السياسة قضت

على الامير عبد الرحمن بان يقبل محالفة غليوم على ان يكون هذا والى برشلونه تابعا لامارة الاندلس وان المسلمين بعـد اخذها هذه المرة سلموا مقاليدها لحليفهم وان الصلح بين العرب والفرنج عقـد على ذلك لـكن كونوس أو عز الى حزب (الدرام) ان يقتلوا غليوم ويستردوا المدينة ونشأ عن هذا فسخ عقد الصلح بين العرب والفرنج سنة ٨٥٠ (٢٣٦) قال ابن الاثير فى حوادث ٢٣٦ « غزا جيش بالاندلس بلاد برشلونة فقتلوا من أهلها فاكثروا واسروا جمّا غفيرا وغنموا وعادوا سالمين » — وفى اثناء ما كانت رحى الحرب دائرة فى اقليم (قوطيّة) كان اسطول الامير يجدد غاراته على ولاية (پرڤنسا PROVENCE) (١) فنهب واحرق ضواحى مرسليا الجنوبية ويظهر انه اكتفى بذلك بدون ان يحتل البلاد التى دخلها . ارتجفت أوروبا من فوز جنود العرب فى اقليم (قوطيّة) ومن نجاح اساطيلهم فى غاراتها على جزائر وشواطئ (الغال) الجنوبية وقد اتسعت دائرة هذه الاساطيل فى تلك الايام وكثر الخوف من اعتدائها فاخترق بعضها غير مرة بحر الادرياتيك وبحر الشام واجترأت احدى سفائنهم مرة على اجتياز رأس (كورونيه COROGNE) (٢) وشقت عباب المحيط المظلم حتى دخلت جزيرة (أويّة OYE) من برطانيه

---

١ بروفنسا ولاية قديمة فى الجنوب الشرقى لفرنسا حاضرتها (اكس AIX) « (٢) فى الشمال الغربى من اسبانيا

عند مصب نهر اللوار وهددتها وما تقهقرت الا من فزع لا يعلم سببه فينتج من ذلك ان مسلمى الاندلس كان لهم السيادة على البحر المتوسط (١)

ساقتنا حوادث العرب والفرنج الى سنة ٨٥٠ ولكن نرجع الى الوراء لنذكر مافاتنا من الحوادث الأخرى فنقول

فى سنة ٢٢٩ (٨٤٣) جاء على شواطئ اشبونه اربع وخمسون سفينة تقل كثيرا من أقوام متوحشين جاءوا من البلطيق وشواطئ النروج يعرفون عند الاوروبيين بالنورمان NORMANS OU NORMANDS OU NORTHMEN أى رجال الشمال ويعرفون عند العرب بالماجوج (٢) وكتب التاريخ العربية فى هذا الموضع تحرف اللفظ الى (مجوس) (٣) فنهبوا البلاد وقتلوا العباد واحرقوا المدائن فاجتمع المسلمون وحملوا السلاح وجاءوا ليدفعوا غائلتهم فرأوهم ركبوا السفن بغنائمهم واختفوا ثم نزلوا فى شاطئ (الغرب ALGARVE) ويظهر أنهم لما اجتمعوا عند مصب النهر الكبير انقسموا أقساما : قسم توجه الى أفريقية وقسم تقدم الى قادس ثم الى شدونة والقسم الثالث دخل النهر وصعد نحو اشبيلية فى ٨ المحرم سنة ٢٣٠ (٢٥

١ رومي ص ٤٧٧ و٤٧٨ ج ٣

٢ جاء في كتب التفسير ان بعض احبار اليهود ذكر ان ياجوج ومأجوج في منتهى الشمال حيث لا يستطيع احد غيرهم السكنى فيه ٣ يبعد ان يكون المراد عبدة النار

سبتمبر سنة ٨٤٤) وكانوا ينهبون القرى التى على الشاطئين ويملؤن سفنهم بالنهاب وقد ملؤا سكان الشواطئ رعبا حتى فرّوا من وجوههم ولما وصلوا الى جزيرة قبطيل (١) قابلتهم جنود العرب المجتمعة هناك وحاربتهم فغلبوها ثم نهبوا اشبيلية وكان السكان قد اخلوها وفرّوا الى قرمونه وتحصنوا فى طلياطة (٢) فلما جاء الماجوج اليهم غلبهم مسلمو هذه المدينة وفى ثانى عشر هذا الشهر عادوا ان الامير ارسل خمس عشرة سفينة تقل جيوشا شجعانا لتصدّهم عن المرور فى النهر فانسحبوا واختفوا فى المحيط وعادوا الى شواطئ المغرب وقد امر عبد الرحمن جنود ماردة وشنترين وقلمرية بالتوجه لمراقبتهم والمحافظة على السواحل ولكنهم كانوا فعلوا افاعيلهم قبل ان تجتمع هذه الجنود. فى هذه الاثناء أخذ عبد الرحمن فى السير وتحت أمرته فرسانه ليساعدوا اشبيليه فلما حضر وشاهد ما اتلفته أيدى هؤلاء البربر المتوحشين بدون ان يقابل منهم أحدا حزن وأمر باصلاح الفاسد ورتق فتوق التلف (كذا يؤخذ من كندى ودوزى) وفى تاريخ ابن الاثير ان عسكر الامـير قاتلوهم وقتلوا منهم سبعين رجلا وهزموهم حتى دخلوا مراكبهم وسير الامـير جيشا آخر واتاه المدد من كل ناحية فخرج اليهم المجوس وقاتلوهم فكاد المسلمون ينهزمون ثم ثبتوا وهزموا مقاتليهم الى مراكبهم وقتلوا منهم

---

١ هكذا اللفظ فى تاريخ ابن عذارى وفي التواريخ الافرنجية *CABTAL*

(٢) فى معجم ياقوت طلياطة ناحية بالاندلس من اعمال استجة قريبة من قرطبة

خمسمائة رجل واخذوا منهم أربعة مراكب واحرقوها بعد ان اخذوا مافيها ثم خرج المجوس الى لَبْلَةَ فاصابوا سبيا ثم نزلوا جزيرة قوريس (قورة) وقسموا ما كان معهم من الغنيمة فحمى المسلمون ودخلوا اليهم في النهر وقتلوا منهم رجلين ثم رحل المجوس فطرقوا شذونه فغنموا اطعمة وسبيا ثم وصلت مراكب عبد الرحمن الى اشبيليه فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبله فاغاروا وسبوا ثم لحقوا باكشونيه ثم مضوا الى باجه ثم انتقلوا الى اشبونه ثم ساروا وانقطع خبرهم عن البلاد اهـ واتقاء لما يطرأ من قبيل هذه الحوادث أمر الامير بانشاء سفائن في قادس وقرطاجنه وطرجونه لتحفظ الشواطئ وناط ذلك بابنه يعقوب وأمر ان ينشأ في كل نقطة حربية محل للبريد يراسه قائد ويتبعه فرسان ينقلون أوامر ومراسيم الحكومة بسرعة

وجاء في المقّرِي وابن عذارى أن الامير بعث في سنة ٢٣١ عساكره تحت امرة ابنه محمد الى جليقية فدوخوها وحاصروا مدينة ليون ورموها بالمجانيق فهرب اهلها فغنم المسلمون مافيها وأحرقوها وارادوا هدم سورها فلم يقدروا لأن عرضه كان سبعة عشر ذراعا فثلموا منه ثلمة ورجعوا

وجاء في المقرى ان الامير اغزى حاجبه عبد الكريم في العساكر الى بلاد برشلونه فعاث في نواحيها واجتاز الدروب التي تسمى البرت الى بلاد الفرنجة فدوخها قتلا واسرا وسبيا وحاصر مدينتها العظمى

جرنده وعاث فى نواحيها وقفل (١)

وفى سنة ٢٣٢ اصاب الاندلس جدب عَقّم أرضها عن انبات القمح والشعير وأيبس الكروم والاشجار المثمرة واهلك الناس والدواب ظمأ وفوق ذلك البلاء المبين حلّ بارضها جراد جردها من الزرع فاشتدت المجاعة حتى اضطرت عددا عظيما من الاندلسيين أن يهاجروا الى افريقية فان وسق (٢) الحنطة كان يباع فى المغرب بثلاثة دراهم ودام هذا الحال الى السنة التالية حتى اعفى الامير الناس من العشور التى كانوا يؤدونها كل سنة وفتح للفقراء أبواب العمل والكسب ليقتاتوا من اجورهم فقد شغلهم ببناء مساجد ومدارس وقصور وحدائق فى مدائن اسبانيا وببناء رصيف النهر فى قرطبة وبانشاء حياض ماء مرمرية فوقه للسقاية وبعمل سقائف فوق الرصيف وبوضع انابيب رصاص ليجرى فيها الماء من الجبال الى المدن (٣) وغير ذلك من الاعمال النافعه وقد بلغت قرطبة فى عهد عبد الرحمن مبلغا من الحضارة والعظمة لم يعهد من قبل

وفى سنة ٢٣٤ وجّه الامير ثلثمائة سفينة تقل الجنود الى غزو أهل جزيرة ميورقة لنقضهم العهد واضرارهم بسفن المسلمين التى كانت تمر بهم

---

(١) هذه الغزوة هى عين الغزوة التى وقعت عقب دعوة غليوم للامير عبد الرحمن كما سبق فان سنة ٢٣١ توافق ٨٤٥ فتنبه « ٢ » الوسق حمل بعير وقيل ستون صاعا «٣» كندى

ففتحوا اكثر جزائرهم (١)

وفى سنة ٢٣٥ ورد الى الامير كتاب من أهل ميورقه ومنورقه يذكرون ما نالهم من نكاية المسلمين فكتب اليهم كتابا منه (أما بعد فقد بلغنا كتابكم تذكرون فيه أمركم واغارة المسلمين الذين وجهناهم اليكم لجهادكم واصابتهم ما أصابوه منكم من أرزاقكم وأموالكم والمبلغ الذى بلغوه فيكم وما أشفيتم عليه من الهلاك وسألتم التدارك لامركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة للمسلمين والكف عن مكروههم والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم ورجونا ان يكون فيما عوقبتم به صلاحكم ويمنعكم عن العود الى مثل الذى كنتم عليه وقد أعطيناكم عهد الله وذمته . (٢)

وفى سنة ٨٥٠ للميلاد مات (رامير) (٣) ملك استوريا وخلفه ابنه (اردن) ولم يحدث موته انقلابا فى سياسة الصلح الذى كان بين المسلمين ونصارى الشمال .

وفى سنة ٢٣٧ ادعى النبوة رجل من المعلمين بشرق الاندلس وتأول القرآن على غير تأويله فتبعه فريق من الغوغاء وكان من شرائعه النهى عن قص الشعر وتقليم الاظافر فبعث اليه يحيى بن خالد عامل ذلك البلد فأتى به وكان أول ما خاطبه به أن دعاه الى اتباعه فأمره

---

(١) كندى (٢) كندى (٣) دومى ويسميه ابن الاثير رذمير

العامل بالتوبة فامتنع فصلبه (١)

وفى سنة ٢٣٨ توفى الامير عبد الرحمن بن الحكم ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر (٢) فتكون مدة حكمه احدى وثلاثين سنة قمرية وثلاثة أشهر وستة أيام

ذنابات

الاولى — يصفه بعض المؤرخين بانه كان عالما بعلوم الشريعة والفلسفة وكانت أيامه أيام هدو وسكون وكثرت الاموال عنده واتخذ القصور والمتنزهات وجلب الماء اليها وجعل له مصنعا اتخذه الناس شريعة وزاد فى جامع قرطبة رواقين ومات قبل ان يتمه فاتمه ابنه محمد بعده وبنى بالاندلس جوامع كثيرة ورتب رسوم المملكة

---

(١) عن ابن الاثير وابن عذارى (٢) اتفق ابن الاثير وابن خلدون والمقرى وابن عذارى على ان وفاة عبد الرحمن بن الحكم فى ربيع الآخر سنة ٢٣٨ وعين الاخير ليلة الوفاة وزاد المقرى ان مولده بطليطلة فى شعبان سنة ١٧٦ فعلى هذا لم يتم السنة الثانية والستين ويقول كندى وروى انه مات في آخر يوم من صفر سنة ٢٣٨ (١٩) اغسطس سنة ٨٥٢ وانه عاش ٦٥ سنة وثلاثة أشهر (يقول كندى و٣ أيام وروى و٦ أيام) ويقول كندى ان مدة حكمه ٣١ سنة و٣ أشهر و٦ أيام ويقول رومى ان هذه المدة تتجاوز ٣١ سنه بقليل وكلامهما هنا لا يلتئم مع ما سبق لهما من ان عبد الرحمن يوم التوليه كان ابن ٣١ سنه و٣ اشهر و٦ أيام كما لا يخفى على الحاسب

واحتجب عن العامة

الثانية ـ ذكر بعضهم ان وزراءه كانوا تسعة رزق كل واحد منهم ثلثمائة دينار كل شهر وقضاته احد عشر وان عدد اولاده بلغ ٤٥ من الذكور و ٤١ من الاناث وان مال الجباية انتهى فى ايامه الى الف الف فى السنة وكان قبل لا يزيد عن ستمائة الف (١) وكان يجتمع فى مجلسه العلماء والشعراء ويفضل من بينهم عبد الله بن شمر ويحيى الغزال الذى سافر الى القسطنطينية واختلط بملوك الروم وعرف عاداتهم وآدابهم .

الثالثة ـ ممن كان له حظوة وجاه عند الامير عبد الرحمن الفقيه يحيى بن يحيى الليثى والمغنّى على بن نافع الملقب بزرياب والاميرة طروب ونصر الخصى

فالفقيه يحيى رحل من الاندلس الى الشرق وروى الموطّأ عن مالك بن انس يحكى انه بينما هو فى مجلسه مع جماعة من اصحابه اذ قال قائل حضر الفيل فخرج اصحاب مالك كلهم ولم يخرج يحيى فقال له مالك مالك لم تخرج وليس الفيل فى بلادك فقال انما جئت من الاندلس لانظر اليك واتعلم من هديك وعلمك ولم أكن لأنظر الفيل فأُعجب به مالك وقال هذا عاقل الاندلس ـ ولما عاد الى الاندلس نشر مذهب مالك فى تلك الديار وكان مكينا عند

---

(١) هذا لا يخلو من نظر محقق

السلطان مقبول القول فى القضاة وكان لا يلى قاض فى أقطار الاندلس الا بمشورته واختياره على ان يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب اليه وكان ذلك زيدا فى جلالته وكان ممن اتهم بالتهييج فى وقعة الربض المشهورة ففر الى طليطلة ثم استأمن فكتب له الامير امانا وانصرف الى قرطبة وعاش فى زمن امارة عبد الرحمن الى ان مات سنة ٢٣٤

والمغنى زرياب وفد على الاندلس من الشرق وكان تلميذا لاسحاق الموصلى ببغداد ويحكى ان الرشيد طلب من اسحاق مغنيا غريبا مجيدا للصنعة فذكر له تلميذه هذا وقال انه مولى لكم وسمعت له نزعات حسنة ونغمات رائقة ملتاطة بالنفس وأحدس ان يكون له شان فقال الرشيد هذا طلبتى فأحضرنيه فأحضره فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه باحسن منطق وأوجز خطاب وسأله عن معرفته بالغناء فقال نعم أحسن منه ما يحسنه الناس واكثر ما أحسنه لا يحسنونه مما لا يحسن الا عندك ولا يدخر الا لك فان اذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك فأمره بالغناء فأخذ العود وغناه

يا ايها الملك الميمون طائره   هارون راح اليك الناس وابتكروا

فأتم النوبة وطار الرشيد طربا وهاج اسحاق من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب بعد الانصراف من مجلس الخليفة وقال يا على ان الحسد اقدم الادواء وادواها والدنيا فتانة والشركة فى الصناعة عداوة وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من اجادتك وعلو

طبقتك وعن قليل تسقط منزلتى وترتقى انت فوقى وهذا مالا اصاحبك عليه فتخير فى ثنتين لا بد لك منهما اما ان تذهب عنى فى الارض العريضة لا أسمع لك خبرا وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره — واما ان تقيم على كرهى ورغمى مستهدفا الىّ فخذ الآن حذرك منى فلست والله ابقى عليك ولا ادع اغتيالك باذلا فى ذلك بدنى ومالى فاقض قضاءك — فاختار زرياب الرحيل واعانه اسحاق على ذلك سريعا وراش جناحه فرحل ومضى الى المغرب — وامّ اميرَ الاندلس الحكم وكتب اليه يسأله الاذن فى الوصول اليه ويعلمه بمكانه من الصناعة فسر الحكم بكتابه وأرسل فى طلبه فسار زرياب نحوه بعياله وركب بحر الزقاق الى الجزيرة الخضراء فلم يزل بها حتى توالت عليه الاخبار بوفاة الحكم فهم بالرجوع الى العدوة فكان معه منصور اليهودى المغنى رسول الحكم اليه فثناه عن ذلك ورغبه فى قصد القائم مقام الحكم وهو عبد الرحمن ولده وكتب الى هذا بخبر زرياب فجاءه كتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه اليه والسرور بقدومه عليه وكتب الى عُمّاله على البلاد ان يحسنوا اليه ويوصلوه الى قرطبة وامر خصيًّا من اكبر خصيانه ان يتلقاه ببغال وآلات حسنة فدخل هو وأهله البلد ليلا وانزله فى دار من احسن الدور وحمل اليها جميع ما تحتاج اليه وبعد ثلاثة ايام استدعاه وكتب له فى كل شهر بمائتى دينار راتبا وأن يجرى على بنيه الاربعة عشرون دينارا لكل واحد

منهم كل شهر وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار منها لكل عيد الف دينار ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار وان يقطع له من الطعام العام ثلثمائة مُدْى (١) ثلثاها شعير وثلثها قمح وأقطعه من دور قرطبة وبساتينها وضياعها ما يقوَّم بار بعين الف دينار

ثم استدعاه وسمع غناءه فاستهواه واطرح كل غناء سواه وأحبه حبا شديدا وقدمه على جميع المغنين وذاكره فى أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء فحرك منه بحرا زخر عليه مدّه فأعجب الامير به وراقه ما أورده وكان زرياب عالما بالنجوم وتقويم البلدان حافظاً لعشرة آلاف مقطوعة من الاغانى بالحانها

وقد جمع الى خصاله هذه كثيرا من ضروب الظروف وفنون الادب ولطف المعاشرة وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يحوه احد من اهل صناعته حتى اتخذه ملوك الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنّه لهم من آدابه واستحسنه من اطعمته فمن ذلك انه دخل الى الاندلس وجميع من فيها من رجل وامرأة يرسل جُمَّته مفروقاً وسط الجبين عاما للصدغين والحاجبين فلما عاينوا تحديقه هو وولده ونساؤه لشعورهم وتقصيرها دون جباههم وتسويتها مع حواجبهم وتدويرها الى آذانهم واسدالها الى اصداغهم هوت اليه افئدتهم واستحسنوه . وهو أول من اجتنى بقلة الهليون المسماة

---

١ المدي كقفل مكيال يسع تسعة عشر صاعا وهو غير المد الذي هو ربع صاع

بلسانهم الاسفراج ASPERGE ولم يكن اهل الاندلس يعرفونها قبله واخترع لهم بعض ألوان من الاطعمة لا تزال منسوبة اليه ومما أخذوه عنه تفضيله آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة وايثاره فرش انطاع الاديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان واختياره سُفَر الاديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية اذ الوضر يزول عن الاديم باقل مسحة ولبسه كل صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق به وخلف أولادا فخلفه كبيرهم فى صناعته وحظوته

وأما الاميرة طروب فهى أحدى حظيات الامير وكان يحبها حبا جما يحكى انه أغضبها فهجرته ولزمت مقصورتها فاشتد قلقه لهجرها وجهد ان يترضاها بكل وجه فاعياه ذلك فأمر بسد باب المقصورة من خارجه ببدر المال وأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضيا راغبا فى المراجعة على ان لها جميع ما سدّ به الباب فاجابت وفتحته فانهالت البدر فى بيتها وا كبّت على رجل الامير تقبلها وحازت المال (١)

واما نصر الخصى فكان اسبانيا قائما بشؤون القصر (على ما يظهر) يحكى أن طروب ارادت ان يخلص مُلك اسبانيا لابنها عبد الله بعد أبيه الامير عبد الرحمن مع ان ابنه محمدا كان ولى عهده فأطلعت نصرا على سرها فوعدها بما يشفى فؤادها ورأى ان يسمّ الامير وولى عهده وطلب من الطبيب ان يدسّ السمّ فى دواء يطلبه الامير ويعطيه

---

(١) المقرى

الف دينار ففعل ولكنه أوعز الى السلطان مع قهرمانة القصر الا يشرب الدواء فان نصرا اكرهه على اذابة السمّ فيه وباكر نصر القصر ودخل على سيده يستفهمه عن شرب الدواء فوجده بين يديه وقال له ان نفسي قد بشعته فاشرب به انت فوجم فأقسم عليه فلم تسعه مخالفته فشربه وركب مسرعا الى داره فهلك لحينه (١) سنة ٢٣٦

٥ — محمد بن عبد الرحمن بن الحكم

من سنة ٢٣٨ الى ٢٧٣ (*DE 852 A 886*)

بعد وفاة عبد الرحمن الاوسط ابن الحكم خلفه ابنه محمد ابو عبد الله . بويع يوم الخميس لاربع خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ للهجرة (٢) وكان ابن ثلاثين سنة واشهر وكان الناس يأملون فى حكمه مستقبلا سعيدا لما امتاز به من الخلال الحميدة فقد تحلى منذ نشأته بالعدل والانسانية والشجاعة مع استعداد فائق وعلم واسع مكتسب (٣) — فى الاشهر الاولى من حكمه قام نزاع بين فقهاء قرطبة والحافظ ابى عبد الرحمن بقيّ بن مخلد فانه كان تلقى فى المشرق مذهب

---

١ ابن خلدون ٢ ابن عذارى ويؤيد هذا ما سبق من ان وفاة عبد الرحمن ابن الحكم كانت ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ ويقول كندي وروى اعلنت امارته فى قرطبة فى اليوم السادس من ربيع الاول ٢٦ اغسطس سنة ٨٥٢ (٣) كندي

الامام احمد بن حنبل على أشهر علمائه ولما قدم الاندلس علّم في جامع قرطبة مصنف ابى بكر بن ابى شيبة فى أصول هذا المذهب فقام عليه مدرسو مذهب مالك الذى كان كثير الانتشار فى اسبانيا وشكوا منه الى الامير فاستحضرهم واياه وتناظروا فى حضرته فحكم بان الفروق فى المذهب الحنبلى لا تخالف روح الشريعة ولا تغاير السنة بل ان فيه أصولا شريفة نافعة لها مساس بحوادث الانسان فى ذلك الزمان ونهى الامير خصوم بقىّ عن أن يتعرضوا له واذن بتعليم مذهبه فمن ذلك الوقت أخذت تتسع دائرة مذهب احمد بن حنبل (١) فى سنة ولا يتهثار عليه

---

١ كندى وروى وجاء في نفح الطيب (ج ٢ ص ٥٨٩) ما ملخصه

ارتحل من الاندلس الى المشرق بقى بن مخلد أبو عبد الله القرطبي وأخذ العلم عن كبار العلماء وعني بالاثر عناية عظيمة لا مزيد عليها وكان اماما حافظا صادقا قليل المثل مجتهدا لا يقلد بل يفتي بالاثر قال ابن حزم انه لم يؤلف فى الاسلام مثل تفسيره لا تفسير ابن جرير ولا غيره وكان محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس محبا للعلوم عارفا بها فلما دخل بقي بن مخلد الاندلس بمصنف ابن ابى شيبة وقرئ عليه انكر جماعة من أهل الرأى ما فيه من الخلاف واستبشعوه وقام جماعة من العامة عليه ومنعته من قراءته فاستحضره الامير واياهم وتصفح الكتاب جزءا جزءا حتى اتي على اخره ثم قال لخازن كتبه هذا لا تستغنى عنه خزانتنا فانظر فى نسخه لنا وقال لبقى انشر علمك وأرو ما عندك ونهاهم عن ان يتعرضوا له — ولد بقى فى رمضان سنة ٢٠١ وتوفى فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ

أهل طليطلة وحبسوا العامل عندهم حتى اطلقت رهائنهم من قرطبة فاطلقوه
وفى السنة التالية (٢٣٩) بعث العساكر مع أخيه الحكم الى قلعة رباح
وكان أهل طليطلة خربوا سورها وقتلوا كثيراً من أهلها فرمّ السور
وأصلح حال القلعة ورد اليها من هجرها وتقدم الى طليطلة فعاث
فى نواحيها وسيّر الامير جيشا (١) آخر الى طليطلة فلما قاربها خرجت
عليه الجنود من المكامن فانهزم واصيب اكثر من فيه فسار الامير بنفسه
فى المحرم سنة ٢٤٠ فى جيوشه الى طليطله فاستمد أهلها ملك جليقية
وملك البشكنس فأمداهم بجيوش كثيرة فلما بلغ الامير ذلك وكان قد
قارب طليطلة أعمل الحيلة فاكمن لهم الجيوش فى وادى سليط وتقدم
اليهم فى عدد قليل من الجند فاعلم اهل طليطلة الفرنج بقلة عدد
المسلمين فسارعوا الى قتالهم وطمعوا فيهم فلما تراءى الجمعان وانتشب
القتال خرج الكمناء من كل جانب وأوقعوا باعدائهم حتى بلغ عدد
القتلى من الفرنج والطليطليين عشرين الفا وفى سنة ٢٤١ اكثر
الامير من الرجال بقلعة رباح ليقفوا على اهل طليطلة (٢) وبعث
الجيوش مع موسى صاحب تطيله (٣) فعاثوا فى نواحى البة والقلاع
وفتحوا بعض حصونها وعادوا (٤) وفى سنة ٢٤٢ بعث جيشاً الى

---

١ يؤخذ من ابن عذاري ان قائدى هذا الجيش قاسم بن العباس وتمام بن ابى العطاف صاحب الخيل وقائد حيش طليطلة (شندلة) وان هذه الوقعة كانت فى شوال

٢ ابن الاثير وفى ابن عذاري ان الامير شحن قلعة رباح وطلبيرة بالحشم ورتب فيها الفرسان وترك فيها عاملا حرث بن بزيع ٣ ابن خلدون ٤ ابن الاثير

برشاونه فدخلها وحارب قلاعها وجازها الى ما وراء اعمالها فغنم كثيرا وفتح حصن طرّاجة وهو من آخر حصون برشاونه (١) وفى سنة ٢٤٣ خرج اهل طليطلة بجمعهم الى طلبيرة وعليها مسعود بن عبد الله العريف فقاتلهم حتى هزمهم وقتل اكثرهم وحمل الى قرطبة سبعمائة رأس (٢) وفي سنة ٢٤٤ خرج الامير بنفسه الى طليطلة فكان للطليطليين واقعة هائلة على قنطرة نهر تاجه اذ اجتمعوا عليها وكانت قد أخلّت ولم يشعروا فسقطت بهم فغرقوا فى النهر عن آخرهم (٣) وفى سنة ٢٤٥ دعا اهل طليطلة الامير الى الامان فعقده لهم (٤) كذا يؤخذ من التواريخ العربية

ويؤخذ من دوزى أن تمسك السلطان محمد بدينه كان يدفعه الى اضطهاد نصارى قرطبة وانه لما بلغ أهل طليطلة نبأ هذا الاضطهاد (٥) تأهبوا للقتال تحت أمرة (شندله SINDOLA) ولخوفهم على حياة

---

١ ابن الاثير وفي ابن عذارى ان الامير كتب الى موسى بن موسى بحشد الثغور والدخول الى برشلونه فنزلوا اليها واحتل بها وافتتح حصن طراجة وهو من آخر احواز برشلونه « ٢ » ابن الاثير (٣) يقول دوزى بعد أن شغل السلطان القنطرة بجيوشه أخذ مهندسوه يخلون دعائمها بدون ان يراهم الطليطليون فلما كاد المهندسون ينتهون من اعمالهم أمر عساكره أن يتقهقروا عنها فاقتفى آثارهم عساكر طليطلة فلما حلوا فوقها انهارت بهم فى الحال فغرقوا فى نهر تاجه « ٤ » ابن عذارى « ٥ » لم أر فى التواريخ العربية ولا فى كندى ولا فى دوزي أثرا لاضطهاد الامير نصارى قرطبة فمن ابن جاء دوزي نبأ هذا الاضطهاد ومن التناقض مدح كندي الامير محمدا وذم دوزي اياه

رهائنهم فى قرطبة قبضوا على المحافظ واعلموا السلطان (انه اذا رغب فى الابقاء على حياة المحافظ فعليه أن يرد اليهم الرهائن) ففعل وهم اطلقوا سبيل المحافظ ولكن شهرت الحرب وحمل الخوف من الطليطليين حامية قلعة رباح على اخلائها فجاءوا اليها وهدموا أسوارها لكن السلطان بعث بالجنود فرمّوا الاسوار (٨٥٣) ثم أمر بتسيير قائدين الى طليطلة لكنّ الطليطليين بعد ان مرّوا من مضايق (جبال مرنه SIERRAMARNA) للقاء عدوهم اسرعوا فى الهجوم عليه بالقرب من (اندوجر ANDUJAR) فهزموه واستولوا على معسكره قرب هذه الهزيمة من اندوجر هدد قرطبة فجمع الأمير جنوده وقادهم بنفسه الى طليطلة فى يونيو سنة ٨٥٤ فبعث شنندله يستنجد بملك ليون أردن الأول فأمدهم بعدد عظيم تحت امرة (غثون كند بيرزو GATON CONTE DU BEIRZO) فنزع هذا المدد من محمد أمل الفوز فاكمن معظم جيشه خلف الصخور التى يجرى بينها نهر سليط وسار الى المدينة فى عدد قليل ووجه آلاته الحربية نحو جدرانها فلما رأى الطليطليون قلة العدد الهاجم دعوا غثون (١) الى الخروج فخرج مسرعا يقود جيشه وجاش الطليطليين وهجم على جند محمد فاخذ الجند فى الفرار جارا وراءه اعداءه نحو الكمين حتى ظهرت عليهم الجنود الكامنة وأبادت معظمهم وقطعت من رءوس القتلى

---

١ فى ابن عذارى ان غثون أخو اردن بن اذفونش صاحب جليقية

ثمانية آلاف ووضعتها كرمة وصعدت عليها اه

ويؤخذ من رومى وكندى ان الامير محمدا كان ذا حمية عظيمة فى الدين لكنها ما كانت تطفئ منه كل نور وكل تسامح وقد دفعته هذه الحمية فى صدر ملكه الى نشر الاسلام فى حدود اسبانيا كى يصد عن مملكته هجمات أهل الحدود فأمر ولاة ماردة (١) وسرقسطة بجمع الجنـود وغزو بلاد الفرنك ونصارى جليقية فاجتاز المسلمون جبال البرانس الشرقية وتوغلوا فى البلاد الى اقليم نربونة وغنموا غنائم واسعة واسروا أسرى كثيرة وفرقوا شمل السكان شذر مذر لكنهم لما حاربوا نصارى جليقية كانت الحرب سجالا بين الفريقين وآل الأمر الى ان هزم ملك استوريا (اردن) الوالى موسى بن زياد ZEIAD بالقرب من القلعة البيضاء حتى أخذها منه (٢) لما جاء نبأ هزيمة المسلمين واستيلاء النصارى على القلعة البيضاء الى قرطبة كان له وقع سيء لدى الدولة الأموية واتخذ اعداء موسى هزيمته فرصة للوشاية فيه لدى الامير واتهامه بالارتشاء فعـزله من ولاية سرقسطة (٣)

---

١ لعلها لاردة فان هذه هي القريبة من سرقسطة (٢» يقول رومى ان موسى كان قوطيا واسلم طمعا في الترقي فقطع في طريقه شوطا بعيدا في عهد الامير السابق فلذلك كثر اعداؤه ولما رأوا كدر الامير من سقوط القلعة اتهموا موسى بالخيانة ووشوا به لديه قائلين فيه « ذمى مغلوب ابن نصارى خدعه ملك النصاري وحالفه ورشاه » وكان العرب يطلقون اسم الذمى على كل من كان من أصل اجنبي

٣ يؤخذ من كندى ورومى ان موسى كان والي سرقسطة وان اسمه موسي ابن زياد وان خلدون يقول انه كان والى تطيلة واسمه موسى بن موسى

وعزل ابنه لوبيا (١) من ولاية طليطلة

نشأ من هذا العزل أن حالف موسى وابنه نصارى استوريا أو جليقية ونصارى نفارة والبشكنس وكذا حالفا بعض العرب على أن يحفظوا استقلالهم ورفعا لواء العصيان ودخلت المدائن سرقسطة وتطيله ووشقه وطليطلة فى حزبهما ومع هذا لم يدخل فى محالفتهما ملوك الفرنك الذين هم خلف جبال البرانس فاخذ موسى يوجه جيوشه لقتالهم فاجتازوا الجبال وأغاروا على اقاليم الغال واخذ ابنه (لوپوس) يرتب معدات الدفاع عن طليطلة وقد زحف عليها الامير محمد مدبرا مكيدة معروفة ولكنه نجح بها : أخفى جلّ جيشه فى غابة كثيفة مظلمة ليست بعيدة عن طليطلة وأقبل على المدينة فى قليل من الرُّجلان والفرسان على مرأى من اهلها فعاث فى بريتها التى على نهر تاجة الايسر فواليها ماظن فى القادمين الا طليعة جيش بعيد فاراد أن ينتهز الفرصة ويضربها ضربة تشل يد القوة المنتظرة فخرج اليها فى جيش كاف لان يفتك بها فانهزمت أمامه حتى قادته الى وادى سليط وهو وادى الكمين فانقض فرسان قرطبة وهم تحت امرة هشام بن عبدالعزيز حاجب الأمير على الطليطليين من كل جانب وفتكوا بهم حتى غطت أشلاء القتلى ميدان القتال وقد بلغ عددهم من النصارى ثمانية آلاف ومن المسلمين سبعة آلاف وما كانت عاقبة هذا الفوز ان خضعت طليطلة بل ان لوپوس ومن

(١) كذا يسميه روزى هنا ويسميه فى الآتى لوبوس

امكنه الفرار دخلوا المدينةورفضوا الصلح مع ان الأمير وعدهم بالعفو اذا سلموا المدينة بدون شرط ولما رأى أن حصارها يطول عادالى قرطبة سنة ٨٤٠ للهجرة وترك جيشا محاصرا تحت امرة ابنه المنذر ولكونه شابا ترك معه قائدين وهما عبد الملك بن عبد الله ابو مروان وهشام ابن عبد العزيز وقد ابتدأ حصار المدينة من آخر سنة ٨٥٤ واستمر الى السنة التالية

وفى سنة ٨٥٥ أرسل موسى جنودا كثيرة تعزز ابنه المحصور فبهذا صار الحصار غير ممكن الاستمرار فرفعه ابن الامير فى الاشهر الأولى من هذه السنة وقسم جيشه الى ثلاثة أقسام توجهت الى قلعة رباح وطامبيرة وزورته ZURITA مواضع قوية تكتنف طليطلة ومنها كانوا يناوشون المدينـــة ولـكن لوبوس كان يدفع هجماتهم وقد اجتهد فى استرضاء اردن فنجح وحالفه الا أن مساعدته اياه لم تغن شيئا فقد اضطر ان يسلم المدينة سنة ٨٥٩ وقد حضر الامير محمد نفسه

واما موسى فقد استفحل امره وامتدت سلطته على ارض واسعة تتكون من هضبة اسبانيا المتوسطة ومن وادى العذارى وريوزة RIOJA وارجون ARGON وكانت تتاخم من الشرق لا ملاك الفرنك فى جبال البرانس ومن الجنوب والغرب لاملاك المسلمين البـاقين على طاعة الامير الاموى ومن الشمال لاودية النفريين والبشكنس وليزيد فى اتساع ملـكه رغب ان يتحد مع النفريين

فزوج ابنته لمن يعدّونه رئيسا عليهم وكان يسمى (غرسينوس) أو (غرسية بلغة اسبانيا الجديدة) فاحتدم ملك استوريا غيظا من هذا الاتحاد الذى كان عقب ان شقوا عصا طاعته واعلنو استقلالهم فوجه جيشه الي مقاتلتهم فقتل منهم عشرة آلاف من بينهم (غرسـية) وهزم الباقين وجرح موسى ثلاث مرات ولـكنه لم يمت بل فرّ الى اسبانيا الشرقية حيث يرأس ولده اسماعيل سرقسطة وولده (فرتون) تطيلة وحفظ استقلاله بدون تظاهر الى سنة ٨٧٠ فقد مات فيها حين حاصر المنذر سرقسطة كما سيأتى — من مقارنة الحوادث المذكورة فى التواريخ العربية فى هذا الموضع بما يقابلها فى التواريخ الافرنجية نرى مغايرة بينهما فمن الاولى لا يؤخذ ان موسى خرج عن طاعة الدولة الأموية كما ذكر فى الثانية بل ان حروبه نحو الشمال والشرق كانت بأمر الامير محمد ولا يؤخذ منها أيضا ان والى طليطلة كان ابن موسى كما فى كندى وروصى

بينما الامير محمد يطفئ نار الثورة (٢٤٥ هـ) فى طليطلة ويخضعها لسلطان قرطبة اذا الماجوج (المجوس) اعادوا الـكرة على شواطئ اسبانيا فاغاروا أولا على سواحل جليقية GALICE (١) ثم مضوا فى ستين مركبا (٢) الى شواطئ الاندلس فنزلوها وعاثوا فى كورة رية

---

١ روصى ٢ في تاريخ ابن عذارى ان مراكبهم اثنان وخمسون وانهم

وقرطمة CARTAMA ومالقة ورندة وما اجترءوا على التوغل فى داخل البلاد ولكنهم احرقوا المدائن المجاورة للبحر وهدموا كثيرًا من المبانى التى أقامها الامراء المتأخرون على الشواطئ لاسيما القلاع التى كانت مُعَدَّة لمراقبة الطوارئ الخارجية وخربوا جامع الجزيرة الخضراء الذى كان يسمى مسجد الرايات (لان طارقاً جمع فيه زمن الفتح رايات القوم للرأى)

فأرسل الامير فرسانه ليدفعوا غائلة الماجوج فلما رأوهم أقلعوا ومضوا الى شواطئ أفريقية فأغاروا على مدينة ناثور NACHOR (١) ثم عادوا الى ساحل تدمير وانتهوا الى حصن اوريوله (٢) ثم رحلوا الى جزائر ميورقة ومنورقة وفُرْمَنترة FORMENTERA فخربوها (٣) ثم ساروا الى سواحل افرنجة فشتوا بها وعاثوا فيها واصابوا الذرارى والاموال (٤) وبلغوا بنبلونة وأسروا صاحبها غرسيه وفدى نفسه بسبعين الف دينار ثم انصرفوا فلقيهم مراكب الامير فقاتلوهم وغنموا مركبين واستشهد جماعة من المسلمين (٥) ثم أخذوا طريق العودة الى

ـ وجدوا البحر محروسا ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط افرنجة الى حائط جليقية في الغرب وان هذه تلاقت بمركبين من مراكب المجوس في بعض كورياجه فاخذتهما بما فيهما من الذهب والفضة والسبي والعدة

١ رومي (٢) ابن عذارى (٣) رومي (٤) ابن عذارى (٥) ابن خلدون وقوله « واسروا صاحبها غرسية » لايلتئم مع ماسبق من ان غرسية قتل في قتال الاستوريين فلعل المراد انهم اسروا ابن غرسية فقد تشهر الابناء باسم الاب

اسكندناوة ومراكبهم مثقلة بالغنائم الواسعة سنة ٨٦٠ (٢٤٦ للهجرة) (١)

يقول ابن عذارى انهم فقدوا من مراكبهم اكثر من اربعين وان مراكب الامير اصابت منها مركبين بريف شذونة فيهما أموال عظيمة

ان انتصار ارذن على موسى جرّأه على الهجوم على المسلمين في جنوب نهر دويره فهزم والى الحدود زيد بن قاسم واستولى على عدة مدن وحصون منها كوريا وسلمنقة (٢٤٦) وقتل رجال هاتين المدينتين ولم يبق الا على النساء والاطفال وقد ساقهم الى استوريا

فزع الامير محمد من أخذ كوريا وسلمنقة فبعث ابنه المنذر يقود جيشاً عرمرماً ليردّ هاتين المدينتين فسار على شواطئ النهر (٢) حتى التقى باعدائه وقهرهم وقتل منهم عدداً عظيما وفرّق شمل الباقين وردّ المدن والحصون المسلوبة ثم حوّل جيشه الى الشمال الشرقي فعبر نهر الابرة ودخل نفارة حتى بلغ أرض بنبلونة فأتلف ثمارها وحاصلاتها وافتتح ثلاثة حصون منها حصن قشتيل وأصاب فيه بطلا صنديدًا يسمى فرتون بن غرسيه (٣) فساقه الى قرطبة فمكث فيها اسيراً ٢٠

«١» كندى ورومي (٢) يقول كندى وروى ان المنذر قسم جيشه الى خمسة أقسام — المقدمة والجناحين (الميمنة والميسرة) والقلب والساقة اى المؤخرة ولذا يعبر عن مثل هذا الجيش بالخميس (٣) في هامش رومى ما نصه « يقرأ في موروق ان محمدا في سنة ٢٤٧ (٨٦١) أغار على ارض بنبلونة فاخضع قسما عظيما من البلاد وأخذ عدة قلاع وحبس فرتون أخا الملك (اى ملك) وبقي هذا أسيرا في قرطبة نحو ٢٠ سنة

سنة ثم اطلقه الامير ليرحل الى بلده فأقام مختاراً في قرطبة الى ان بلغ ١٣٦ سنة (١)

وفى سنة ٢٤٩ (٨٦٣ ـ ٨٦٤) أغار نصارى جليقية على بلاد المسلمين فنهبوها واتلفوا مزارعها واسروا رجالها فأمر محمد قواده وولاته بجمع الجيوش للجهاد فخرج بهم وانضم اليهم فرسان ماردة واتجه الى جليقية ودخل مدينة (سنكتياك أوسنت ياقب SANCT YAC) (٢) فما استطاع الجلالقة ان يثبتوا على مقاومته بل تقهقروا والتجؤا الى القلاع القائمة على الصخور المنيعة فرجع الامير من طريق (طلبيرة) (٣) وأرسل فرسان ماردة من طريق سلمنقة وواصل سيره مع فرسان قرطبة متجهاً الى طليطلة (٤)

وعلى حدود الفرنك فى بلاد ارجون العليا قامت ثورة هائلة يقود زمامها شقى يعرف بحفصون (٥) نشأ هذا الشقى فى أقليم ريّة من بلاد الاندلس وكان يعيش من كسب يديه ولما أعياه الفقر هجر

---

(١) رومى

(٢) فى هامش رومي ان هذه اللفظة منحوتة من سنكتوس يعقوبوس ومن ذلك أخذ الاسبانيون (سنتياغو) وفى معجم ياقوت سنت ياقب بضم القاف قلعة حصينة بالاندلس اه وربما مدوا حركة القاف فقالوا ياقوب كما في نزهة المشتاق (٣) رومى — وفى كندي من طريق سموره (٤) بعض المؤرخين يذكر هذه الحادثة فى حوادث سنة ٢٤٧ « ٨٦١ — ٨٦٢ » وبعضهم يذكرها في سنة ٢٤٩ « ٨٦٣ — ٨٦٤ » (٥) رومى — في كندي انه يسمى عمر بن حفص ويعرف بابن حفصون

أقاليمه ورحل الى ترجيلة(١) TORDJIELLA مؤملا ان يصادف متسعاً من الرزق فلم يجد طريقاً للكسب الا أن اختلط هو وفئة من الاشرار وعاثوا فى الارض فساداً وجعلوا مهنتهم السرقة وقطع الطريق وكثيراً ما قاوموا الكشاف الذين كانوا يقتفون آثارهم ليبطشوا بهم حتى شهر أمرهم واستولوا على قلعة ببشتر ومع هذا فى سنه ٢٥٠ (٨٦٤) طرد حفصون وعصابته من الانداس ففروا الى حدود الفرنك فى الاودية المتوسطة بين جبال البرانس وكان يسكنها افارقة اغلبهم يهود فانزلوه فى حصن من حصونهم يعرف بروطة اليهود (٢) وكان هذا الحصن عبارة عن قصر منيع على قمة جبل صخرى يكتنفه نهر — ولما بلغ نصارى هذه الجبال شهرة حفصون ونجاحه فى سطواته استرضوه وعاهدوه على شق عصا طاعة الامير

انقضّ جموع حفصون من الجبال كالسيول الجارفة مغيرين على بلاد اسبانيا حتى بلغوا بَرْبشتر(٣) BARBASTER ووشقة وفراجة

---

١ يقول ياقوت انها مدينة بالاندلس من اعمال ماردة بينها وبين قرطبة ستة ايام غربا وبينها وبين سمورة من بلاد الفرنج ستة ايام ملكها الفرنج سنة ٥٦٠

٢ رومى . قال ياقوت (روطة حصن من اعمال سرقسطة بالاندلس وهو حصين جدا على وادى شاون

٣ قال ياقوت بربشتر مدينة عظيمة فى شرقي الاندلس من اعمال بربطانية وقد صارت للروم في صدر سنة ٤٥٢ وبربطانية مدينة كبيرة بالاندلس ايضا يتصل عملها بعمل لاردة وهى فى شرقي الاندلس

مفسدين المزارع مستفزين الاهلين على نبذ طاعة ولاتهم محر بين مدائن وقرى من يأبى الانضمام اليهم محتلين قلاع البلاد الى ان وصلوا مقاطعة لاردة فانضم اليهم قائدها المسمى عبد الملك وسلمها اليهم وتبعه قادة القلاع الأخرى وغيرهم من المسلمين واليهود والنصارى الناقمين من الامير وامتد لهيب الثورة فى زمن قريب على شاطئ نهر ابرة الايسر

كان فى استطاعة والى سرقسطة ان يرد هجمات العصاة ولكن عزله الامير وقتئذ وبقى منتظرا من يخلفه فاغضى عنهم وتركهم يعيثون فى الارض كى يعظم الخطر

لما استفحل الامر محمد امورهم كتب الى ولاته يأمرهم بحشد الجنود وذهب بنفسه الى طليطلة يقود جيشا كثيفا وعهد الى ابنه المنذر بمراقبة حدود جليقية وفى الوقت عينه اجتمع جنود بلنسية ومرسية وتوجهوا تحت قيادة زيد بن قاسم حفيد الامير الى نهر ابرة ليجتمعوا هم وجيش قرطبة على شاطئ النهر ويتجهوا الى مقر حفصون ويستردوا منه الحصون التى استولى عليها

تحقق حفصون انه لا يقوى على دفع قوى الامير العظيمة وانها ستكون الضربة القاضية عليه لا محالة فعمد الى المكر والخداع وارسل اليه رسالة يظهر فيها خضوعه ويقسم باله السموات والأرضين ان كل مافعله لم يكن الا خديعة للمشركين حتى يلتبس عليهم الامر اذا ردّ جيوشه نحوهم وانه اذا ساعده الامير بجيوش بلنسية ومرسية المتجهة

لقتاله فاجأ بلاد الفرنج التى فى جنوب نهر شيقر SEGRE ودمرها وانه لم يزل مسلما صادقا مخلصا

خدع الامير واعتقد صدق رسالة حفصون وماهى الا زور وبهتان ووعده بحكومة ولايتى وشقة وسرقسطة اذا أخضع هذه البلاد لسلطان قرطبة وعندئذ أرسل جيشه الى جليقية لينضم الى جيش ابنه المنذر وأمر حفيده أن يقود جنوده ويساعد حفصون على قتال الفرنج وعاد هو الى قرطبة

اجتمع جيش زيد وجيش حفصون فى وادى « الكَنِت » (١) وقابل الثانى الأول بالحفاوة والاجلال كأنهما صديقان ولكن لما خيّم الظلام ومالت عساكر بلنسية ومرسية الى الراحة ولم يأخذوا حذرهم انقضّ عليهم عساكر حفصون وعبد الملك والى لاردة وفتكوا باغلبهم ولم ينج الا القليل وقد قتل زيد بعد ان دافع دفاع الابطال وكان شابا يبلغ ثمانى عشرة سنة « ٢٥٢هـ ٨٦٦ م »

لما بلغ الامير نبأ هذه الكارثة هلع هلعا شديدا ودعا قواده فى الحال الى حرب مأيمة (٢) ينتقم فيها من العاصى الخائن حفصون واستقدم ابنه المنذر من حدود جليقية ليأخذ بقياد هذه الحرب فقاد عساكره وانضم اليه غيرهم وقلوب الكل تغلى كالمراجل ماؤها الغيظ وحب الانتقام الى أودية العصاة بين صخور روطة اليهود فرجال

---

١ كذا فى كندى ٢ أى تجعل النساء ايامى

حفصون وعبد الملك قاوموا بشجاعة هجوم عساكر المنذر لكن لم تغن مقاومتهم ولا مناعة حصونهم شيئا فقد انتصر جيش قرطبة عليهم والجأ فى اليوم الاول عبد الملك مجروحا ومائة رجل من شجعانه الى هذه الروطة المنيعة وفى اليوم الثانى أحدق المنذر بها من جميع الجهات هو وجنوده وقد أحرق صدورهم غليل الانتقام حتى قهروا قلاعها وجاسوا خلالها وقد دافع عبد الملك دفاع المستميت الى أن سقط مغطى بدمائه فقطع المنذر رأسه وارسله الى قرطبة

وقد أدى سقوط روطة اليهود الى خضوع لاردة وحصون أخرى والتجأ حفصون الى ركن منيع من اركان جبال البرانس بعد أن فرق امواله على احبابه ووعدهم بالعودة اليهم اذا جاد الزمان وعاد المنذر الى قرطبة فاستقبل فيها استقبالا باهرا ومنح الامير شبان الجيش عطايا فاخرة من الاسلحة والملابس والخيل وكان اليوم يوم عيد عند الأهلين سنة ٨٦٦ (٢٥٢)

فى السنة التى انتصر فيها محمد على حفصون (٨٦٦) مات (اُرْدُن) بعد أن حكم ماينيف عن ١٦ سنة وخلفه ابنه (اذ فنش) وهو ابن ١٨ سنة فحكم ٤٥ سنة كذا فى رومى وفى ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٥٤ ان أردن بن ردمير صاحب جليقية مات وولى مكانه اذفونش وهو ابن اثنتى عشرة سنة ولا يخفى مافى الروايتين من المغايرة فى تاريخ الوفاة وفى عمر الملك الجديد وفى ابن الاثير فى حوادث هذه

السنة ايضا أن اهل ماردة عاودوا الخلاف على محمد صاحب الاندلس فسار اليهم وحصرهم وضيق عليهم فانقادوا فنقلهم وأموالهم الى قرطبة وهدم سور ماردة وفى تاريخ ابن عذارى انه نقل فرسانهم عبد الرحمن ابن مروان وابن شاكر ومكحولا وغيرهم بعيالهم الى قرطبة وولى عليها سعيد بن عباس القرشي وأمر بهدم سورها

وفى سنة ٨٦٨ حاصر بنبلونة عاصمة نفارة سَرِيّة من المسلمين يقودها اسحاق بن ابراهيم العقيلي وزيد بن رستم حتى استولت على بعض ابراجها لكنها لما رأت اقبال كثير من جنود الفرنك لانقاذها اضطرت الى تركها والانسحاب الى نهر ابرة وكان الحامل على ارسال السريّة لحصار بنبلونة حب الانتقام من واليها ابن غرسية صهر موسى فانه كان يساعد رؤساء اسبانيا الشرقية الخارجين عن طاعة الامير

وفى سنة ٨٦٩ جمع الامير محمد جنود الاندلس ووجّهها تحت قيادة ابنه المنذر الى سرقسطة فان واليها موسى كان يحفظها مستقلة عن قرطبة فلما جاءها المنذر وقد اغلق الوالى ابوابها حاصرها ٢٥ يوماً وحرصاً على الوقت من أن يضيع سدى دخل نفارة ونهب ارضها وكسح قطعاً منها وعاد الى حصار سرقسطة وبقى فى اسبانيا الشرقية الى سنة ٢٥٧ (٨٧٠) وفيها مات موسى فألقت المدينة مقاليدها الى المنذر — ومع موت موسى وفتح سرقسطة لم تخشع طليطلة بل ثارت فى

هذه السنة وانتخبت عبد الله بن لبّ بن موسى والياً عليها وكان قد فارقها منذ سقوطها سنة ٨٥٩ واستوطن استوريا وكان قائداً شجاعاً خبيرا بتصاريف الحروب — لما علم محمد بعصيان طليطلة جمع جنود الاندلس وقادهم اليهـا وكان أهلوها متأهبين للمقاومة والدفاع عن انفسهم وهم فيها ولكن رئيسهم لما علم كثرة جنود قرطبة لم يرد أن يجعل المدينة عرضة للخطر بالبقاء بين حياطها فأمر قواده بالخروج الى ضاحية المدينة ثم بعث رسلا الى أهليها يشيرون عليهم بالخضوع الى الامير فما كان من العامة إلّا ان أرادوا الفتك بالمبعوثين لكنهم تشاوروا فى الامر واتفقوا أخيراً أن يسلموا المدينة على شرط أن يتجاوز الامير عن الماضى ولا يبحث فيه (٨٧١) — بعد ان أقام الامير بعض ايام فى طليطلة يوطّد دعائم السلام فيها عاد الى قرطبة فقوبل بفرح عظيم

وفى سنة ٢٥٩ (من نوفمبر سنة ٨٧٢ الى اكتوبر سنة ٨٧٣) أغار المنذر على أرض جلّيقية وقاتل أهلها والدهر تارة له وطوراً عليه فعلى ممرّ نهر سهجون المتجه الى نهر دويره كانت بينهما وقعة دموية قتل فيها كثير من فرسانه الابطال ومع ذلك كانت خسارة الجلالقة فادحة جداً حتى انهم قضوا اكثر من احد عشر يوماً فى دفن جثث موتاهم — وبقى المنذر على الحـدود طول سنته يأتى بأعمال حربية غريبة غير مفترّ فى أغلب أيامه عن مناوشة اعدائه الشجعان الذين

كانوا يصدّون هجماته العنيفة ـ وفى آخر هذه السنة رجع الى لوزيتانيا

وفى سنة ٢٦٠ (٨٧٤) حلَّ بأرض اسبانيا جدب شديد ولم يكن قاصراً عليها بل عمَّ أفريقية ومصر والشام وجزيرة العرب حتى ان مكة أم القرى هاجر منها أهلوها ولم يبق خادم فى الكعبة فأغلقت (١) : جفّت المنابع والغدران فلم تأت الارض بثمراتها فعمّت المجاعة وانتشرت الامراض وكثر الموت وكان هذا الجدب أفظع من جدب سنة ٢٤٤

وفى سنة ٢٦١ جمع ابن مروان رجاله وهرب بهم من قرطبة وقصد قلعة الحنش فى جنوب ماردة فملكها وامتنع بها فغزاه السلطان محمد وحصره ثلاثة اشهر حتى اضطر الى أن يأكل لحم الخيل ويطلب الامان ويسلم المدينة فآمنه السلطان وأباح له أن يسكن بطليوس فاستوطنها . ولم يرجع عن عصيانه فقد ضمَّ عصابته الى عصابة اخرى يقود زمامها من يسمى (سعدون) ودعا الى جيشه كل من كان على شاكلته من مولدى ماردة وغيرها ودعا مواطنيه الى دين جديد وَسَط بين الاسلام والنصرانية وحالف أذفونش الثالث ملك (ليون) (٢) وهو بالطبع حليف كل من يثور على السلطان وأخذ يعيث فى البلاد (٣) فأرسل اليه السلطان جيشا تحت قيادة وزيره هاشم سنة ٢٦٢

---

١ رومى ٢ لهذه المحالفة لقب ابن مروان بالجليقى
٣ دوزي

فلما سمع الجليقى خبر هذا الجيش أرسل سعدون الى حليفه اذ فونش يطلب منه مددا ولم ينتظر فى بطليوس بل توجه الى حصن (كركى) (١) وانضم اليه أهل ماردة فجاء هاشم وعسكر بالقرب من هـذا الحصن واحتل أحد ضباطه حصن منت شلوط وكان سعدون قد اقترب منه بالمدد واشاع انه فى قلة فكتب الضابط الى هاشم يخبره بقلة المـدد بناء على الاشاعة الـكاذبة فقد كان غرض سعدون منها التغرير فرأى هاشم أن قد سنحت الفرصة فى سعدون فبادر بالخروج فى خيل قليلة لمقابلته فتركه سعدون يوغل فى البلاد حتى دخل مضيقا كان فيه اعداؤه مختبئين خلف الصخور فهاجموه على غرة وكانت ملحمة هائلة أصيب فيها هاشم بعدة جروح وقتل كثير من فرسانه واسر وسيق الى ابن مروان فاكرمه وأحسن اليه وأرسله الى ملك ليون سنة ٢٦٣ فطلب فيه فدية عظيمة — وبعد سنتين اطلق سبيله وقد دفع السلطان عنـه بعض الفدية وترك هاشم أخويه وابنه وابن أخيـه رهائن على باقى الفدية كذا يؤخذ من دوزى وابن عذارى

لما علم السلطان باسر وزيره هاشم أغزى ابنه المنذر جليقية سنة ٢٦٣ (٨٧٦ — ٨٧٧) وجعل طريقه على ماردة فاحتل قائده الوليد

١ يقول بعض المؤرخين (كركر) والصحيح الاول قال ياقوت « كركى » بالتحريك اسم حصن من اعمال (أوريط) بالاندلس له ولاية وقرى — راجع هامش دوزى ج ٢ ص ٨٥ ١

ابن غانم بطليوس بعد أن أجلى عنها ابن مروان والجأه الي بلاد العدو وغنم المنذر غنائم واسعة واسر كثيرا من اعدائه عقب قتال صعب المراس فقد فيه كثيرا من جنوده منهم يحيى بن الحجاج وكان فارسا شجاعا مشهورا بسياحاته الى الشرق كذا يؤخذ من ابن عذارى وكندى ويؤخذ من رومى أن اذفونش فى هذه السنة صد هجمات المنذر واستولى على حصون ومدن اجلى عنها المسلمين واسكنها قومه النصارى وأنه مازال يصد هجماته حتى الجأه الى حدود لوزيتانيا الجنوبية

قال ابن خلدون انتقض على الامير محمد عبد الرحمن بن مروان الجليقى فيمن معه من المولدين وساروا الى التخم ووصل يده باذفونش ملك جليقة فسار اليه الوزير هاشم فى عساكر الاندلس سنة ٢٦٣ فهزمه عبد الرحمن وحصل هاشم فى اسره ثم وقعت المراودة فى الصلح على أن ينزل عبد الرحمن بطليوس ويطلق الوزير هاشما فتم ذلك سنة ٢٦٥ ونزل عبد الرحمن بطليوس وكانت خربة فشيدها واطلق هاشما بعد سنتين ونصف من أسره ثم تغير اذفونش لابن مروان ففارقه وخرج من دار الحرب بعد أن قاتله ونزل مدينة انطانية بجهات ماردة وهى خراب فحصنها وملك ماوليها من بلاد (ليون) وغيرها من بلاد الجلالقة واستضافها الى بطليوس اهـ

فى هذه الاثناء ثار الخائن عمر بن حفصون المستظل فى حماية نصارى الفرنك وبمساعدتهم استولى على عدة قلاع منيعة على نهر

شيقر SEGRE (كذا يؤخذ من كندى ورومى)

وفى سنة ٢٦٤ بعث الامير محمد ابنه المنذر ثانية الى بلد بنبلونة فمر بسرقسطة وقاتل أهلها ثم تقدم الى تطيلة وعاث فى نواحيها وخرّب بلاد بنى موسى ثم مضى لوجهه الى بنبلونة فدوخها ورجع . كذا فى تاريخ ابن خلدون نقلا عن ابن الاثير

عاد المنذر الى جليقية وصرف سنة ٢٦٥ كلها (من سبتمبر سنة ٨٧٨ الى اغسطس سنة ٨٧٩ فى الحدود بين نهر دويرة والجبال ومعه جيوش ماردة وطليطلة وحاصر مدينة (سمّورة) التى كان اخذها أذفونش فى احدى الغزوات السابقات ـ كادت المدينة تسقط فى يد المنذر لولا انه علم بمجىء أذفونش يقود جيشاً كثيفاً لانقاذها فأسرع يتأهب لمحاربته

فى هذا الموضع تختلف روايات المؤرخين فى حوادث المنذر واذفونش والذى يفهم من مجموعها

ان جيشى المنذر وأذفونش بقيا على الحدود الى سنة ٢٦٧ يصدّ كلاهما هجمات الآخر وانه فى شوال هذه السنة (مايو سنة ٨٨١) زلزلت الارض زلزالاً هائلا هدم المنازل والقصور الجميلة ودكّ الجبال وحطّم الصخور وانشقت الارض وابتلعت قرى وروابى وجَزَر البحرُ من شاطئ ومدّ من آخر وازدردت المياه الجُزر وطغت على الاعالى وفرّ الناس من المدن الى الصحارى وانسلت الطيور من أوكارها الى

السماء وهبّت الوحوش مذعورة من أرباضها الى الخلاء

هذا الزلزال سبقه خسوف القمر فى سنة ٢٦٦ او فى التى قبلها وكانت هذه الحوادث تؤثر فى عقول العامة وتفزعهم وتجعلهم يتطيرون من حكومة الامير محمد حتى أن عساكر المنذر كانوا يمتنعون من القتال وهذا كان يقشع عن عقولهم سحب هذه الاوهام ويقنعهم بأن الخسوف والزلزال من حوادث الطبيعة التى لا علاقة لها بعمل الانسان وليست خاصة بالمسلمين بل تعم النصارى وتشمل الانسان والحيوان

عقب الزلزلة كانت مهادنة بين الفريقين ثلاث سنين. يؤخذ من رومى (ان مجئ اذفونش صرف المنذر سنة ٢٦٥ عن حصار (سمّورة) وانه وقعت بينهما واقعة فى مكان يسمى (پلْفُوَرْيا POLVORARIA) على نهر (أرْبكوس URBICUS) وانه عقب هذه الواقعة كانت الهدنة بين المسلمين والنصارى ثلاث سنين وكان الواسطة فيها القائد أبا الوليد وانه عند فراغ الهدنة يوم ٢٢ شوال سنة ٢٦٥ (كذا) (٢٥ مايو سنة ٨٨١) زلزلت الارض زلزالها — وأقول من الحساب يتبين أن مايو سنة ٨٨١ يقابل شوال سنة ٢٦٧ فيظهر أن رقم ٥ فى كلام رومى محرف عن ٧ فى السنة العربية وبهذا التصحيح يتحد كندى ورومى والتواريخ العربية فى ان حادثة الزلزلة وقعت سنة ٢٦٧ للهجرة — ويذكر كندى المهادنة بعد الزلزلة لا قبلها وأنها كانت بناء على رضا الملك محمد وأن الملك اذفونش ارسل سفراء الى قرطبة

يصحبهم فرسان من جيش المنذر لاجل عقد الهدنة

وفى تواريخ ابن الاثير وابن خلدون وابن عذارى ان الامير محمدًا امر فى سنة ٢٦٦ بانشاء مراكب فى نهر قرطبة ليدخل بها الى البحر المحيط ويأتى جليقية من ورائها فلما فرغت وكملت برجالها وعدّتها توجه بها الى البحر الرعيطى المعروف بابن مغيث فأصابها الريح وتقطعت فلم يسلم منها الا القليل

وفى هذا دلالة على انه لم يكن مهادنة فى السنة التى تلتها سنة الزلزلة كما يقول رومى

وفى سنة ٢٦٧ ثار عمر بن حفصون بحصن بُبَشْتَرْ من جبال مالقة فزحف اليه عامر عامل تلك الناحية لكنه انهزم واسلم قبته فاخذها ابن حفصون وقوى أمره وهو أول رواق ضربه فاستكن اليه أهل الشر وعزل الامير عامرا من كورة ريّه وولاها عبد العزيز بن عباس فصالحه عمر فطلب العامل كل من له أثر فى مساعدة ابن حفصون فأهلكه وفيهم من أبعده فاستقام امر الناحية

يؤخذ من تواريخ ابن الاثير وابن خلدون وابن عذارى أن هذه الثورة أول خلاف عمر بن حفصون على امارة الاندلس ولم يذكروا عصيانا لابيه حفصون مع ان رومى وكندى ينسبان الي حفصون تارة والى عمر بن حفصون تارة اخرى ثورات قبل سنة ٢٦٧ فى اقليم (ريّة) وفى شمال نهر (ابره) — راجع ماسبق فى حوادث سنة ٢٤٩ وما بعدها

ويؤخذ من دوزى انه كان يوجد فى دسكرة قريبة من حصن (أوت) (يقال له اليوم زناتة YZNATE) على شمال مالقة الشرقى زراع يسمى حفصاً من سلالة شريفة فان جده الخامس المسمى (اذفونش) القوطى كان يلقب ب (الكونت) - قد الجأت تقلبات الدهر جدّه حفصاً فى عهد الحكم الى أن يهاجر من (رنده) ويستوطن بالقرب من الحصن المذكور وأن يظهر الاسلام ويخفى فى قلبه النصرانية دين اسلافه - جمع حفص ثروة من كسبه واقتصاده وكان جيرانه الاقل منه غنى يحترمونه ويبجلونه حتى كانوا يسمونه حفصون بزيادة واو ونون على اسمه علامة على تشريفهم اياه ولم يكن ما يكدر صفو عيشه الا سوء سلوك ابنه عمر حتى انهذا فى يوم شاجر احد الجيران بدون سبب معقول ورماه على الارض قتيلا فاضطر حفصون ان يهاجر بابنه من الدسكرة خوفاً عليه من القتل ويستوطن جبال رندة فى سفح جبل (بُبَشتَر) - أثرت المعيشة بين الجبال والغابات والمضايق غير المطروقة فى طباع الشاب عمر فدفعه شقاء العيش الى أن صار لصاً قاطع طريق وأوقعه اعتداؤه بين أيدى الحكومة فجلده والى المقاطعة ولما يئس والده من تثقيفه وأعيته الحيل فى امره طرده من منزله - ولما لم يجد عمر ما يعيش به فى اسبانيا جاز البحر قاصداً أفريقية حتى وصل (تاهرت) ودخل صانعاً عند خياط يعرفه قليلا لانه ولد فى كورة ريّة - دخل شيخ هرم دكان الخياط وأوحى الى عمر ان يترك

الابرة و يأخذ السيف ويرجع الى بلده فانه سيكون خصما لدودا للامويين وسيحكم أمة عظيمة . وقع كلام الشيخ الهرم في فؤاد الشاب عمر كوحي الهي فرجع فى الحال الى اسبانيا ولم يجرأ على مقابلة أبيه بل قابل عمه وقص عليه حديث هرم تاهرت فشجعه على أن يثور ووعده ان يساعده بما يستطيع : جمع اربعين شابا من رستاقه وعرض عليهم أن يكونوا حزبا لابن اخيه وتحت امرته فقبلوا جميعا فاسكنهم عمر معه في جبل بُبُشْتر سنة ٨٨٠ أوسنة ٨٨١ وأخذوا يقطعون الطريق ويخطفون البهائم ويفرضون ضرائب فادحة على المزارع المنفردة — استفحل أمر عصابة عمر وتفاقم شرها وكانت تهاجم المدن فهاجمها والى رية بكل جنوده ولكنه كسر وانهزم وترك خيمته العظيمة للعصاة فنسب السلطان هذه الكسرة الى عدم أهلية الوالى فعزله و ولى مكانه غيره فهادن الوالى الجديد حامية بُبَشْتر

و بعد سنتين أو ثلاث استنزلها هاشم أول الوزراء من حصنها وقادها الى قرطبة فلما رأي السلطان في ابن حفصون ضابطا شهما وفي رجاله جنودا أبطالا رحب بهم وعرض عليهم ان ينتظموا فى جيشه فلم يسعهم الا القبول

وفي صيف سنة ٨٨٣ لما توجه هاشم لقتال محمد بن لب رئيس بني موسى واذفونش ملك ليون رافقه عمر وقام بأعمال استمالته اليه ودعته الى شكره ولكن لما عاد عمر الى قرطبة اشتكى من ابن غانم

محافظ المدينة فان هذا كان يكره هاشما ولذا أساء معاملة عمر فهرب ورجاله الى حصنهم المنيع سنة ٨٨٤

لما عقدت الهدنة بين المنذر واذفونش سنة ٢٦٧ خاف ابن حفصون من أن يهاجمه المنذر فطلب من الفرنك ومن سكان جبال (السُبرْتات) أن يمدّوه بما استطاعوا من الجنود فاجتمع لديه أقوام لا يحصون عددا فاخذوا يتدفقون كاسيول من الجبال الى البلاد حتي بلغوا شواطئ نهر (ابرة) فقابلهم واليا سرقسطة ووشقة عند تطيلة فانهزما وطلبا المساعدة من قرطبة فجمع الملك محمد قواه من فرسان ورُجْلان ورتب جيشا عظيما جعل في مقدمته ابنه المنذر وفي الميمنة ابن عبد الرؤوف وفي الميسرة ابن رستم وفي الساقة ابنه أبازيد والى شدونة وجعل نفسه في القلب [1] ولما اكتملت معدات القتال جد هذا الخميس في المسير نحو الاعداء وهؤلاء لما رأوا تلك القوة الكبيرة قد اقتربت منهم فزعوا وتقهقروا مسرعين الى حصونهم ولكن حميّة المسلمين سهلت لهم اقتحام الجبال فكانت لديهم كالسهول في المسير فاقتفوا آثار أعدائهم عاقدين النية على القتال مهما كانت الصعوبات . ففي صباح يوم اكتشف المنذر معسكر الفرنك على مقربة منه وهؤلاء وجدوا ان لا سبيل الى النجاة ولا مناص من العراك فالتقى الجمعان واقتتلا قتال الهالكين وحفظ كلاهما مركزه

(١) — رومي ص ٤٠ ج ٤

معظم اليوم لكن امكن جيش قرطبة ان يهزم جيش الثقاريين وقد قتل ملكهم غرسية [١] وفرسانه وجرح عمر بن حفصون جروحا بليغة وغطّت اشلاء قتلاهم الدامية ساحة الوغى وكانت هذه المعركة في صيف سنة ٢٦٩ وتعرف بمعركة (ايبار Aybar) لانها كانت في واد يعرف بذلك على بعض فراسخ من بنبلونة · بقي الامير المنذر على الحدود الى فصل الشتاء وعاد الملك محمد الى قرطبه وكان يوم دخوله فيها يوم عيد عند الاهلين كذا يؤخذ من كندى وروحي·

لم تكن واقعة (ايبار) حاسمةً الخلاف في أسبانيا الشرقية فان ابن حفصون وان انسحب من المعركة الى طود الجنوب مصابا بجروح بليغة تؤدي الى هلاكه [٢] لكنّ حزبه مازال باقيا وبنى موسى يحكمون على شواطئ نهر (ابرة) فاسماعيل بن موسى فى سرقسطة وأخوه فرتون بن موسى فى تطيلة وكانا صديقين لاذفونش ملك استوريا · لهذا بقى المنذر فى الحدود يتعقب العصاة ويخمد نيران ثوراتهم فحاصر سرقسطه وتطيلة وصالح حفيد موسى المسمّى محمد بن اب بن موسى وكان هذا على غير وفاق مع عمّيه اسماعيل وفرتون وبهذه المصالحة تمكن المنذر من أن يهاجم بلاد استوريا من جنوبها الشرقي فان ابن اب ساعده بالخيل والرجال وقد عاد الجيش

---

(١) ابن بنت موسى وكان قتله في السنة الثانية من ملكه

(٢) قيل انه مات فى سنة ٨٨٣ لكن سيأتي ان عمر بن حفصون يموت فى عهد الناصر

الاسلامي الى قرطبة فى سبتمبر وكان قدغادرها فى مارث سنة ٨٨٢ كذا يفهم من رومى [١]

ويؤخذ من ابن الاثير وابن خلدون وابن عذارى ان الأمير محمدا بعث ابنه المنذر سنة ٢٦٨ لقتال أهل الخلاف فقصد سرقسطة وحاصرها وعاث فى نواحيها وفتح حصن روطة وأخذ منه عبدالواحد الروطى وكان أشجع أهل زمانه ثم تقدم الى دير بروجة [٢] وفيه محمد ابن لب بن موسي وقصد مدينة لاردة وقرطاجنّة وكان فيها اسماعيل ابن موسي فحاربه فاذعن اسماعيل بالطاعة وأعطى رهائنه ثم تقدم الى آلبه والقلاع وفتح حصونا ورجع

هذه الغزوة هى التى كان فيها واقعة (ايبار) لكن يظهر أنها بدئت سنة ٢٦٨ وانتهت في سنة ٢٦٩ للهجرة وكانت كلها في سنة ٨٨٢ للميلاد ولا يخفى ما فى الروايتين الافرنجية والعربية من المغايرة فالاولى تذكر أن محمدا سار بنفسه في هذه الغزوة وان اسماعيل بن موسى كان في سرقسطة وأخاه فرتون بن موسى في تطيلة وان المنذر

---

(١) ولم يعين رومي مدينة ابن لب لكنه قال عند افتتاحه سرقسطه أخذ عمه اسماعيل ابن موسى وابن عمه اسماعيل بن فرتون أسيرين في معركة في موضع جبلى على خمسة أميال من المدينة وقادهما الى حصن (بكاريا Beccaria) المختص به وانظر أين هذا الحصن

(٢) كذا فى ابن خلدون بالباء الموحدة وفي ابن الاثير بالتاء المثناة فوق ولعل الاول يقصد (برجة) على شمال نهر (ابرة) والثانى (ترجونة) على البحر المتوسط فحرر

حاصرها بدون كبيرجدوى — ولا تُعَيّن مدينة ابن لب

والثانية تذكر أن محمـدا سيّر ابنه المنذر فيها وان اسماعيل كان في قرطاجنّة وأنه أذعن بالطاعة للمنذر وأعطاه رهائنه وان ابن لب كان في دير (تروجة) أو (بروجة) [1]

والذي يستخلص من الروايتين مع مراعاة وضع البلاد الجغرافي ان المنذر سار فى سنة ٨٨٢ الى الثغر الاعلى لاخضاع أهل الخلاف فأخضع بنى موسى على شواطئ نهر (إبرة) ثم حارب النقاريّين وكسرهم بعد أن قتل ملكهم (غرسية) ابن بنت موسى وجرح عمر ابن حفصون ثم هاجم بلاد استوريا من هـذه الجهة وقد ساعده حليفه محمد بن لب بن موسى بخيله ورجله . ثم عاد الى قرطبة في سبتمبر سنة ٨٨٢

ويؤخذ من رومى أن ابن لب بعـد أن فتح سرقسطة وتطيلة في شتاء سنة ٨٨٢ وأخذهما من عمّيه رأى نفسه أميرا على امارة عظيمة على نهر (ابرة) الأعلى فحدثته نفسه بالاستقلال فجاهر بعصيان قرطبة وبذلك عادى ملك استوريا وملك قرطبـة معا فالأول أمر بعض قادته أن يقاتلوه فكان بينه وبينهـم وقعات ادّته الى طلب الصلح

(١) ترجونة أو برجة — انظر الهامش السابق والرواية الآتيـة عن غالب ابن حفصون والظاهر ان كلمة (قرطاجنة) مقحمة فانها ليست من الثغر الاقصى الذى كانت فيه الغزوة بل هي في الشرق نحو الجنوب كما يرى ذلك في المصور (الخريطة) وأن ابن الاثير يقصد ان اسماعيل كان في لاردة

من اذفونش — وفى ربيع ٨٨٣ حاصر جيش المنذر وابى الوليد سرقسطه ففتحها بعد يومين وعاث فيها وفى ضواحيها وفى جميع بلاد بنى غازى أى بنى موسى بن زياد ثم جاس خلال استوريا حتى دخل حدود (ليون Léon) في شهر أغسطس سنة ٨٨٣ وفعل في البلاد ما فعله في المرة السابقة ولكنه اضطر أخيرا الي مغادرتها راجعا الى (قسطيلة Castille) وهناك بقي القائد أبوالوليد يخابر ملك استوريا في الصلح حتى أن هذا أرسل فى شهر سبتمبر سنة ٨٨٣ الى ملك قرطبة رسولا اسمه (دلقديوس Dulcidius) وكان قسَّ كنيسة طليطلة ليخابره فى شروط الصلح ويظهر انه ماتم الاتفاق عليها الا فى ديسمبر هذه السنة وان من هذه الشروط ان يكون الفاصل بين المملكتين نهر دورو وبهذا دخلت المدن التي على شماله ومنها مدينة (سمورة) في مملكة استوريا وقد استمر الصلح بين الامتين زمنا فلم يقع بينهما حرب فى المدة الباقية من حكم محمد وهى نحو سنتين ونصف ولا فى مدة حكم ابنيه المنذر وعبد الله وقد حكم الاول نحو سنتين والثاني الى سنة ٩١٣

وفى سنة ٢٧٠ (٨٨٣) أى السنه التى تم فيها الصلح دعا الملك محمد أمراء أسرته ووزراءه وبطانته وولاة الاقاليم الى قرطبة وأعلن في مجلسهم ولاية العهد لابنه المنذر وانه هو الذى يحمل تاج الملك بعد وفاته وقد حلفوا له جميعا يمين الطاعة

يروى ان عمر بن حفصون مات من جروحه في سنة ٨٨٣ فجدّد ابنه غالب Calib عهد أبيه مع سكان جبال الفرنك وقد حرّكهم حبّ الانتقام الى الأخذ بالثار فنزلوا معه من الجبال التى تخلف (جاقة) حيث كانت أمنع حصن لابن حفصون الى أرض (برجة Borja) وهناك شنّوا الغارة على شاطيء نهر إبرة منادين بأن غالب بن حفصون هو ملك هذه البلاد . لما بلغ قرطبة نبأ هذا العاصى وأتباعه أمر الأمير المنذر الوليد بن عبد الحميد بجمع فرسان طليطلة وقادهم الى مثار العصيان متخذا طريق (بلنسية) لان لهيب الثورة امتد على طول شاطىء نهر ابرة كله . لما علم العصاة بمجيء الامير لجؤا الى جبالهم . عسكر الامير في طرطوشة وجعلها مركز أعماله الحربية وسيّر ابن عبد الحميد ليدافع عن التخوم ويراقب حركات الثائرين فقاتلهم اثناء هذه السنة والسنة التالية ٢٧١ (٨٨٤ — ٨٨٥) وفاز عليهم واسترد منهم الحصون التى على نهر شيقر ونهر (سنقه) والتى على الانهار المتجهة نحو نهر ابرة لكنه في آخر سنة ٢٧٢ (مايو أو يونيه سنة ٨٨٦) اثناء ما كان يقتفي أثر عصابات مهزومة من نصارى الفرنك لم يأخذ الحيطة فوقع في كمين وأصبح جيش المسلمين محصوراً في وادضيق عند حصن (شيرس Xeriz)[١]

---

(١) قال ياقوت شيرس حصن حصين ومعقل مكين من أعمال تاكرنا لكن سياق الكلام يدل على أن هذا الحصن في الشمال فحرر

وقد جرح القائد ووقع هو وكثير من رجاله أسرى في أيدى العدوّ والباقون من الجيش انهزموا والتجأوا الى المدن المجاورة

لما بلغ المنذر نبأ هذه الواقعة حزن كثيرا وأرسل رسلا يفدون ابن عبد الحميد ففدوه بمال كثير كذا يؤخذ من كندى وروى

في التواريخ العربية السابقة ان عمر بن حفصون لم يمت الا فى سنة ٣٠٦ فى عهد عبد الرحمن الناصر ولم يذكر فيها ابنه غالب ولا الوليد بن عبد الحميد وأسره عند حصن شيرس ويؤخذ منها ان هاشم ابن عبد العزيز غزا سنة ٢٧٠ كورة (ريّة) واستنزل عمر بن حفصون من جبل (بُبَشْتَر) [1] وقدم به الى قرطبة فاكرمه الامام وأن هاشم بن عبدالعزيز سار سنة ٢٧١ الى سرقسطة وفيها محمد بن لب ابن موسي فملكها وأخرج منها محمدا فصالحه وأطاع وكان فى عسكره عمر بن حفصون فلما عادوا الى قرطبة هرب عمر وقصد ببشتر مخالفا

وفى سنة ٢٧٢ سار هاشم الى ابن مروان الجليقى وحاصره بحصن منت مولُس [2] ثم رجع عنه فاغار ابن مروان على اشبيلية ثم نزل منت شلوط أو سليط Salud فامتنع فيه وصالح عليه الأمير

(١) قال ياقوت ببشتر حصن منفرد بالامتناع من أعمال (رية) بالاندلس بينه وبين قرطبة ثلاثون فرسخا وربما اشبعوا الباء الثانية فقالوا بباشتر

(٢) قال ياقوت (مولس) بالسين المهملة في آخره حصن من أقليم من أعمال طليطلة وفي ابن خلدون مولن بالنون فى آخره ويظهر انه محرف عن مولس

واستقام على طاعته الى أن مات [١] وفى يونيو سنة ٨٨٦ سار المنذر ليهاجم صاحب الحامة فانه كان قد حالف ابن حفصون فاسرع هذا الى مساعدة حليفه فحصرهما المنذر فى الحامة مدة شهرين الى ان كادت تنفد أقوات المدينة فعزم المحصورون على الخروج من المدينة واقتحام جيش قرطبة فنالت عمر جراح وشلّت يده و بعد أن فقد كثيرا من رجاله التجأ الى حصنه . بينما المنذر مسرور بانتصاره اذ جاءه نبأ وفاة والده ليلة الخميس الثامن والعشرين من صفر سنة ٢٧٣ [٢] (٤ أغسطس سنة ٨٨٦) [٣] لنحو خمس وثلاثين سنه من امارته فاسرع المنذر فى العودة الى قرطبة . قال ابن عذاري كان الأمير محمد فصيحا بليغا عظيم الأناة يؤثر الحق وأهله لا يسمع من باغ ولا يلتفت الى قول زائغ وكان عاقلا على أخلاق جميلة ومكارم حميدة وذا بديهة وروية وكان أعلم الناس بالحساب وفيا لمواليه فى أنفسهم وفى أعقابهم لا يكادح عنده كادح في شيء عن أحدهم فَيَنْسِمه أو يُنْسِمه وكان محبوبا فى جميع البلدان وكان محمد بن أفلح صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته الا عن رأيه وأمره وكذلك بنو مدرار بسجلماسة وكان فرذلند ملك افرنجة يسترجح عقله فيهاديه

---

(١) ابن خلدون (٢) صفر هذه السنة ٢٩ يوما فقط (٣) يقول ابن عذارى أنه كان مع المنذر في هذه الغزاة القائد محمد بن جهوروان صاحب الحامة هو حارث بن حمدون من بني رفاعة

☆(٦ – المنذر بن محمد)☆

٢٧٣ — ٢٧٥ هـ

ولى امارة الاندلس بعد وفاة أبيه محمد وكان ابن أربع وأربعين سنة فقد ولدته أمه (أثل)[١] سنة ٢٢٩ للهجرة (٨٤٤ للميلاد) وبايعوه يوم الأحد لليلتين[٢] خلتا من ربيع الاول سنة ٢٧٣ (٧ أغسطس سنة ٨٨٦) وكنوه بأبي الحكم ولم تطل مدته بل أقام في الملك نحو سنتين فيهما قتل وزير أبيه هاشم بن عبد العزيز في شوال سنة ٢٧٣ وقاتل ابن حفصون وأشياعه ومات وهو محاصره في صفر سنة ٢٧٥ وقد اختلف المؤرخون في حوادث المنذر فنهم من قال ان قتاله لابن حفصون وأشياعه كان في الجنوب وان هذا خدعه وأخذ منه مائة بغل في أول حصاره لقلعته وان المنذر مات اثناء حصاره الاخير لهذه القلعة وهي حصن بُبَشتر ومنهم من قال ان القتال كان في الشمال وأن ابن حفصون خدع هاشما وهو يحاصره في طليطلة وأخذ منه البغال وان المنذر قتل وهو يقاتل أحزاب ابن حفصون في قلاعهم على شواطىء نهر التاجة وأخوه عبد الله يحاصر طليطلة

---

(١) كذا ذكر ابن عذارى اسم امه وأيل كسيد الوعل أو الأروي ج أيايل

(٢) قال ابن الاثير بويع له بعد موت أبيه بثلاث ليال اه أى بليلة الجمعة من صفر وليلتي السبت والاحد من ربيع الاول

وتفصيل هذا الاجمال نستخلص من كلام المؤرخين ما يأتى :

قال ابن خلدون ولى بعد محمد ابنه المنذر فقتل لاول ولايته هاشم بن عبد العزيز وزير أبيه وسار في العساكر لحصار بن حفصون فحاصره بحصن بُبَشتر سنة أربع وسبعين وافتتح جميع قلاعه وحصونه وكان منها رية وهى مالقة وقبض على واليها من قبله عيشون فقتله ولما اشتد الحصار على ابن حفصون سأل الصلح فاجابه وأفرج عنه فنكث فرجع لحصاره وصالح ثم نكث مرتين فاقام المنذر على حصاره وهلك سنة ٢٧٥ لسنتين من امارته فولى مكانه أخوه عبد الله وقفل بالعساكر الى قرطبة وقد اضطربت نواحى الاندلس بالثوّار فقلّ الخراج لامتناع أهل النواحى من الاداء وكان خراج الاندلس قبله ثلثمائة الف دينار مائة الف منها للجيوش ومائة الف للنفقه فى النوائب وما يعرض ومائة الف ذخيرة ووفرا فانفقوا الوفر فى تلك السنين

ويؤخذ من ابن عذارى ان أهل قرطبة كانوا يسعون في هاشم لدى المنذر ويؤوّلون كلامه للايقاع به حتى انه لما أنشد عند مواراة الامير محمد

أعزّي يا محمد عنك نفسي أمين الله ذا المنن الجسام
فهلاّ مات قوم لم يموتوا ودوفع عنك لى كاس الحمام

تأولوا أنه يريد بقوله « قوم لم يموتوا » المنذر وما زالت تدب

بينهما عقارب السعاية حتى أمر المنذر بسجن هاشم وكتب هذا الى جاريته وهو فى السجن

وانى عدانى أن أزورك مُطْبِق ‌ ‌ ‌ وباب منيع بالحديد مضبَّب

فان تعجبى ياعاج مما أصابنى ‌ ‌ ‌ ففى ريب هذا الدهر مايتعجّب

تركت رشاد الامر اذ كنت قادرا ‌ ‌ ‌ عليه فلاقيت الذى كنت أرهب

وكم قائل قال انج ويحك سالما ‌ ‌ ‌ ففي الارض عنهم مستراد ومذهب

فقلت له ان الفرار مذلة ‌ ‌ ‌ ونفسى على الاسواء أحلى وأطيب

سأرضى بحكم الله فيما ينوبني ‌ ‌ ‌ وما من قضاء الله للمرء مهرب

فمن يك أمسى شامتا بى فانه ‌ ‌ ‌ سينهل فى كأسي وشيكا ويشرب

ثم بعث فيه الامير ليلا فقتله ونهب ماله وسجن أولاده وألزمهم غرم مائتي الف دينار فلم يزالوا فى السجن والغرم الى موت المنذر وولاية أخيه عبدالله فاطلقهم وردّ اليهم ضياعهم

وفي سنة ٢٧٣ كانت الوقعة على أهل طليطلة وكانوا قد جيّشوا البربر المنفيين من ترجيلة فقتل منهم ألوف

وفى سنة ٢٧٤ خرج الامير المنذر بجيوشه الى عمر بن حفصون فافتتح حصونه بريّة . . . . . . وحاصر أرْجُذونة الى أن نبذوا طاعة رئيسهم عيشون واسلموه الى الامير المنذر فدخلها وافتتح حصون بنى مطروح بجبل باغه وأسر منهم اثنين وعشرين رجلا وأرسل الاسري الي قرطبة فصلبوا جميعا وصلب مع عيشون فى الخشبة خنزير

وكاب لانه كان يقول اذا ظفر بي فليصلبني وليصلب عن يميني خنزيرا
وعن يساري كلبا ثم حاصر المنذر ابن حفصون وأخذ بمخنقه وسد
افواه طرقه فأعمل الفكر في الخديعة والمكر وأظهر الانابة الى طاعة
الامير على أن يكون عنده من خاصة جنده ويقطن قرطبة بأهله وولده
وان يلحق ابناءه بمواليه فأجابه الامير الى ما طلب . . . . فسأله
مائة بغل يحمل عليها جملة متاعه وعياله فأمر الامير أن تقاد اليه البغال
ومعها عشرة عرفاء ومائة وخمسون فارسا اكراما فأرسلها ابن حفصون
الى بُبشتر لكن لما انفضّ جمع ذلك المعسكر ودخل الليل هرب عمر
ابن حفصون الى قلعته فلقي العرفاء فأصابهم القتال وأخذ منهم البغال
وعاد الى سيرته الاولى فاقسم الامير المنذر أن يقصده ويحلّ عليه
ولا يقبل منه أو يلقي بيده اليه فجمع جنوده واحدق بقلعة ببشتر
ثلاثة وأربعين يوما حتى يئس ابن حفصون لكن أصابت المنذر
علة اكذبت نفسه وكدّرت أنسه فبعث الى أخيه عبد الله لينوب
منابه فلما حضره أسلم روحه الى بارئه وعاد عبد الله بالعساكر الى
قرطبة ومعهم جمل يحمل المنذر فدفن مع أجداده وكانت وفاته
منتصف شهر صفر من سنة ٢٧٥ وهو ابن ست وأربعين سنة وملك
نحو سنتين

و يؤخذ من دوزي ماعربته مع تصرف أن المنذر بعد أن عاد
من الحامة الى قرطبة لوفاة أبيه محمد اغتنم عمر بن حفصون من هذه

الحادثة توسيع سلطانه فدعا أصحاب الحصون (التي بينه وبين الساحل)
الى أن يتبعوه فأطاعوه ورضوا به جميعا أن يكون ملكا عليهم ومن ذلك
الحين صار الملك الحقيقي للجنوب ومع هذا وجد في السلطان الصاعد
على كرسي الملك قرنا شهما يحول بينه وبين ما يشتهي يقول عنه الامويون
لو عاش سنة زائدة لاضطر عصاة الجنوب الى القاء السلاح فقد قاومت
جنوده العصاة مقاومة شديدة حتى أن أقاليم قبرة وإلبيرة وجيان صارت
ميادين حروب دموية يتعاقب فيها النصر والخذلان ففي ربيع سنة
٨٨٨ للميلاد سار المنذر بنفسه نحو الثائرين واستولى على بعض الحصون
وعاث في ضواحي بُبَشْتر وحاصر أُرْشُذُونة (١) وفيها عيشون وكان
شديد البأس يثق بشجاعته في القتال لا يقوى أحد على منازلته حتي
كان يقول اذا ظفر بي السلطان فليصلبني وليصلب على يميني خنزيرا
وعلى يساري كلبا — فلما ان السلطان عنده وسيلة للقبض عليه أقوى
من قوة السلاح فقد دسّ اليه بعض أهل المدينة بأن يحتالوا في أخذه
فوعدوه بان يسلّموه اليه حيّا ففي يوم دخل عيشون مسكن أحدهم وهو أعزل
فكبلوه بالحديد وسلّموه الي السلطان فصلبه بالطريقة التي رسمها
لنفسه وبعدئذ سلمت أُرشذونة ثم ظفر السلطان ببني مطروح

(١) وفي ابن عذاري أرجذونة قال ياقوت أرشذونة مدينة بالاندلس مدودة
في اعمال رية قبلي قرطبة بينهما عشرون فرسخا وقال أرجذونة مدينة بالاندلس
قال ابن حوقل رية كورة عظيمة مدينتها أرجذونة فيها كان عمرو بن حفصون الخارج
على بني أمية اه فهل هما مدينتان أو مدينة واحدة تسمي أرجذونة أو أرشذونة

الثلاثة وفتح حصونهم بجبل باغة وأسر معهم تسعة عشر من عمّالهم وصلب الاثنين والعشرين في قرطبة وبعد ذلك حاصر ببشتر حتى ضاق ابن حفصون ذرعا من الحصار ولم يجد وسيلة الى الخلاص الا الخداع فعرض الصلح على المنذر قائلا له أسكن قرطبة أنا وأهلي وأكون أحد قوّاد جيشك وأبنائي مواليك . غرّ المنذر هذا الكلام وأحضر من قرطبة القاضي والعلماء ليحرروا عقد الصلح كما عرض ابن حفصون ففعلوا — وبعدئذ حضر ابن حفصون الى السلطان والتمس منه ان يبعث الي ببُشتر بمائة بغل ليحمل عليها أثقاله الى قرطبة فارسل الى قلعته ماطلب ومائة وخمسين فارسا وعشرة حرّاس من الضباط ورحل الجيش المحاصر الى قرطبة لكن ابن حفصون ترقب جنان الظلام وغفلة الاحراس وفرّ الى حصنه وتبعه جنده وهجم على الحراس وانتزع البغال منهم — كاد المنذر يتميز من الغيظ من فعلة ابن حفصون فاقسم أن يعود الى حصار قلعته ويأخذ بخناقه ولكن حال الموت دون ان يَبَرّ بقسمه فقد اختطفته يد المنون اثناء الحصار في ٢٩ يونيو سنة ٨٨٨ (منتصف صفر سنة ٢٧٥)

ويؤخذ من رومي وكندى ماتعريبه مع تصرف أن المنذر لما جاء من المريّة الى قرطبة لاخذ البيعة دخل بملابس السفر في البهو المعدّ للاحتفال بجنازة أبيه فقام الحاجب هاشم بن عبد العزيز وأخذ يقرأ كتاب تولية المنذر كالعادة حتى وصل الى ذكر محمد فحزن عليه

وفاضت عبراته وعلا نحيبه وعقد لسانه وكاد الحضور لايسمعون صوته حتى اضطروه الى اعادة ماقرأ وقد نظر المنذر الى ذلك بعين الغضب والسخط ولما جيء بالنعش الى القبر هلع هاشم هلعا غير مألوف حتى خلع رداءه ونزع عمامته وصاح يندب محمدا قائلا « وامحمداه ليتني كنت معك فاني سأسقى كأس الحمام من أجلك » فأحفظ هذا الاميرَ الجديد ومع ذلك بقي هاشم في حجابته ولكنه يئس من سعادة مستقبله

في هذه الاثناء استولى غالب بن حفصون على اسبانيا الشرقية وآلت اليه سرقسطة ووشقه وبواسطة الجبليين امتدت سلطته على جميع الارضين التي يسقيها نهر (ابرة) من الشاطئين ماعدا طرطوشة وعندئذ جمع عشرة آلاف فارس فوق ماعنده من المشاة وسار بهم الى طليطلة حتى دخلها وقد ساعده نصاراها ونادوا به ملكا عليهم ثم ملك قلاع نهر التاجه وأقام حرّاسا عليها يهددون سلطان الامير فارسل المنذر جيشا تحت امرة هاشم (الذى يكرهه باطنا من جرّاء ماذكرناه سابقا) فاسرع الخطى حتى بلغ تخوم طليطلة وحاصرها بشدة

رأى غالب أنه لايقوى على الجيش المحاصر فطلب مددا من حلفائه ولاجل ان يوجد زمنا كافيا لمجيء المدد اليه عمد الى الخديعة فعرض على هاشم الصلح بأنه يسلمه المدينة وينسحب الى أسبانيا الشرقية غير انه يحتاج الى بغال ليحمل عليها جرحاه واقواته التى فى

مخازن طليطلة وانه ماجاءها الا مخدوعا من نصاراها وأشرار مسلميها فاعتقد هاشم صدق هذا القول وتوسط لدى المنذر فى أن يمنح ابن حفصون ماطلب ناظرا الى أن فى هـذا الاتفاق حسم حرب أهليّة دمويّة طويلة مرتاب فى عاقبتها — فردّ عليه (١) الملك يحذّره خداع الثعلب الماكر غالب بن حفصون — ومع هذا التحذير لازال هاشم ظانّا صدق غالب فكتب الى الملك ينبئه أن ليس في الأمر كبير خطر وأن الثائر اذا أخـذ البغال وحمّلها وأبي تسليم المدينة حاربناه واذا سلّمها أمنّا شر حرب خسائرها فادحة وان كتب لنا النصر — وبعدئذ أعطى هاشم غالبا دوابّ الحمل التى طلبها فاخرج قسما عظيما من جيشه من طليطلة وأخفى باقى الجيش فيها — وحمّل البغال بالجرحى والذخائر موهمـا أنه وأتباعـه تاركون المدينة حسب الاتفاق وقد احتلها فى الحـال بعض جنود الاندلس تحت امرة وال مخلص للامويين ـ حينئذ عاد هاشم وجيشه الى قرطبة وهنّأ الامير بمـا تمّ وما درى ان هذا ما كان الا خـداعا من ابن حفصون فانه بمجرّد ماعلم برحيل عساكر قرطبة وبقرب مجيء النجدة من حلفائه الجبليين أشعل نار الحرب وتمكن من دخول طليطلة بواسطة أهلها وجنوده المختبئين وآل الامر الى أن استولى بسهولة على القلاع التى على شاطئ نهر التاجة الايسر وبذلك امتدت سلطته على اسبانيا الوسطى

(١) من كلام كندى وهو يعبر عن امراء بنى أمية فى الاندلس بالملوك

جاءت الرسائل تنبيء الملك بحركات ابن حفصون هذه فاخذها هاشم من حامليها وكان خارجا من منزله مع ابنه عمر وفضّها وقرأها لما علم المنذر بالأمر امتلأ غضبا وسخطا على هاشم وأرسل اليه كوكبة من الخيل تجيء به فدخل رسول اليه في قصره ورأى أناسا قد اقتربوا منه للسلام عليه فمنعهم قائلا لهم « أنتم مخطئون ليس هذا الشخص الجدير بالاحترام » أدرك هاشم الأمر المرسل اليه من الملك فلم يفه ببنت شفة بل أُركِبَ حصانا صعب القياد سريع الخُطَى وسارت الكوكبة حتى بلغت باب المدينة فجفل الحصان وألقى بصاحبه على الارض مغشيّا عليه زمنا ولما حضر مجلس المنذر صاح فيه قائلا « أنت الذى أشرت علىّ بهذه المتاركة أنت الذى ساعدت العاصى على خيانته لا بد من قتلك اليوم حتى تكون عبرة لغيرك » وقطع رأسه فى ساحة القصر فى ٢٦ شوال سنة ٢٧٣ (٢٥ مارث سنة ٨٨٧) وقيل حبسه أياما قبل قتله وعزل ولديه عمر وأحمد من ولايتي جيّان واُبَّدَة (١) Ubéda وسجنهما وصادرهما فى مالهما

وعقب ذلك أمر قواد الاندلس وماردة بجمع الرايات واللحاق به نحو طليطلة — وفى اليوم الثانى توجه مع جنود حرسه وأخيه عبد الله. عَلِم أحزاب ابن حفصون بتوجه المنذر اليهم فلم يجرأوا على مقابلته بل بقى بعضهم فى طليطلة وبعضهم فى قلاع اقليمها فكلّف الأمير

(١) قال ياقوت ابدة بالضم ثم الفتح والتشديد مدينة بالاندلس من كورة جيان.

أخاه عبد الله بحصار المدينة وأخذ هو يتعقب العصاة ومساعديهم وقاتلهم حتى تمكن من طرد بعضهم من القلاع التى كانوا يحتلونها على نهر التاجة وأحرق بعض القرى التى تحصن فيها النصارى واستمرّ القتال أكثر من سنة حتى دخلت سنة ٢٧٥ فكان المنذر يجتهد فى ايجاد معركة تكون حاسمة بيد أن ابن حفصون كان يتجنب بحذق مقابلة جنود الأندلس . ففى يوم اكتشف المنذر وهو فى عدد قليل من الفرسان جيشا كثيفا من العصاة معسكرا على ربوة قريبة من حصن وَبذَى [1] Webda فدفعته شجاعته وحميّته أن يلقى بنفسه وفئته القليلة بين أعدائه الكثيرين غير مبال بكثرة عددهم ولا منعة موقعهم فتقهقروا أولاً ثم ارتدّوا وأحدقوا بفرسان الاندلس فقاتلوا بشجاعة فائقة حتى قتل كثير منهم وأصيب المنذر بعدة رماح فسقط صريعا فى ميدان القتال وذاع الخبر بان الأمير قتل فظنّ جيش غالب أن المقتول قائدهم ففرّوا من ساحة الوغى ولم يمكن بقية جيش قرطبة أن تتبعهم لقلة المدد ودخول الليل

وكان موت المنذر فى صفر سنة ٢٧٥ (يوليوسنة ٨٨٨) لنحو سنتين من حكمه

لما علم عبد الله بموت أخيه رجع الى قرطبة حيث تمت له البيعة

---

(١) قال ياقوت وبذي مدينة بالاندلس قرب طليطلة

﴿ ٧ – عبد الله بن محمد ﴾

من سنة ٢٧٥ الى سنة ٣٠٠ للهجرة

ولي عبد الله بن محمد امارة الاندلس وعمره نحو ٤٥ [١] سنة فقد ولدته أمه [٢] سنة ٢٣٠ [٣] وبويع يوم السبت منتصف شهر صفر سنة ٢٧٥ وكان يوم وفاة أخيه المنذر عند حصار ببُشْتر أوطليطلة كما تبين قبل

صعد على كرسى الامارة ودعائمها تكاد أن تنقض فقد كثر في أنحائها قيام الثوّار وتغلبوا على الكور والمدن وامتنعوا من أداء الخراج [٤] لكن انقطع قتال الفرنج والجلالِقة ولولا ذلك لساءت العقبى وتقلص ظل مملكة الامويين في أسبانيا

من الاطلاع على ماقاله المؤرخون فى حياة الامير عبد الله نرى أن ليس في أقوالها تطابق بل اختلاف كثير يدل على تناقض

---

(١) يقول ابن الاثير انه بويع وعمره ٤٢

(٢) يقول ابن الاثير انها أم ولد واسمها عشار ويقول ابن عذاري أن أمه كانت تسمي بهار أوعشار ويكتب كندي اسم الام Athara

(٣) كذا فى كندى ويقول رومى أنه ولد سنة ٢٣٨ ويقول ابن عذارى أنه ولد فى نصف ربيع الآخر سنة ٢٢٩ ويخطئ رومى كندى فى أن الولادة كانت سنة ٢٥٠ مع أن الذى قاله كندي سنة ٢٣٠ كما ذكرنا (٤) قال ابن خلدون كان خراج الاندلس قبله ثلثمائة ألف دينار مائة ألف منها للجيوش ومائة ألف للنفقة والنوائب وما يعرض ومائة ألف ذخيرة ووفرا فأنفقوا الوفر في تلك السنين

الحوادث وزيادة بعضها في موضع ونقصها في آخر وذلك لايؤدّي الى الحقيقة الا على وجه مجمل فيؤخذ من كندي وروزي

١ — ان عبد الله في مبدأ حكمه غزا ابن حفصون في كورة طليطلة على نهر التاجة

٢ — وان له ولدين محمدا وعبد الرحمن المظفّر وان الأول كان والى اشبيلية وعصى أباه والثاني جاءه ليردّه عن عصيانه فأبى فحاربه وأسره وأكرمه وعنى بجروحه وحبسه في قلعة في اشبيلية وأن محمدا مات في محبسه من الجروح ولم يمت مسموما

٣ — وأن عبد الله غزا سوارا وأسره في كورة البيرة وقطع رأسه وأرسله الى قرطبة

ويؤخذ من ابن خلدون وابن عذارى ودوزي مايخالف ذلك فلم يجيء فيها غزو طليطلة في مبدأ حكم عبد الله بل جاء فيها غزوة (بليّ) وان ولدى عبد الله هما محمد والمطرّف (لا المظفر) وأن الاول ذهب مغاضبا من قرطبة الى ابن حفصون فاسترضاه والده فعاد الى قرطبة وحبس في القصر حتى قتله أخوه وان الذي قتل سوارا هو جعد وجيء بالجثة الى مدينة إلبيرة فقطعت

هذا بعض مااختلفوا فيه ولبيان ذلك مفصّلا نقول يستخلص من كندي وروزي مايأتي

بعد موت المنذر أمر أخوه عبد الله الذي كان يتولّى حصار

طليطلة قوّاده ان يستمرّوا على الحصار وتوجّه الى قرطبة ومعه كوكبة من الفرسان المخلصين له فبلغها في الوقت الذي اجتمع فيه مجلس الشوري إثر ورود النبأ بموت أخيه المنذر لينظر في الأمر فحضر عبد الله المجلس فقام أعضاؤه لمنظره وأعلنوا امارته وحلفوا له يمين الطاعة فاول عمل بدأ به أن أمر بنقل جثة أخيه الى قرطبة واقامة الشعائر اللائقة بجنازته وكلّف أخاه يعقوب باتمام ذلك

كان عبد الله جميل الصورة أزرق العينين معتدل القامة فطنا ذا علم وشجاعة

فى أول يوم من حكمه أطلق سراح ابني هاشم بن عبد العزيز وسراح معلمهما جابر بن غيث الليلى وكان من مشاهير علماء ذلك العصر وردّ اليهم أموالهم — جذبت هذه المكارم أهل قرطبة الى محبته فان ابنى هاشم كانا محبوبين كثيرا عندهم وفوق ذلك ولّى الامير عبد الله عمر بن هاشم ولاية جيّان التى كانت مع أبيه وأقام أحمد ابن هاشم رئيس حرسه — هذه المكارم وان أرضت أهل قرطبة لكنها أغضبت أسرة الامير ولا سيما ابنه محمد والى اشبيلية وقد أدّى ذلك الى ثورة شغلت الامير عن الاستمرار فى قتال ابن حفصون وإلى ان ابنه محمدا وأخويه الاصبغ والقاسم واليي شريش وشذونة شقّوا عصا الطاعة فى جنوب الاندلس وانضم اليهم ولاة وقوّاد آخرون وثاروا على والى جيّان عمر بن هاشم الذى استولى

على كرسى الولاية منذ أيام

صار الامير عبد الله مهدّدا من ابنه من جهة ومن ابن حفصون من أخرى فكان واقعا بين نارين فقسم قواه الى قسمين أرسل قسما الى اشبيلية تحت امرة ابنه الطائع عبد الرحمن المظفّر كى يردّ أخاه عن غيّه وتوجه الامير نفسه بالقسم الآخر الى طليطلة لكن فى هذه الاثناء جاءه نبأ ثورتين احداهما من والى اشبونة والاخرى من قاضى ماردة فالأول قام على الولاة المحافظين على نهر دويرة فأمر الامير عبد الله وزيره أبا عثمان عبيد الله بن أبى عبدة معلم ابنه المظفّر أن يأخذ القوة البحريّة المجهزة فى ولبة وا كشونية [1] وينقضّ بها على الوالى الثائر — والثانى سليمان بن أنس بن الباجة أثار أهل ماردة على واليها حتى طردوه واستقل هو بولايتها فعرّج الامير (اثناء توجهه الى حصار طليطلة) على ماردة ودخلها فجأة بجيوشه الجرّارة فتضرع اليه القاضي الثائر ملتمسا العفو فعفا عنه لشبابه واستعداده وصفح عن شركائه أيضا ثم عاد الأمير الى متابعة سيره نحو طليطلة التى كانت في يد ابن حفصون حتى فاجأه في سهل على نهر التاجة فاقتتل الفريقان وانتصر فرسان قرطبة وانهزم أعداؤهم وسقط كثير

(١) فى نزهة المشتاق ولبة مدينة مطلة على جزيرة شلطيش وقال ياقوت اكشونية مدينة بالاندلس يتصل عملها بعمل اشبونة وهى غربى قرطبة وهى مدينة كثيرة الخيرات برية بحرية قد يلقى بحرها على ساحلها العنبر

منهم في النهر فغرقوا وحال دون القتال دخول الليل ـ استمرّت المعارك فى اسبانيا الوسطى ولكن بدون نتائج حاسمة للنزاع ـ حينئذ جاء الامير عبد الله كتاب من ابنه المظفّر ينبئه أن المفاوضات بينه و بين أخيه محمد لم تنجح وأنه تجيئه قوى من الثائرين وأنه يخشى أن محمدا يجعل وجهته قرطبة وأنّ كورة جيّان مشتعلة فيها نار الهيجان من تعدّى شركاء أخيه وأنه يرى أن يترك حصار طليطلة لقوّاده ويرجع سريعا الى قرطبة ـ لهذا عاد الامير الى قرطبة لينظر بنفسه فى اخضاع ابنه العاصى وقد آلمه ترك قتال ابن حفصون وأخذه فى محاربة ابنه ولكن لطّف آلامه أن جاءه من أبى عثمان ماينبىء بانتصاره فى لوزيتانيا واخماده نار الثورة فيها وقتله والى اشبونة الثائر ومن تبعه من الولاة الآخرين .

فى تلك الآونة ارتبكت أحوال الاندلس ارتباكا شديدا اذ أصبح ميدانا للمعارك ومنازعات القبائل الفاتحة وغيرها فان رؤساء الكور الاندلسية اتخذوا سريان الفتن والشقاق بين الاسرة المالكة وسيلة لنيل غرضهم وهو التفرّد بما فى أيديهم من المدن والاقاليم ولم يقفوا عند هذا الحد بل اعتدوا على الكور الخاصة بقرطبة ووجهوا عنايتهم الى استئصال الدولة الاموية من أسبانيا

فى ذلك الوقت كان غالب بن حفصون (١) يعلم اضطراب

(١) كذا يقول دوزى واما كنديلي فيقول هنا (حفصون بن أريوس)

المملكة وقيام القلاقل في أنحاء الاندلس فقويت آماله فوجّه عبد الله بن أميّة لينهب كورة جيّان وهذا ضمّ قواه الى قوى سوار [١] ابن حمدون القيسى وكانت سبعة آلاف رجل واستولوا معا على مواقع من اقليم جيّان ونهبوها ثم انضم اليهم أتباع يحيي بن صقالة أمير العرب وكذا انضم اليهم جيش حزب المولّدين وكان ستة آلاف رجل من العرب والنصاري استأجرهم رؤساؤهم الاغنياء وهذه الجيوش استولت على بعض القلاع وزحفت الى الامام في البرارى التى فى جنوب النهر الكبير فسيّر الملك اليهم جعد بن عبد الغافر والى جيّان [٢] لحاربهم لكنه انهزم وخسر سبعة آلاف من رجاله ووقع هو وكثير من قوّاد جيشه أسري في أيدى الاعداء فقادوهم الي برجالة أى القلاع الجديدة لغرناطة فى غربى مدينة البيرة [٣] وقد قوّي هذا النصر اطماع العصاة فانتشروا فى جميع الكور وأخذوا وشقة وجيّان وريّة وارشذونة واقليم البيرة الى قلعة رباح وكانت هذه الواقعة في نهاية سنة ٢٧٦ (ابريل سنة ٨٩٠)

---

(١) كان سوار أحد رؤساء القبائل الاقوياء فى شرق الاندلس وكان عدو الدود للسوريين في قرطبة فان الامويين منهم اختصوا بالرياسة دون غيرهم وقد أنشا أو كبر عدة مدن في جنوب وغرب نهر شنيل مثل الحمراء وبياسة ووادي آش — والقلاع التى بناها هو والرؤساء الثائرون في جنوب غرناطة كانت تسمى برجالة Bordjêla أي القصور المتحدة (لعلها بروج الله) وحرف الاسبانيون هذه الكلمة وقالوا البجراس Alpujarras

(٢) كذا فى كندى وروى فلاحظه وقابله بما يأتي

(٣) يقول رومي ربما كانت هذه المبادى الحقيقية لمدينة غرناطة

لما بلغ الملك عبد الله خبر تلك الحوادث المحزنة أقسم أنه لايعود الى عاصمته إلا بعد أن يبيد هذه العصابات فجمع جنود الاندلس وفرسان حرسه وسلّم قيادة المشاة والرماة الى عبد الرحمن ابن بدر وكان قائدا ضاريا بالحروب في الجبال — وطئ الملك بجيشه أرض جيّان فقابله فئات من العصاة فبدّد شملهم وانهزموا واقتفى آثارهم نحو الجنوب حتى أدرك سوارا عند سفح برجالة ومعه قومه العرب وأقوام من إلبيرة والحمراء وغرناطة فدارت رحى الحرب وجرح سوار وأسر وسيق أمام الملك فامر بقطع رأسه فقطع وأرسل الى قرطبة وكان ذلك في أوائل سنة ٢٧٧ (يونية أو يولية سنة ٨٩٠) وقد أكّد ابن حيّان انه قتل فى هذه الواقعة المسماة بواقعة مدينة البيرة اثنا عشر ألفا منهم يحيي بن صقالة أمير العرب اليمانيين

بعد قتل سوار بن حمدون أقام العصاة رئيسا عليهم سوريّا قنّسريّا يسمى سعيد بن جودي — كان على جانب عظيم من الشجاعة والجراءة لكن يعوزه الحزم — وثق بشجاعة أتباعه فالقى بهم الى سهول غرناطة ولوشة وقاتلوا جيش الملك فدحروا وولّوا الفرار وجرح رئيسهم وأسر وسملت عيناه بالحديد المحمي وقطع رأسه فى ثالث يوم (١)

---

(١) كذا في كندي وفيه نظر فان سعيد بن سليمان بن جودي سيأتى ذكر قتله فى سنة ٢٨٤ فيحتمل أن قتله فى هذه الواقعة غير صحيح أو أن سعيدا هنا غير سعيد هناك ولذا قال رومى أن الرئيس المختار هنا أخو سعيد بن سليمان بن جودى الذى رثا سوارا وفى قوله نظر ايضا لانه كيف يكون سعيد بن جودى أخا سعيد بن سليمان بن جودى؟

وأرسل الى قرطبة

بعد ذلك اجتمع الباقون من جيش العصاة في البيرة وانتخبوا رئيسا عليهم محمد بن أضحى الفارسي صاحب حصن الحامة [١] لكنه كان أقل جراءة من سابقه فالتجأ برجاله الى جبال انتقيرة وغرناطة ورندة فاختبأ فيها متجنبا قتال جنود عبد الله — حينئذ أشار الوالي عبد الرحمن بن بدر على الملك أن يترك هؤلاء قطّاع الطرق ويعود الى قرطبة عاصمة مملكته فعاد اليها بعد أن ترك قوة اعتقدها كافية لكبح جماح الثوّار [٢] بعد أن عاد عبد الله الى قرطبة أرسل قوة عظيمة من الفرسان الى ابنه المظفّر كي يردّ أخاه محمدا الى الطاعة فبهذه القوة امكن أن ينتزع من أخيه مدينتي اشبيلية وقرمونة وأخذ يقتفي أثره حتى أدركه في اقليم الشرف غرب اشبيلية وكان بينهما واقعة هائلة احتدم قتالها بين الفريقين فقد كان في فريق محمد شجعان شريش وأركش وشذونة وفي فريق المظفر شجعان قرطبة واستجة وقرمونة واشبيلية لكن آل العراك الى نصرة جيش قرطبة وقتل حصان محمد وأصابته بجروح مؤلمة منعته من أن ينهض فحمل الى أخيه فاهر بالاعتناء به وتضميد جراحه وقد حلّ مثل ذلك بالقاسم أخي

(يكون الاول عم الثاني لا أخاه)

(١) في هامش رومي مدينة الحمامات La ville des bains

(٢) يقول ابن عذاري (ص ١٣٩ ج ٢) أن ابن أضحى تولى أمر العرب بجانب البيرة مطيعا للامير عبد الله فحارب ابن حفصون فأسره هذا ففداه العرب بمال جسيم

عبد الله فأخذ مغطّى بالجروح وجيء به الي ابن أخيه فاعتنى بشأنه وجيء بالمجروحين الى اشبيلية وحبسا في قلعة مات فيها محمد بعد أيام قلائل من جراحه ومن حزنه من أن يرى مقهورا — يزعم بعضهم أنه مات مسموما ولذا كانوا يلقبونه بالمقتول لكن هذا غير الواقع فقد أكد الكاتبون أنه ماما مات الا من جروحه في ١٠ شوال سنة ٢٨٢ (٣ ديسمبر سنة ٨٩٥) وكان ابن ثمان وعشرين سنة [١] وترك ولدا عمره اربع سنين يسمى عبد الرحمن وكانوا يلقبونه بابن المقتول وقد جعل الله له شأنا عظيما كما سيجيء

عقب هذه الواقعة ولّى عبدالله ولاة في شريش واسطبة وشذونة . في السنة عينها أي سنة ٢٨٢ قام شقاق بين الوزير عبد الملك [٢] والوالي عمر بن هاشم أدّى الى مبارزتهما وقتل الاول الثاني — بعد أيام قلائل اقتص المطرف بن الملك محمد [٣] لعمر بن هاشم فقتل عبد الملك على مسافة ميلين من اشبيلية وولّى مكانه احمد بن هاشم أخا عمر المقتول وولّى الملك عمل عبد الملك ابنه مروان — في رمضان هذه السنة قتل المطرف غيلة ليلا في الطريق وكان ابن أربع وعشرين

(١) كذا يقول كندي ويقول رومي انه كان ابن سبع وعشرين سنة

(٢) يقول كندي أن عبدالملك كان وزيرا وقائدا وان عمر كان واليا ويقول رومي ان الاول كان والي قرمونة والثاني والي جيان ويقولان ان الاول ابن عبدالله ويقول غيرهما أنه ابن أمية (٣) يقول كندي ورومي ان المطرف كان ابن الملك محمد ويقول غيرهما انه كان ابن الامير عبدالله وانه هو الذي كان يخاصم محمدا لا «المظفر»

سنة وكانت خصاله الحميدة تجعله في منزلة عالية فوق أقرانه الشبان

توجهت الظنون الى أن القاتل مروان بن عبد الملك للعداوة المعروفة بينهما فسيق الي القضاء و يظهر أنه قام مايثبت التهمة عليه ولم يستطع ان يبرّيء نفسه فحكم عليه بالسجن فسجن الي ان مات سنة ٢٨٤ . (رجع الى ما بعد واقعة البيرة)

بعد أن قتل سوار بن حمدون رثاه سعيد بن سليمان بن جودى بقصيدة منها مامعناه

(في جبال البيرة تكسر سيف سوار السيف الذي البس نساء قرطبة ثياب الحداد السيف الذى سقى الاعداء كؤوس المنون)

و بعد ذلك انضم سعيد الى غالب بن حفصون فان سعيدا هذا كان من حزب المولّدين وكان يقال انه جمع من صفات الاشراف عشر صفات الكرم والشجاعة والفراسة والعفو والشعر والفصاحة والقوة والمهارة في الطعن بالرمح والضرب بالسيف والرمي بالقوس.

لا يعلم السبب الذى أدّى في ذلك الوقت الى وقوع خُلْف بينه و بين ابن حفصون حتى أن الاول دعا الثاني الى المبارزة فامتنع لكن سعيدا فاجأه يوما في الميدان فاوقعه عن فربوسه وكاد يقتله لولا أن أدركه أتباعه [1] نشأ عن الخلاف بينهما أن عاد سعيد الى طاعة الملك عبد الله فولاّه كورة إلبيرة ولكن قتله اغتيالا بعض

---

(١) رومي ص ٧٤ وما بعدها ج ٤

أتباعه في شهر ذي القعدة سنة ٢٨٤ (١)

وفي سنة ٢٨٥ أجدبت الارض فلم تنبت فنجم عن اجدابها مجاعة عمّت أسبانيا وأفريقية وأضرت بالناس ولاسيما الفقراء وأعقبها وباء فتك بالخلق فتكا ذريعا حتي أنهم كانوا يدفنون جملة من جثث الموتى في قبر واحد ولا يستطيعون أن يحفروا حُفَرا كافية بقدر عدد الاموات وكانوا يدفنونهم بدون غسل وكان المشرفون على الموت يذهبون بانفسهم الى المقابر

كانت تقع هذه الحوادث والسلم ضارب أطنابه بين اذفونش الثالث وعبد الله ولم يقطع روابط المودّة بينهما الا حادثة غريبة وهي انه كان في حزب غالب بن حفصون أمير مولّد ذو قربى من بنى أمية يسمى أحمد بن معاوية ويكنى بابى القاسم أخذ من ابن حفصون السلاطة العليا على اقليم طليطلة وطلبيرة ووجّه عزيمته الى أن يأخذ من النصارى سمّورة ويلجئهم الي شمال نهر دويرة فجمع نحو ستين الفا من المشاة والفرسان منهم بربر مستأجرون وهجم على مدن الحدود بدون تفرقة بين مدن النصاري ومدن المسلمين ونهبها وألجأ النصارى الى مدينة سمّورة فتحصّنوا بها مستصرخين بنى دينهم فحاصرهم بها وأخبر قواد الحدود الملكين عبد الله واذفونش باغارة هذا الثائر فجاء اذفونش بجيشه الي برارى سمّورة والتقى الجمعان واقتتل الفريقان

---

(١) كندى

نحو أربعة أيام وفى اليوم الرابع ترك فرسان البربر ميدان القتال لكن مسامى أسبانيا الشرقية واقليم طليطلة ثبتوا حتى أن قائدهم أحمد قتل في المعركة فتفرقوا بدون نظام وقتل منهم النصارى كثيرا وقطعوا رءوسهم وعلقوها على أبواب سمّورة وكانت هذه الواقعة سنة ٢٨٨ (٩٠١)

قد حرّكت هذه الواقعة نفوس المسلمين ورغبوا أن يثأروا النصارى بأخوانهم وأشاروا على عبد الله بذلك ولكنه خالفهم وأرسل القائد عبيد الله الغمري والى أشبونة الى أذفونش ليجدّد التحالف فنجح - هذا كله أغضب كثيرا من المسلمين من الملك عبد الله حتى أن خطباء الجوامع أسقطوا اسمه من خطبهم وشاع ذلك فى اشبيلية بتحريض القاسم أخى عبدالله وخطبوا باسم الخليفة العباسى المعتضد بالله وكان القاسم يأمر الاشبيليين أن لا يدفعوا الزكاة الى أخيه لانه (كما يقول) مسلم ملحد

لما بلغ الملك ذلك وحقّقه أمر بالقبض على القاسم وسجنه وقتل فى السجن مسموما سنة ٢٩٠ (٩٠٣) وأمر الملك بنفى كثير من العلماء بسبب ذلك

ه كان ابن حفصون يسعى في هدم دولة بني أمية فى الاندلس واقامة دولة يكون هو صاحب صولجانها - لهذا كان دائما يشعل نيران الثورات ويحدث القلاقل والاضطرابات فى حكومة الملك عبد الله - من ذلك أنه في سنة ٢٩٣ كان يوجد متنكرا فى بَلىّ وفى قرطبة وبينهما

عشرون ميلا لاحداث مؤامرة من أشياعه في العاصمة كى يسقط الملك من عرشه وليهيئ النفوس لما دبّر حرّك ألسنة كثيرين بذمّ عبد الله وقد ضبط شعر فيه هَجْوُه وبحث عن قائله حتى قبض عليه فظهر انه سليمان بن الباجة الذى كان قاضى ماردة واغتصب ولايتها وعفا عنه الملك ـ لما مثل بين يديه استنكر منه مقابلة الاحسان بالاساءة فاضطرب وقبّل قدمى الملك وسأله العفو وأنبأه بأن الحامل له على الهجو هو ابن حفصون المختبئ الآن في قرطبة وأفشى للملك أسرار مؤامرته وانه على وشك دقّ ناقوس الثورة ـ عندئذ حبس سليمان خشية أن يطلع شركاءه على جلية الأمر ـ وبحث عن ابن حفصون فى المدينة فلم ير له أثر فيها فانه كان قد تزيّا بزى سائل وفرّ من قرطبة وقد قبض على كثير من شيعته وعذبوا ليخبروا بأمره ـ لما هرب ابن حفصون من قرطبة توجه الى كورة طليطلة حيث يقيم جيشه وأخذ يغير على اقليم قلعة رباح ولكن هزمه الوزير ابو عثمان عبيد الله الغمرى فى عدة مناوشات واستولى على عدة قلاع كان يحتلها جيشه ـ وفى سنة ٢٩٦ كان بينهما واقعة منتظمة قضى فيها أبو عثمان على فرسان غالب ومشاته والجأه الى بعض حصون طليطلة حيث لم تقم له قائمة نحو ثلاث سنين

فى هذه الاثناء سكّن المظفر اضطراب جنوب الاندلس فتوجهت عزيمته لأن يخضع طليطلة ـ لهذا الغرض التمس من والده أن يولّيه

حكومة ولاية ماردة بدلا من أبي عثمان فانه قد بلغ من الكبر عتيًا وينبغي له ان يصرف بقية عمره في حياة هادئة فكره الملك ان يعزل هذا الشيخ الذي خدمه باخلاص مرضاة لابنه لكن بلغ ذلك أبا عثمان فاستقال وجاء قرطبة فولاه الملك رياسة حرسه وكان مؤلفا من جنود صقالبة ذوي شجاعة واخلاص للملكهم

لما أخذ المظفّر بزمام ولاية ماردة وبقيادة الجيش أعدّ المعدّات بحميّة زائدة لقتال أشياع غالب بن حفصون فلم يجرءوا على ان يظهروا في ميدان الوغى لان المظفّر كان شديد البأس محافظا على النظام الحربي حتى كان يخشاه عسكره وعدوّه وكان نصيب الاسرى لديه اما ضرب الرقاب بالسيوف واما طعن الصدور بالرماح

وفي صفر سنة ٢٩٩ (سبتمبر سنة ٩١١) ماتت الملكة أم الملك عبد الله فبكاها بكاءً مرًّا لانه كان يحبها حبًا جمًّا واحتفل بجنازتها احتفالا شائقا ودفنت في قبر فخيم مزيّن بالنقوش الجميلة بناه لها ابنها في بساتين الرصافة — وقد أثر فيه حزنه عليها حتى [illegible] ما كان يفكر الا في اللحاق بها فبنى لنفسه قبرا بجانب قبرها . رأى نفسه سائرا في طريق الموت فجمع الامراء والوزراء والولاة وأوصى بولاية عهد المملكة لحفيده عبد الرحمن بن محمد لانه رأى أن القلوب قد اجتمعت على حبه وان في ذلك حسما للنزاع بعد موته وقد أوصى ابنه المظفر بحماية ابن أخيه

وتعضيده فقبل وعمل بالوصاية[١]

وفى غرة ربيع الاول سنة ٣٠٠ (١٥ اكتوبر سنة ٩١٢) مات الملك عبد الله بعد أن حكم خمسا وعشرين سنة ونصف[٢] شهر وعمره نحو سبعين[٣] سنة

انتهى مااستخلصناه من كندى وروميو ويستخلص من غيرهما ماياتى :

حوادث إلبيرة

إلبيرة[٤] مدينة فى الجنوب الشرقى من الاندلس عند جبال (نفادة) وقد نزل كورتها جند دمشق عقب الفتح الاسلامي . قيل كانت البيرة هي المدينة قبل غرناطة فلما بنى الصنهاجي مدينة غرناطة وقصبتها وأسوارها انتقل الناس اليها ونهرها نهر شنيل وفى قبليها جبل شلير لايفارقه الثلج صيفا ولا شتاء[٥] وقال ياقوت إلبيرة كورة كبيرة بالاندلس ومدينة متصلة باراضي كورة قبرة بين القبلة والشرق من قرطبة بينهما تسعون ميلا وأرضها كثيرة الانهار والاشجار وفيها عدة مدن منها قسطيلية وغرناطة[٦]

---

(١) من هذا يظهر أن المظفر غير المطرف الذى سبق قتله (٢) يقول ابن الاثير كانت ولايته خمسا وعشرين سنة واحد عشر شهرا (٣) يقول كندى انه كان ابن اثنتين وسبعين سنة وكانه نسى قوله فى المبدأ انه ولد سنة ٢٣٠ (٤) همزتها همزة قطع فان «ال» في أولها ليست للتعريف فهي على وزن اخريطة أو كبريتة

(٥) المقرى (٦) يقول دوزي في أبحاثه (ص ٣٣ ج ١) مدينة البيرة كانت تسمى قديما قسطيلية

ويؤخذ من دوزي ماتعريبه :

ان دين النصرانية كان له سلطان كبير على قلوب أهل البيرة فان تعاليم قسوس رومة انتشرت فيها أوّلا أثناء ما كانت مدن اسبانيا الاخرى تائهة في ظلمات عبادة الاوثان وكان يكثر فى إلبيرة عدد النصارى والكنائس ويقل عدد المسلمين وكان بها جامع كبير رمى أساسه بعد الفتح حنش الصنعاني أحد رفقاء موسى وكمل بناؤه في عهد الامير محمد وكذا كان يكثر فى إلبيرة الاسبانيون والمولّدون ويكثر في كورتها العرب فانهم كانوا لايميلون ان يحبسوا أنفسهم بين جدران المدينة ولا أن يغيّروا مساكن قطن فيها أسلافهم عساكر دمشق وأيضا لم يكن فى إلبيرة مايستهوى نفوسهم الى سكناها فانها كانت مؤسسة على صخور مجدبة لاتنبت زهرة في الصيف ولا تسقط عليها قطعة ثلج فى الشتاء — ومع هذا كانوا يجيئونها يوم الجمعة لتأدية الصلاة فى جامعها متباهين بخيولهم الجميلة المزينة بالسروج واللجم ذات القيمة وكان لا يفوتهم ان يحتقروا الاسبانيين ويزدروهم وكانوا يسمونهم(المدينة السافلة) وكانت طبقة الاشراف فى إلبيرة وكورتها من العرب .

فى مبدأ حكم عبدالله اشتبك الاسبانيون والعرب في حرب مهلكة حتى اضطر هؤلاء الى أن يتركوا ضياعهم ويلتجئوا الى حصن منت شيقر Monte Xicar في شمال غرناطة الشرقى ويخربوا ضواحيه

وكان رئيسهم يحيي بن صقالة من قبيلة قيس فجاء الاسبانيون والمولّدون تحت أمرة نابل وحصروهم وقتلوا كثيرا منهم واستولوا على الحصن فاضطر جيش العرب اضعفه الي نزع السلاح وعقدِ اتفاقٍ مع أعدائه ومع هذا بعد مضى عدة أيام في المدينة هجم الاسبانيون على العرب في ربيع سنة ٨٨٩ (آواخر ٢٧٥ أو أوائل ٢٧٦) وذبحوهم ورموا جثثهم في بئر وقد فرح الاسبانيون بذلك فرحا عظيما حتى قال شاعرهم الأبلى [1] مامعناه

(قد كسرنا نصال أعدائنا وخفضنا كبرياءهم — كانوا يسموننا المدينة السافلة لكن قد هددنا قواهم وهل بعد زمن تنتظر رممهم التى ألقيناها فى البئر من يثأر بها ؟) وكان يحيي رئيس العرب من المقتولين

عقب ذلك عمّت الفوضى عرب الاقاليم وساد الخصام بين المضّريين واليمنيّين ففى أقليم البيرة اختلفوا أوّلا فيمن يكون رئيسا عليهم ولكنهم لما رأوا الضرر فى الانشقاق اتفقوا أخيرا على اختيار سوار [2] القيسى بدل يحيي بن صقالة فكان هذا حاسما للنزاع حتى قيل « لولم يرزق الله العرب سوارا لانقرضوا »

كان سوار شيخا أشيب قتل ابنه الاسبانيون فعقد نيته على ان

---

(١) نسبة الى أبلة وهي قرية من وادى آش واسمه عبدالرحمن بن أحمد

(٢) استوطن هنيدة جده الرابع مرشانة Maracena من أقليم البلوط فى شمال غرناطة كذافى هامش دوزى ج ٢ ص ٢١٤ ويقول ياقوت مرشانة مدينة من عمال قرمونة بالاندلس

يثأر الاسبانيين بابنه وبالعرب المقتولين فجمع ما أمكنه من العرب تحت رايته وتوجه بهم أولاً الى قلعة منت شيقر ليجعلها مركز أعماله الحربية واستولى عليها وقتل حاميتها وكانت ستة آلاف جندي وهاجم حصوناً أخرى وأخذها وقد جرّ هذا الى قتل كثير من الاسبانيين حتى انقرضت سلالات منهم باجمعها ولم يكن لتركاتها وارث . فزع اسبانيو إلبيرة الى والى اقليمها جعد[1] واستمدوا معونته واعدين ايّاه بالطاعة فأجاب سؤلهم وزحف على سوار بجنوده خاصّة وبالاسبانيين فقاتلهم شيخ العرب بقدم ثابتة وكان القتال صعب المراس من الجانبين ولكن كانت العاقبة نصر العرب واقتفوا آثار أعدائهم الفارّين الى أبواب إلبيرة وقتلوا منهم سبعة آلاف وأخذوا رئيسهم جعداً أسيرا — فرح العرب بالنصر وبأنهم قرّبوا كثيرا من الضحايا قربانا الى روح يحيي ...... بعد أن انتصر سوار انتصارا مشهورا حالف عرب ريّة وجيّان وقلعة رباح ثم عاد الى نهب الاسبانيين والفتك بهم فلم يجدوا لهم سبيلا الي السلام الا الالتجاء الى السلطان والتماس حمايته فاجاب سؤلهم وخاطب سوارا في أن يعود الى طاعته ويترك الاسبانيين في سلام وهو يقلّده ادارة قسم واسع من الاقليم فاجاب سوار الي مادعاه اليه السلطان وصالح خصومه وأقسموا أيمان السلم ولكن لم يكن ذلك الا سكونا كاذبا فان النفوس

---

(١) سبق في كلام كندي وروي ان جعدا كان والي جيان

لازالت منطوية على ما انطوت عليه من الاضغان . لما لم يجد سوار بجواره من الاعداء من يحاربه هاجم حلفاء وأتباع ابن حفصون وبلغ أسماع أهل إلبيرة أصوات آلام بنى جلدتهم من سطوات سوار وشدائده فحيِىَ شعورهم الوطني وهبّوا جميعا وتبعهم سكان كورتهم وأخذوا عُدّتهم وهاجموا العرب وضربوهم حتى ألجئوهم الى الحمراء (١) Alhambra بعد سبعة أيام رأوا الجيش الاسبانى المؤلف من عشرين الف رجل متأهبا للهجوم من الشرق واضعاً آلاته الحربية على أكمة حينئذ رأى سوار أن فى بقاء عسا كره الشجعان في القلعة خطرا عليهم فخرج بهم الى مقابلة العدوّ واشتبك القتال بين الفريقين وفي اثناء ذلك توجه بدون ان يراه العدوّ الى الاكمة وانقض على حاميتها انقضاض الصاعقة فبدّد شملها — لما رأى ذلك الاسبانيون الذين يقاتلون فى السهل ظنوا ان العرب جاءهم مدد فامتلأت قلوبهم رعباً وانهزموا الى إلبيرة وقتل منهم اثنا عشر الفاً وقيل سبعة آلاف وتسمَّى هذه الوقعة وقعة المدينة

بعد هذه الوقعة المدمّرة لم يبق للاسبانيين عون يرجونه لشدّتهم ويخضعون لرياسته الا أحد أبناء جلدتهم عمر بن حفصون فاستنجدوا به فجاء إلبيرة ودخلها بجنده ونظم شؤونها العسكرية وجمع تحت رايته حاميات الحصون المجاورة وأخذ فى المسير نحو سوار ولكن هذا قد

(١) قال ياقوت الحمراء اسم مدينة لبلة بالاندلس وهى مدينة قديمة فيها آثار عجيبة

ضم اليه عرب جيّان وريّة فصار تحت امرته جيش عرمرم مسلاه
أملا في أن يقهر ابن حفصون وقد تحقق أمله فان ابن حفصون خرج
وفقد جملة من خيرة عساكره واضطر الى ان يتقهقر وقد غضب
غضبا شديدا من هذه الصدمة وأخذ يلوم أهل إلبيرة على سوء سلوكهم
اثناء المعركة وفرض عليهم خراجا فادحا يؤدونه في مقابلة نفقات هذه
الحروب التي لم تكن الاّ لمنفعتهم ثم عاد الى ببشتر بعد أن أقام على
إلبيرة حفص بن المر Moro ليدافع عنها

بعد رحيل ابن حفصون استرسل سوار في الهجوم فوقع في كمين
من أهل إلبيرة فقتلوه ونقلوا جثته الى المدينة فعلَتْ من النساء صيحات
الفرح حين رأين مَن حرمهنّ من اخوتهن وأزواجهن وأولادهن
مقتولا وليطفئنَ أوار الانتقام قطعن الجثة قطعا وابتلعنها[1]

بعد سوار أمّر العرب عليهم سعيد بن جودي سنة ٨٩٠ فدخل
إلبيرة وأخضعها . مدحه الأ بلي الشاعر بأبيات فاجازه عليها فلما ذهب
نبّه عربي سعيدا الى أن هذا الشاعر هو أكبر محرّض لقومه على
العرب وهو القائل « هل بعد زمن تنتظر رممهم التي ألقيناها في البئر
من يثأر بها » فأمر الامير قريبا ليحيي بن صقالة أن يقتل الشاعر ويلقي
جثته في البئر ففعل ماأمر به في الحال

---

(١) سبق في كندي ورومي ان سوارا أسر وسيق أمام الملك فأمر بقطع رأسه فقطع وأرسل الى قرطبة في أوائل سنة ٢٧٧

كان جد سعيد قاضي إلبيرة ثم ضابط قرطبة في عهد الحكم الاول وكان مثال الفروسية العربية وكان معاصروه ينسبون اليه عشر صفات لايحوزها الا سيد فاضل (وقد سبق ذكرها)

حوادث اشبيلية

اشبيلية مدينة عظيمة بالاندلس على ضفة النهر الكبير في الجنوب الغربي لقرطبة نزل كورتها جند حمص كما نزل كورة إلبيرة جند دمشق — ومن أقاليمها اقليم الشرف وهو على جبل (قيل) انه كريم التربة دائم الخضرة فرسخ في فرسخ طولا وعرضا لاتكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه (وقيل) أن ترابه أحمر طوله من الشمال الى الجنوب أربعون ميلا وعرضه من المشرق الى المغرب اثنا عشر ميلا يشتمل على مائتين وعشرين قرية قد التحفت باشجار الزيتون واشتملت وقال ياقوت يطل على اشبيلية جبل الشرف وهو جبل كثير الشجر والزيتون وسائر الفواكه ومما فاقت به على غيرها من نواحي الاندلس زراعة القطن ويتصل عملها بعمل لبلة وهي غربيّ قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا — وفي المقري « ان باشبيلية أسواقا قائمة وتجارات رابحة وأهلها ذوو أموال عظيمة وأكثر متاجرهم الزيت » وفي شرقي اشبيلية على مسافة سبعة فراسخ مدينة قرمونة

ويؤخذ من دوزى ان اشبيلية كانت مركز علم وتمدن الرومان

ومقر أسر الاشراف والاغنياء . لم يغيّر الفتح العربي شيئًا من نظامها الاجتماعي فقد سكنها قليل من العرب الفاتحين وأغلبهم فضل سكنى أقاليمها ولا زالت سلالات الرومان والقوط هي أكثر السكان عددا فيها وكانوا ذوي ثروات واسعات لاشتغالهم بالزراعة والتجارة والملاحة ـ كان كثير من السفن يردها ليحمل منها القطن والزيتون والتين من محصول ضواحيها

جحد أغلب الاشبيليين النصرانية وأسلموا وبنوا لهم جامعا كبيرا في عهد عبد الرحمن الثاني لكنهم لم يغيّروا طباع وعادات أسلافهم الاسبانيين وقد تخلق باخلاقهم من خالطهم من العرب وساروا في طريق تمدنهم فلا كانوا ينزعون الى محاربة قبيلة أو جنس فكان موالدوهم على العموم هادئين مسالمين للسلطان يعتبرونه السند الطبيعي للنظام ومع هذا كانوا يخشون عرب الاقاليم لمحافظتهم على طباعهم الاصلية وأوهامهم القديمة ونفورهم من غير بني جنسهم وتمسكهم بانساب أسلافهم الاقدمين وعدم اخلادهم الى السكينة ـ لهذا كان هؤلاء العرب يترقبون الفرص أو دعوة من أشرافهم للفتك بالاشبيليين ونهب أموالهم وكان الاشبيليّون يتوقعون منهم ذلك فكانوا يحتاطون خشية أن يأخذوهم على غرّة

كان يوجد بين سلالات العرب الساكنين في اقليم اشبيلية سلالتان ترأسان السلالات الأخرى وهما سلالة بني حجّاج وسلالة بني خلدون

فالسلالة الأولى وان كانت عربية إلا أنها كانت من نسل غيطشة ملك القوط قبل رذريق فان حفيدة هـذا الملك المسماة سارة Sara تزوجت عميرا Omair من قبيلة لخم اليمنية فولدت له أربعة أولاد كانوا أصولا لسلالات عظيمة منها سلالة بنى حجّاج . وأما سلالة بنى خلدون فأصلها من حضرموت اليمن وأملا كها كانت فى اقليم الشرف وكان من هـذين البيتين زُرّاع وتجّار ومـلاّحون وأجناد وكانوا يسكنون أولا قصورهم فى الرساتيق ثم سكنوا المدينة وبنوا فيها القصور الشامخة اه

فى مبدأ حكم الامير عبد الله بعث ابنه محمدا على اشبيلية سنة ٢٧٦ فثار به رؤساؤها وهم أميّة بن عبد الغافر (وكان جدّه أبو عبده عاملا عليها من قبل عبد الرحمن الداخل) وكريب من بنى خلدون وأخوه خالد وعبد الله من بنى حجّاج وحصروه في القصر واضطروه الى العودة الى قرطبة فعاد فى شهر جمادى الثانية من هذه السنة ثم استبدّ أميّة بولايتها ودسّ على عبد الله بن حجّاج من قتله فقام أخوه ابراهيم مقامه وظاهر بني خلدون على قتل أمية فقتلوه وكتبوا الى الأمير انهم ماقتلوه الا لنبذه طاعته فارسل اليهم عمه هشام بن عبد الرحمن الثانى واليا على اشبيلية فحبسوه وقتلوا ابنه وتغلب كريب على الولاية (١)

---

(١) انظر ثورة اشبيلية في الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومقدمة دوزى لتاريخ ابن عذارى ص ٥٣ ولا يخفى مافي هذا من المغايرة لما سبق فى تاريخ كندى ورومي

وفي سنة ٢٨٢[1] أرسل الأمير عبد الله جيشا الى اشبيلية تحت امرة ابنه المطرّف ووزيره القائد عبد الملك بن أميّة وكان هذا وزير محمد الاول وابنه المنذر وهو الذى حرّضه على قتل وزيره هاشم بن عبد العزيز وكان المطرف يبغض القائد لانه كان يشير على أبيه أن لا يقلّده ولاية العهد بعد قتله أخاه محمدا — فلما قرب الجيش من اشبيلية جبن المطرف على ابن أمية وقتله وقدّم على قيادة العسكر أحمد ابن هاشم وناشب أهل اشبيلية الحرب فانهزموا وقتل كثيرا منهم وقبض المطرف على خالد بن حجّاج وابراهيم بن خلدون وكبلهما بالحديد ثم سار الى شذونة وكتب أمانا لأهلها فدانت له وقبض على واليها سليمان بن محمد بن عبد الملك وكبله بالحديد وضمّه الى ابن خلدون وابن حجّاج وبعث بالثلاثة الى قرطبة فسجنوا رهائن على أداء الخراج ففي السنة عينها أتت جباية اشبيلية وشذونة وأطلق سراح المسجونين ولكن ترك ابن حجّاج ابنه عبد الرحمن رهينة في قرطبة

اقتسم ولاية اشبيلية ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون وبقيا كذلك أعواما وكان الثاني مستبدّا عسوفا فنفر منه الناس ومالوا الى الاول لانه كان رفيقا بهم — انتهز ابن حجاج فرصة ميل الناس اليه ونفورهم من قرينه فدسّ الى الأمير عبد الله يطلب الولاية ليشتدّ

(١) كذا في ابن عذارى وفي ابن خلدون ٢٨٣

بكتابه على ابن خلدون فكتب له بذلك عهده فاظهره للعامة فثاروا جميعا بكريب فقتلوه وأخاه خالدا سنة ٢٧٦ .

فاستقم لابراهيم الامر وحده في اشبيلية والكور الملاصقة لها وحصّن مدينة قرمونة وجعلها مرتبط خيله — ولما قوى سلطانه وعظم شأنه طلب من الامير اطلاق ولده الرهين فلم يسعفه فنبذ الطاعة وظاهر ابن حفصون — ولم يزل ابراهيم يرسل من يشير على الامير باطلاق ولده حتى أجاب وأطلقه وأعظم الاحسان اليه فعاد ابراهيم الى الطاعة — قال حيّان بن خلف لما ملك ابراهيم اشبيلية وقرمونة وما والاهما ارتفع ذكره وبعد صيته واتخذ لنفسه جندا ورتّب لهم الارزاق فكمل في مصافّه خمسمائة فارس وكان له قاض يقوم بالحكم وصاحب مدينة يقيم الحدود وجرى في ذلك كله مجرى السلطان وفي قرمونة كانت مرابط خيله وكان يكثر الترداد بينها وبين اشبيلية ومن ذلك قول الشاعر أحمد بن عبد ربه في قصيدة طويلة يمدحه

واشبيلة الزهراء تزهو بوجهه   وقرمونة الغراء ذات الفضائل
اذا ماتجلّت تلك من نور وجهه   غدت هذه للناس في زي عاطل
وان حلّ هذي فهو يوحش هذه   فتهدى برسل نحوه ورسائل

وقد اختطفته المنون سنة ٢٨٨ وولى بعده ابنه عبد الرحمن الى أن مات سنة ٣٠١ وكان أخوه محمد بن ابراهيم صاحب قرمونة في

حياة أبيه و بعدموته و كانت دولته بقرمونة أضخم من دولة أخيه باشبيلية
وتوفى سنة ٣٠٢ [١]

مقتل ابى عبد الله محمد والمطرّف وغيرهما

قال ابن خلدون قد أكثر المطرف من السعاية في أخيه محمد عند
أبيهما حتى اذا تمكنت سعايته وظهر سخطه على ابنه محمد لحق حينئذ
ببلد ابن حفصون ثم استأمن ورجع وبالغ المطرف فى السعاية الى ان
حبسه أبوه ببعض حُجَر القصر وخرج لبعض غزواته واستخلف ابنه
المطرف على قصره فقتل أخاه في محبسه مفتاتا بذلك على أبيه وحزن
الأمير عبد الله على ابنه محمد وضمّ ابنه عبد الرحمن الى قصره وهو
ابن يوم فربّى مع ولده ثم بعث الأمير عبد الله ابنه المطرف بالصائفة
سنة ٢٨٣ ومعه الوزير عبد الملك بن أمية فقتل المطرف بالوزير لعداوة
بينهما وسطا به أبوه الأمير عبد الله وقتله شر قتلة ثأر فيها منه بأخيه
محمد و بالوزير وعقد [illegible] الوزير لابنه [٢] مروان فترفع على الوزراء
فمقتوه وسعوا فيه عند الأمير بأنه بايع جماعة من سماسرة الشر لأخيه
هشام بن محمد ولفقت بذلك شهادات اعتمد القاضي حينئذ قبولها فتمت

(١) انظر ابن عذارى ص ١٣٠ وما بعدها
(٢) يقول ابن خلدون لابنه «أمية» ويقول غيره ان ابنه (مروان) لا أمية
والظاهر صحة الاخير

الحيلة وقتل مروان وهشام سنة ٢٨٤

ويؤخذ من مقدمة دوزى لتاريخ ابن عذارى

ان المطرف كان يحسد أخاه البكر محمدا على ولاية العهد لهذا كان يكثر السعاية فيه عند أبيهما فتأججت نار العداوة بين الاخوين حتى أن محمدا قابل يوما فارسا من فرسان أخيه فانقض عليه وقتله فخشى من قصاص أبيه فعوّل على الفرار فكسر أبواب السجن وفك أسر السجناء وكانوا من المولدين والنصاري وفرّ بهم الى ببُشْتر عند ابن حفصون شيخ المولدين الذى كان يظهر الاسلام و يبطن النصرانية ليجمع تحت رايته جميع العرب والبربر الناقمين ويكوّن مملكة نصرانية في الاندلس فبذل الأمير مافى وسعه فى أن ينتزع ابنه من حزب المولدين فخاطبه أن يعود الى قرطبة وهو يعفو و يصفح فعاد محمد لكنّ أخاه مازال يسعى فيه لدي الأمير ويتهمه حقا أو بهتانا بأنه يفاوض ابن حفصون ويؤامره الى ان حبسه وقتله أخوه في ١٣ شوال سنة ٢٧٧ (١٤ يناير سنة ٨٩١)

لما عاد المطرف الى قرطبة قتله أبوه فى ١٠ رمضان سنة ٢٨٢ (٣ نوفمبر سنة ٨٩٥) وكان ابن سبع وعشرين سنة كأخيه محمد حين قتله

وعهد الأمير عبد الله بأعمال وزيره المقتول الى ابنه مروان فتكبر على بطانة الأمير فاتهموه بالسعى فى خلعه وتولية أخيه هشام

الذى كان والى جيّان وقائد ميمنة الجيش فعهد الأمير بتحقيق هذه التهمة الى القاضى خوفا من أن يجئ دور اتهامه حكم بصحتها وقد جرّت في ذيلها أحمد بن هشام حفيد عبد الرحمن الثانى وغيرَه فأمر الأمير بتنفيذ حكم القاضى فنفذ على المتهمين يوم السبت ٢١ شوال سنة ٢٨٤ (ابن الابار)

حوادث ريّة

ريّة كورة كبيرة مخصبة بالاندلس قبلى قرطبة متصلة بالجزيرة الخضراء لها مدن وحصون ورستاق واسع[١] كانت عاصمتها أرشذونة[٢] ومن أعمالها مالقة[٣] وبُبَشْتر

أما مالقة فهي مدينة قديمة عامرة على ساحل البحر بين الجزيرة الخضراء والمريَّة وبالنظر لوضعها المناسب كثر قصد المراكب والتجار اليها فتضاعفت عمارتها حتى فاقت أرشذونة وصارت هذه كرستاق لها[٤]

وأما بُبَشْتر فهى حصن منيع على قمة جبل شامخ على فرسخ من غربي انتقيرة ازاء نهر —[٥] بين الحصن وقرطبة ثلاثون فرسخا[٦]

---

(١) ياقوت (٢) ابحاث دوزي ج ١ ص ٣١٩ (٣) يخطىء دوزي ابن خلدون في أن رية اسم مالقه القديم — راجع ابحاثه ج ١ ص ٣١٩ (٤) ياقوت (٥) ابحاث دوزى (٦) ياقوت

كان هذا الحصن ملاذ ابن حفصون من الدولة الاموية

بعد موت المنذر وهو يحاصر ببشتر ورجوع الامير عبد الله الى قرطبة (كما ذكرناه آنفا) استفحل أمر ابن حفصون والثوّار وتوالت عليه الغزوات والحصار وكاتب ابن الاغلب صاحب أفريقية وهاداه وأظهر دعوة العباسيين بالاندلس فتثاقل على اجابته فأمسك وأكثر الاجلاب على قرطبة و بنى حصن (بلاية) قريبا منها وغزاه عبد الله حتى فتح هذا الحصن واستجة وقصده فى حصنه فحاصره أياما وانصرف عنه فاتبعه ابن حفصون فكرّ عليه الأمير وهزمه وأثخن فيه وافتتح البيرة من أعماله و والى الحصار عليه في كل سنة .... سار اليه الوزير أحمد ابن أبي عبدة فحاصره فاستنجد بابراهيم بن حجاج الثائر باشبيلية وافياه فهزمهما وراجع ابن حجاج الطاعة وعقد له الامير عبد الله على أشبيلية ..... ثم راجع ابن حفصون طاعة بنى أميــة عند ما هيأ الله للناصر ما هيأه من استفحال الملك واستنزال الثوار واستقام الى أن هلك سنة ٣٠٦ لسبع وثلاثين من ثورته كذا يؤخذ من ابن خلدون وهو كلام مجمل يفصله ما يأتى

يؤخذ من ابن عذارى أن عبد الله لما ولى الخلافة رأي ابن حفصون أن يدخل فى طاعته فأرسل ابنه حفصا الى قرطبة مع جماعة من أصحابه على أن يعقدوا مع الامير صلحا على أن يستقر ابن حفصون فى بُبَشْتر على الطاعة فقبل الامير وأصدر ابنه ورسله محفوفين بالكرامة

والرعاية ووجّه معهم عبد الوهاب بن عبد الرؤوف واليا على كورة رّية ومشاركا لابن حفصون فكانا شريكين فى الأمر والنهى الى أن غلب ابن حفصون على عبد الوهاب وأخرجه من الكورة وتعدّى على أهل البلاد وسلب أموالهم حتى همّ الناس بالجلاء من قراهم ولم يبق بالقنبانية قرية الا غشيتها الخيل وعمّتها الذلة والويل وملك ابن حفصون استجة وارجذونة ـ فلما رأى الأمير ماأحاط بقرطبة أمر باخراج السرادق الى فحص الربض بشقندة فلما شدّت أطنابه ومدّت حبائله وأسبابه بعث ابن حفصون خيلا لعلها تأخذ السرادق السلطانى فخرج اليها الفرسان فردّوها ووصلوا الى ابن حفصون فدفعوه من الجهة فأوى الى حصن (بَلَى") بقبرة فجمع له الأمير أهل قرطبة وسار اليه في نحو أربعة عشر الفا وحشد ابن حفصون نحو ثلاثين الفا فصدمه الأمير بمن معه فنثر عقده وفرّق جمعه فعملت السيوف فى رقابهم حتى رويت الأرض من دمائهم ودخل الأمير عبدالله القلاع الثائرة وملكها ولما رجع ابن حفصون الى ببشتر حشد أعوانه وخرج بجمعه الى إلبيرة فتغلب عليها وقبض على عاملها فاخرج اليه الأمير العسكر مع ابن أبى عبدة فلما تدانى الفريقان هجمت خيل قرطبة على خيل العدوّ فبدّدت شمله وأثقل ابن حفصون بالجراح وآب الى حصن بَبُشْتر

وثار سوار بن حمدون بحصن منت شقند [1] فقام الى جعد عامل إلبيرة وهزم جمعه وأخذه أسيرا ثم أطلقه وسار سوار الى غرناطة وأغار على حصون ابن حفصون فاجتمع أهل إلبيرة فى نحو ثلاثة وعشرين الفا فلقيهم سوار فى عدد قليل فانهزموا وقتل منهم نحو عشرة آلاف وذلك فى سنة ٢٧٦

وكان جعد الثائر بالبيرة متفقا مع ابن حفصون فأعمل جعد الحيلة فى الغدر بسوار فأغار على جهته فى نفر يسير وقد أكمن له كمينا فبرز اليه سوار واقتفى آثاره فوقع في الكمين وأحدقت به الخيل وقطع رأسه وانهزم عسكره وأرسل جعد رأس سوار الى ابن حفصون وثار سعيد بن جودى بالعرب وعارض ابن حفصون حتى ضايقه فعمد هذا الى الحيلة حتى أسره وأقام عنده شهورا في بُبَشْتر حتى فدى بمال كثير فاطلقه من وثاقه فخالف على الأمير عبد الله الى أن مكر به وقتل فى دار عشيقة له يهودية

وتولّى أمر العرب بجانب إلبيرة محمد بن أضحى فحارب ابن حفصون لكن هذا أسره حتى فداه العرب بمال جسيم وأطاع الأمير

وثار سعيد بن مستنة بكورة باغة [2] واقتعد حصونها فاستفحل أمره وشرّه وعم أذاه واصطفى من حصونها أربعة ذات حصانة ومنعة

(١) يؤخذ من غيره أنه حصن منت شيقر

(٢) قال ياقوت باغة مدينة بالاندلس من كورة البيرة بين المغرب والقبلة منها وفى قبلى قرطبة منحرفة عنها يسيرا وبينهما ٥٠ ميلا

وفى سنة ٢٨٤ وما بعدها دخل ابن حفصون استجة الدخلة الثانية فاخرجه منها ابان ابن الأمير عبد الله وقائده ابن أبي عبدة

وفى سنة ٢٨٦ أظهر ابن حفصون النصرانية وكان قبل ذلك يسرّها فتبرأ منه خلق كثير ورأى جميع المسلمين أن حربه جهاد فتتابعت عليه الغزوات بالصوائف والشواتي لاينى القوّاد عنه في الحل والترحال وفى ذلك قال ابن قلزم لابن أبي عبدة

ففي كل صيف وفى كل مَشْتًى   غزاتان منك على كل حال

فتلك تبيد العدوّ وهذى   تفيد الامام بها بيت مال

وفى سنة ٢٨٧ صلب رجلان من رجال ابن حفصون يسمى أحدهما اسحاق قال الآخر حين رفع فى الخشبة غدرت بي يا اسحاق فضربت مثلا

وفى سنة ٢٨٨ قبضت رهائن ابن حفصون وتحولت الصائفة اشذونة وغيرها من الكور

وفى سنة ٢٩٢ خرجت الصائفة الى عمر بن حفصون وتحول العسكر الى حصونه فهتك بعضها وفيها كانت الوقعة العظيمة على ابن حفصون بوادى (بلون) من جيّان وكان قد توالى اليه أهل الخلاف وخرج مغيرا على المسلمين فهزم وقتل كثير من رجاله

وفى سنة ٢٩٣ كان خروج الصائفة الى فهر بن أسد وهو بحصن تش من كورة جيان فافتتح الحصن وأخذ أسيرا وقدم به الى قرطبة

فامر الامام عبد الله بصلبه عند القصابين فى ربيع الآخر

وفى سنة ٢٩٤ غزا ابان ابن الامام عبد الله بالصائفة الى الجزيرة وقاد الخيل أحمد بن محمد بن أبى عبده فحلّ بها يوم الجمعة لتسع بقين من رجب ثم تقدم الى حصن لوزة يوم السبت لانسلاخ رجب فحارب الحصن وحاصره وقتل جماعة ممن فيه ثم تقدم الى حاضرة ريّة وفيها مشاور بن عبد الرحمن فأحرقت أرباض الحاضرة وحوصر من كان فيها فدعا مشاور الى السلم وبذل الرهائن فأجيب الى ذلك ثم تقدم القائد الى الساحل فجال فيه أجمع وخرج على حصن إلبيرة وقفل منصرفا الى قرطبة فدخلها يوم السبت لليلتين خلتا من ذي القعدة

وفى السنين التالية غزا ابان ابن الأمير عبد الله وقائده أحمد ابن محمد بن أبى عبده ابنَ حفصون وأشياعه عدة غزوات كتب النصر فيها لهما والخذلان له

وفصّل ابن عذارى وقعة (بلىّ)[1] فى موضع آخر نقلا عن (بهجة النفس) فقال مامؤداه : فى سنة ٢٧٨ (٨٩١) ألّب ابن حفصون على الأمير عبد الله ثلاثين الفا من كور الاندلس وأقبلوا عند حصن بلىّ وضيقوا على اقليم قرطبة وأضرّوا به حتى أغاروا

(١) يقول ياقوت بلى ناحية بالاندلس من فحص البلوط ويقول ابن خلدون بلاية حصن بناه ابن حفصون قريبا من قرطبة ويقول ابن عذارى بلاي من عمل قبرة

على أغنامه فخرج اليهم عبد الله في ١٨ الفا وقاتلهم حتى هزمهم وقتل كثيرا منهم وفتح حصن بلي فوجده مُـترَعا بالذخائر والعدد ثم قصد استجة فحارب أهلها وفتك بهم فتكا ذريعا حتي رفعوا الاطفال على الايدى في الاسوار مستصرخين راغبين في العفو فعفا عنهم

وقال النويرى في هـذه الواقعة لمـا تولى عبد الله أَلَبَ ابن حفصون وحشد كور الاندلس حتى لم يبق فيها الا قرطبة وأقبل فيمن أطاعه من أهل الـكور فخرج اليه الامير عبد الله فى أربعة عشر الفا من أهل قرطبة خاصّة وأربعة آلاف من حشمه ومواليه فبرز اليه ابن حفصون في سفح الجبل ونازله فلم يكن الا صدمة صادقة حتى أزالوهم عن مراكزهم ودخل ابن حفصون الحصن كأنه يخرج من بقي فيه فثلم فيه ثلمة أخرج منها أهله وما كان له فلمـا انتهى ذلك الى أهل عسكره ولّوا مدبرين لايلوى أحد منهم على أحد فقتـلوا قتلا ذريعاً ودخل منهم جماعة في عسكر الأمير فأمر بالتقاطهم وجلس لهم في مظلة فقتل من يديه الف صبرا

ويستخلص من دوزى ما يأتى :

سار السلطان في ربيع سنة ٨٨٩ (٢٧٥و٢٧٦) الى قلعة بُبَشْتَر فحاصرها ثم عاد الى قرطبة بعد أربعين يوما وكانت نتيجة هـذه الغزوة عقيمة

وعقب ذلك خرج ابن حفصون واستولى على بلاد وحصون منها

استجة وبيانة والقلاع العظيمة التي في جنوب النهر الكبير وبالاجمال كان أغلب الاندلس في قبضة يده حتى ان السلطان المغلوب على أمره لم يستطع أن ينصب واليا في البيرة ولا في جيّان .

استكبر ابن حفصون من امتداد سلطته وحدثته نفسه أنه بعد استيلائه على قرطبة يصير حاكم الاندلس الاكبر لكنه يخشى أن ينازعه العرب في السلطان حينما يؤول اليه فرأى أنه اذا جاءه تقليد بولاية الاندلس من خليفة بغداد لا يأبى العرب طاعته فكاتب ابن الاغلب والى أفريقية في ذلك وهاداه فبعث اليه الوالى بهدايا نفيسة وشجّعه على مقصوده ووعده بالسعى لدى الخليفة في مأربه — عندئذ طمع ابن حفصون ان يأخذ قرطبة ويرفع راية بنى العباس فاقترب منها وجعل استجة مركزه العام وفيها كان يتردد من وقت الى آخر الى بلىّ ليحث على اتمام التحصينات التي كان أمر باقامتها فيها حتى تصير منيعة وتجاب اليها عساكره — بذلك احدق بقرطبة خطر عظيم وهدّدها بلاء جسيم .

حاصر ابن حفصون قلاع قبرة التي كانت للسلطان واستولى اليأس على هذا لقلة جنوده لكن فضّل أن يموت في ساحة القتال موت الاشراف — فرح ابن حفصون وعجب من عزيمة السلطان على المقاومة وقال لابن مستنة « من يخبرني أن السلطان تحرك للسير نحونا أعطيه خمسمائة دوقة Ducat »[1] — بعد زمن قليل جاءه نبأ وهو في

(١) نقد ذهبي يختلف مقداره باختلاف البلاد

استجة بأن خيمة السلطان العظيمة نقلت الى سهل شقندة — لما سمع هذا النبأ عزم على أن يحرقها حتى يجعل السلطان عرضة لاستهزاء المستهزئين فأخذ معه بعض الكتائب وساروا الى هذا السهل حتى بلغوه أول الليل وانقضّوا على أحراس الخيمة . هؤلاء وان كانوا قليلين لكنهم دافعوا عنها بشجاعة واستنجدوا بصراخهم عساكر ضاحية المدينة فانجدوهم على الفور — رأى ابن حفصون أن العاقبة ستكون وبالا عليه فنكص ومن معه على أعقابهم واتبعهم عساكر السلطان وفتكوا بهم حتى لم يدخل حصن بلىّ مع ابن حفصون الا فارس واحد — فى صباح تلك الليلة بكر أهل قرطبة وقابلوا عساكرهم وهم عائدون ومعهم خيل مكسوبة ورءوس مقطوعة ففرحوا بهذا النصر المبين

فى افريل سنة ٨٩١ (المحرم سنة ٢٧٨) أخذ السلطان وجنوده طريق حصن بلىّ وساروا حتى بلغوا يوم الخميس نهيرا يجرى على مسافة نصف فرسخ من الحصن وكان عددهم أربعة عشر الفا [1] منهم أربعة آلاف فقط عساكر منتظمة وكانت جنود ابن حفصون ثلاثين الفا وكانت الوقعة فى اليوم الثاني أى يوم الجمعة : فى أول النهار أخذ ابن حفصون يرتب عساكره للمعركة عند سفح الاكمة المقام عليها الحصن وأخذ جيش السلطان فى السير نحوه وكان قائده العام عبد الملك بن أمية فلم يحسن قيادته اذ أمره بالتقهقر نحو جبل فى شمال

(١) تقدم انهم ثمانية عشر ألفا

القلمة وفى هذا الوضع تكون ظهور العساكر جهة العدوّ فهرع حينئذ قائد المقدمة عبيد الله بن أبي عبدة الى السلطان وصاح « الى أين نساق يا أمير أنجعل ظهورنا نحو العدوّ فيظن أننا نخافه فينقضّ علينا و يقطعنا قطعا » فلم يماره السلطان فى الحق بل سأله « ماذا ينبغى أن نفعل » فاجابه القائد « نتجه نحو الامام ونهجم على العدوّ هجمات صادقات و يفعل الله مايريد » فامره السلطان أن يفعل مابداله فرجع مسرعا الى فرقته وأمرها بالانقضاض على العدوّ بصرامة فابتدئ القتال واستمرت ناره الى أن تقوّى الجناح الايسر من العساكر السلطانية على الجناح الايمن من عسكر العدو وهزمه وقطع رءوس كثيرمن رجاله وحملها الى السلطان فوعد كل عسكرى يقدم اليه رأسا بجزاء حسن. بعد هزيمة الجناح الايمن هزيمةتامة انقضّ الجيش السلطانى كله على الجناح الايسر وكان قائده ابن حفصون نفسه فبذل كل ما فى وسعه فى أن يثبت أقدام عساكره فلم ينجح بل تركوا ميدان الوغى و ولّوا الفاتكين بهم ظهورهم فارًّا بعضهم الى استجة والسيوف تعمل فى رقابهم و بعضهم الى حصن بلىّ ومعهم زعيمهم ابن حفصون وفى الليل ثلموا ثلمة فيحائط الحصن وفرّوا منها مسرعين ـ في اثناء الفرار كان ابن مستنة بجانب ابن حفصون فمازحه قائلا له « لقد نذرت أن تعطي خمسمائة دوقه لمن ينبئك بسير السلطان نحونا . الآن يجب عليك أن تفي بما نذرت . ليس من السهل أن تقهر الامويين كما كنت تظن

ماذا تفكر في ذلك » اجابه ابن حفصون وماء الغيظ يغلي في صدره « أفكّر في أن الدائرة مادارت علينا الاّ من جبنك وامثالك . أنتم لستم رجالا » لما بلغ ابن حفصون أرشذونة أمر السكان أن يرحلوا الى قلمة ببشتر واستمر في سيره اليها . أمر السلطان بقتل ألف أسير بالسيوف ثم دخل حصن بلىّ فوجد فيه كميات وافرات من النقود والذخائر وآلات الحرب وبعد أن أقام حامية فيه توجه الى حصن استجة فحاصرها بعض أسابيع الى أن صعد النساء على الاسوار ورفعن أطفالهن على الايدى مستغيثات لما غشيهن من الجوع فعفا السلطان عن المحصورين جميعا وأخذ رهائنهم وولّى عليهم واليا ثم توجه الى بَبُشْتر ثم الى إلبيرة وأخذ رهائن من أهلها وعاد بجيشه الى قرطبة

هذه الوقعة من الوقعات المعدودات ولولا انتصار السلطان فيها لسقطت دولة بني أمية في الاندلس — بهذا الانتصار رجع الى السلطان مقامه الأول وعاد الى طاعته بلىّ واستجة وارشذونة وإلبيرة وجيّان وانكسرت شوكة ابن حفصون وحصل انقلاب في الرأى العام فرأى الناس ان السلام في طاعة السلطان وترك الفوضى . طلب ابن حفصون الصلح فأجابه السلطان اليه على شرط أن يقدم ابنه رهينة ففرّ وقدم ابنا لغيره فكشف غطاؤه ولامه السلطان على الغش فنزع الى ديدنه وشنّ الغارة على ارشذونة وإلبيرة وجيّان سنة ٨٩٢ (٢٧٩) [1]

وفي سنة ٨٩٣ غزا جيش السلطان تحت إمرة المطرف ضواحي ببشتر وحصر إلبيرة وآمن أهلها من كل خوف فسلموا اليه ضابط ابن حفصون وعساكره ومن ذلك الوقت عظم النفوذ السلطاني واستمر

في ذلك الوقت انقسم عرب غرناطة الى حزبين حزب سعيد بن جودى (يظهر أن المطرف نصبه على إلبيرة) وحزب محمد بن أضحى أمير الحامة وكان أحدهما يحتقد على الآخر ويسعى في قتله

تغيّظ من سعيد كثير من الرؤساء لتكبره وفجوره حتى أن أحدهم المسمى ابا عمر عثمان لما بلغه ان امرأته ضربت موعدا لسعيد في بيت يهودية عزم على أن يغسل خجله في دم الفاجر فترقب مجيئه في الميعاد وانقضّ عليه وقتله سنة ٨٩٧ (٢) بعد قتل سعيد انفرد ابن أضحى بالرياسة على العرب

وفي سنة ٨٩٩ أظهر ابن حفصون النصرانية هو وذووقرباه وكان يخفيها من قبل خداعا فانصرفت قلوب المسلمين عنه وناصبوه العداء اهـ

يؤخذ من ابن خلدون انه في عهد الأمير عبد الله كان عبد الرحمن ابن مروان مستقلا في بطليوس وسعدون السرساقي في قلنبرة

---

(١) لا يخلو هذا من نظر فانه يبعد أن يقوم لابن حفصون قائمة بعد سنة من انكساره في وقعة بلى الانكسار الهائل

(٢) هذه العبارة تخالف ما قاله ابن عذارى في هذا الموضع

ومحمد بن تاكيت في ماردة وكان بها جند من العرب وكتامة فاعمل الحيلة في اخراجهم منها ونزلها هو وقومه مصمودة وعظمت الفتنة بينه وبين ابن مروان فحاربه هذا وهزمه واستلحم قومه فاستجاش بسعدون فلم يغنه فقصّ هذا من جناح ابن تاكيت وعلا كعب ابن مروان الى أن هلك . . . . وعقد الأمير عبد الله على بَطَلْيَوْس لأميرين من العرب فاضطربا وقتل أحدهما الآخر واستقل ببطليوس ونازل حصون البربر حتى طاعوا وحارب ابن تاكيت صاحب ماردة ثم اصطلحوا وأقاموا جميعا طاعة الأمير عبدالله ثم تحاربوا فاتصلت حروبهم الى آخر دولته

توفي الامام عبد الله ليلة الخميس مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠[١] وكانت خلافته خمسا وعشرين سنة وخمسة عشر يوما ودفن في قصر قرطبة مع أجداده الامراء وكان له من البنين أحد عشر منهم محمد المقتول أبو عبد الرحمن الناصر ومن البنات ثلاث عشرة

«ذنابات»

الأولى ـ كان للامير عبدالله حاجب[٢] ووزراء وكتّاب وصاحب

(١) قال ابن عذارى أنه كان ابن اثنتين وسبعين سنة (٢) منصب الحاجب في ذلك الزمن الغابر كمنصب رئيس الوزراء في زماننا هذا « ١٣٣١ للهجرة »

شرطة وقضاة ـ فكان حاجبه عبد الرحمن بن أمية بن شهيد حاجب أخيه المنذر من قبل ثم عزله وولى مكانه سعيد بن محمد بن السليم ثم عزله ولم يولّ الحجابة أحدا ـ ومن وزرائه براء بن مالك القرشي وعباس بن عبد العزيز القرشي وعبد الملك بن عبيد الله بن أمية وعبيد الله بن محمد بن أبي عبدة وأصبغ بن عيسى بن فطيس ومن كتابه عبد الله بن محمد الرجالي ـ وكان صاحب شرطته موسى بن زياد ولما ولى القضاء خلفه يحيى بن زياد ثم مات وبقيت الشرطة بدون وال سنتين ثم وليها قاسم بن الوليد الكلبي . كان لا يخلو في أكثر أيامه من مقاعدة وزرائه ووجوه رجاله فاذا انقضى خوضهم في الرأي والتدبير لأسباب مملكته وما كان يحاوله من حسم الفتن خاض معهم في الاخبار والعلوم ـ قد فتح بابا في القصر سماه باب العدل وكان يقعد فيه للناس يوما معلوما في الاسبوع ليباشر أحوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم سترا

الثانية ـ وكان الامام متفننا في ضروب العلوم بصيرا بلغات العرب ـ اعتذر اليه يوما بعض مواليه فقال ان مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك وتنبيء عن باطل تنصلك ولو أقررت بذنبك واستغفرت لجرمك لكان أجمل بك وأعدل لستر العفو عليك قال قد اشتمل الذنب عليّ وحاق الخطأ بي وانما أنا بشر وما يقوم لي عذر « فقال مهلا عليك رويدا بك تقدمت لك خدمة وتأخرت لك توبة

وما للذنب بينهما مدخــل وقد وسعك الغفران » ـ وأملى كتابا الى بعض عمّاله « أما بعد فلو كان نظرك فيما خصصناك به واهتبالك به على حسب متوترك بالـكتب واشتغالك بذلك على مهمّ أمرك لكنت من أحسن رجالنا غناء وأتمهم نظرا وأفضلهم حزما فاقلل من الـكتاب فيما لا وجه له ولا نفع فيه واصرف همتك وفكرتك وعنايتك الى ما يبدو فيه أكتفاؤك و يظهر فيه غناؤك ان شاء الله . وكان شاعرا مطبوعا له أشعار حسان فمن قوله يتغزل في صباه

وَيْحِى على شادنٍ كحيلٍ　　فى مثله يخلع العــذار
كأنمــا وَجْنتــاه ورد　　خالطــه النَوْر والبَهار
قضيب بان اذا تثنى　　يدير طرفا به احورار
فصفو ودّى عليه وقف　　ما اطّرد الليـل والنهار

ومن قوله

يامهجة المشتاق ماأوجعك　　ويا أسير الحبّ ماأخضعك
ويارسول العـين من لحظها　　بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسرّ فتأتى به　　فى مجلس يخفى على من معك
(كم حاجة أنجزت ابرازها　　تبارك الرحمن ما أطوعك)[1]

ومن قوله فى الزهد

يا من يراوعه الاجل　　حتام يلهيك الامل

---

(١) اقتصر ابن عذاري على الابيات الثلاثة وزاد الرابع المقرى

حتّام لا تخشي الردى ... وكأنه بك قد نزل
اغفلت عن طلب النجاة ... ولا نجاة لمن غفل
هيهات يشغلك المنى ... ولا يدوم لك الشغل

وله أيضا فى الزهد

أرى الدنيا تصير الى فناء ... وما فيها لشئ من بقاء
فبادر بالانابة غير وان ... على شئ يصير الى فناء
كأنك قد حملت على سرير ... وغيّب حسن وجهك فى الثراء
فنافس فى التقى واجنح اليه ... لعلك ترضين رب السماء

الثالثة — قد صرح الفقيه أبو محمد بن حزم بذم هذا الأمير وقال انه كان قتالا تهون عليه الدماء مع كثرة اقباله على الخيرات وترك المنكرات فانه احتال على أخيه المنذر على ايثاره له وواطأ عليه حجّامه بأن سم له المبضع الذي فصده به وهو نازل بعسكره على ابن حفصون ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدا بعد واحد قتل محمدا والد الناصر وقتل أخاه المطرف ثم قتل أخوين له معا أيضا قتل هشاما منهما بالسيف والقاسم بالسم الى غير ذلك اه من ابن عذارى

☆(٨ — عبد الرحمن الناصر)☆

ابن محمد المقتول ابن الأمير عبد الله

من ٣٠٠ الى ٣٥٠ هـ

قتل محمد ابن الامير عبد الله في ريعان شبابه وترك ولدا حديث عهد بالوجود اسمه عبد الرحمن [١] وقد سبق ذكر ذلك

هذا الولد قد عني بتربيته وتعليمه في القصر جده [٢] وكان يحبه ويؤثره على بنيه حتى بلغ أشُدّه فكان يرشحه لولاية الأمر بعده ويقيمه مقامه أحيانا في أيام الاعياد لتسليم الزوّار والجنود عليه حتى وصّى أخيرا بولاية عهده له أمام الأمراء والوزراء وولاة الاقاليم فانجذبت قلوب أهل الدولة والرعيّة اليه وأحبته لجمال سجاياه الفطرية وكمال مزاياه الكسبية ولما وقذ نفوسهم من قتل أبيه شابا

فلما مات الأمير عبد الله أجلسوا حافده عبد الرحمن [٣] على كرسي الخلافة ولم ينازعه فيها أعمامه ولا أعمام أبيه بل كانوا أوّل من بايعه

---

(١) يقول كندى ان أمه مسيحية تسمى مريم أوماريه وفي التواريخ العربية أن أمه ام ولد تسمي مزنة (٢) يقول كندى قد أحسن مربوه تربيته منذ نعومة أظفاره ووقد انتخبهم له جده فأقرءوه القرآن ولما بلغ الثامنة علموه السنة والنحو والشعر والامثال تاريخ حياة الملوك وسياسة الملك وعلوما أخرى اجتماعية — ثم علموه ركوب الخيل وفن الحرب عند ما أخذ يخطو في الحادية عشرة (٣) الحافد ابن الابن وكذا الحفيد

ووافق يوم توليته الملك يوم الخميس مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠ (١٥ اكتوبر سنة ٩١٢) وفي ذلك اليوم يقول أحمد بن عبد ربه من قصيدة

بدا الهلال جديدا والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدي ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر فانت للدهر عيد

وكان عمره يوم ولايته ينيف عن اثنتين وعشرين سنة ، ودام ملكه الى يوم الاربعاء ٣ رمضان سنة ٣٥٠ (١٦ اكتوبر سنة ٩٦١)[1] فتكون مدة حكمه نصف قرن ونصف سنة ونحو ثلاثة أيام

---

(١) قال دوزي (ص ٩٨ ج ٤) أن مدة حكمه ٤٩ سنة ويوم من ١٤ اكتوبر سنة ٩١٢ الي ١٥ اكتوبر سنة ٩٦١ وفي تقييداته أن المدة بالحساب الهجري ٥٠ سنة و٦ أشهر الا ٣ أيام من خمسة ربيع سنة ٣٠٠ (٢٠ اكتوبر سنة ٩١٢) الي ٧ رمضان سنة ٣٥٠ (١٥ اكتوبر سنة ٩٦١) اه وفي كلامه نظر فانه ذكر في أعلى صحيفته ان مبدأ تاريخه (١٤ اكتوبر سنة ٩١٢ لا ٢٠ اكتوبر من هذه السنة وعلى حسابه الهجري تكون المدة خمسين سنة وستة أشهر زائدة ثلاثة أيام لا ناقصة هذه الايام فانه بدأها باليوم الخامس من ربيع وختمها في السابع من رمضان — « ومع هذا » المبدا والنهاية مغايران لما هو مذكور « في التواريخ العربية الصحيحة

وقد اعتمدنا في مقارنة التاريخ الهجري بالتاريخ الميلادي على التقويمات الالهامية محمد مختار باشا المصري غير أنه جعل مبدأ ربيع سنة ٣٠٠ يوم الجمعة والتواريخ العربية تثبت أنه يوم الخميس

كان أسلافه الامويّون فى أسبانيا يلقّبون بالأمراء فقط كما تولاها قبلهم منذ الفتح ولم ينزعوا الى انتحال القاب الخلفاء فى الشرق مع انهم كانوا ملوكا متفردين بحكوماتهم وأعداء للعباسيين وكانوا يستعملون النقود الشرقية فلما تولّى عبد الرحمن الثالث تلقب بالخليفة الناصر أمير المؤمنين وضرب نقودا جديدة كتب عليها اسمه وهذه الألقاب . قال أبو الفداء « كان أبيض أشهل حسن الوجه وهو أول من تلقب من الأمويين أصحاب الاندلس بألقاب الخلفاء وتسمى بأمير المؤمنين وكان من قبله يخاطبون و يخطب لهم بالأمير وأبناء الخلائف وبقى عبد الرحمن كذلك الى أن مضى من امارته سبع وعشرون سنة (كذا) فلما بلغه ضعف الخلفاء بالعراق وظهور الخلفاء العلويين بأفريقية ومخاطبتهم بأمير المؤمنين أمر أن يلقب بالناصر لدين الله و يخطب له بأمير المؤمنين » (١)

وقال ابن خلدون « انه أول من تسمّى بأمير المؤمنين عندما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق واستبدّ موالى الترك على بنى العباس و بلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفّر مولاه سنة سبع وعشرين وثلثمائة (كذا) فتلقب بألقاب الخلفاء »

مأخذ عبارتى أبي الفداء وابن خلدون تاريخ ابن الأثير (٢) وقد جارياه فى أن سنة التلقب السابعة والعشرون بعد الثلثمائة ونحا

---

(١) انظر حوادث سنة ٣٥٠ من تاريخ ابى الفداء ص ١٠٨ ج ٢

(٢) انظر حوادث سنة ٣٥٠ فى الجزء الثامن

منحى عبارة ابن خلدون المقرى لكنه خالفه فى تاريخ هذه السنة كأنه يوهّمه فقال « انه أول من تسمّى منهم بالاندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق واستبدّ موالى الترك على بنى العباس وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفّر مولاه سنة سبع عشرة وثلثمائة فتلقب بألقاب الخلافة » وفى تاريخ قتل المقتدر فى كليهما نظر فان المقتدر قتل فى سنة عشرين وثلثمائة كما يتبين ذلك من كلام ابن خلدون نفسه على بنى العباس [1]

خطّأ رومى أبا الفداء فى سنة تلقب عبد الرحمن بألقاب الخلافة وأفاد أنه تلقب بهذه الالقاب منذ سنة ٣٠٢ وهاك تعريب ما أخذناه منه فى هذا الموضوع [2] « فى سنة ٣٠٢ (٩١٤) أمر عبد الرحمن الثالث بتغيير سكة نقود الذهب والفضة وكان اسلافه محافظون على صورة وقالب نقود خلفاء دمشق فكانت نقود اسبانيا لا تختلف عن نقود الشرق الا فى تعيين السنة والمحل اللذين ضربت فيهما سواء فى ذلك دنانير الذهب ودراهم الفضة وفلوس النحاس فلما جاء أمر أن يكتب على وجه منها اسمه وألقابه التى منها منذ سنة ٣٠٢ لقب الامام المختص بالخلافة (كذا) وعلى الوجه الآخر (الشهادتان) الاعتراف بوحدانية الله وبرسالة نبيه محمد كما جرت العادة بذلك فى الشرق من

---

(١) انظر ج ٣ ص ٣٩١

(٢) ص ١٠٢ ج ٤

قديم من عهد معاوية وأن يكتب على حافة أحد الوجهين السنة والمحل اللذان ضربت فيهما ..... لم يسبق لاحد من أسلافه أن تلقب بأمير المؤمنين فقد دلنا وصف مدينة ماردة بين الآثار على أن عبد الرحمن الثاني كان يلقب بالامير فقط فدعوى أبى الفداء بأن عبد الرحمن الثالث ماتلقب بأمير المؤمنين الا فى السنة الخامسة والعشرين (كذا) من حكمه باطلة بأكثر من دليل وبنصوص المؤرخين الثقات التى أوضحها نص (العبر Elabar)[1] وهو «لما علم عبد الرحمن الناصر الأموى صاحب الأندلس درجة المجد التى ارتقى اليها المعز الفاطمى (فى أفريقية) وانه تلقب بأمير المؤمنين ورأى من جهة أخرى انحطاط خلفاء بغداد رأى امكان تسميته بأمير المؤمنين مثلهم ومن هذا الحين أخذ لقب الناصر أيضا الى أن مات سنة ٣٥٠ للهجرة »

وقال ابن الشحنة فى سنوياته مع الصراحة

« وتسمى عبد الرحمن بن محمد بالناصر لدين الله مع لقب أمير المؤمنين الذى أخذه فى السنة الثانية من خلافته فى الوقت الذى انحطت فيه دولة العباسيين فى الشرق من اعتداء (موالى) الترك عليها واسلافه لم يلقبوا الا بالامراء » فقد صرح كلا المؤرخين بما دعا عبد الرحمن

(١) لايعلم الاسم العربى الذى يعنيه رومى بهذا اللفظ الافرنجى الا أنه قال فى تقييداته « أنه مخطوط عربى من الاسكوريال Escurial » ــ ولعل اسمه (العبر) فانظر

الى التلقب بألقاب اسمى من ألقاب أسلافه وقد عزيا ذلك الى أصلين ارتفاع سلالات (كذا) جديدة فى افريقية وانخفاض العباسيين فى الشرق لاستبداد الجنود التركية بأمورهم من عهد المعتز بالله (كذا) يولون الخلفاء ويعزلونهم على حسب اهوائهم . فعبد الرحمن الثالث هو أول من وضع اسمه وألقابه على النقود المضروبة فى عهده . كان يقرأ على أحد وجهيها فى الوسط « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » وفى الحافة باسم الله ضرب هذا الدرهم فى الاندلس فى سنة ٣٠١ (٩١٣) (كذا) » وعلى الوجه الآخر فى الوسط « الامام الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين » وفى الحافة « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (كذا)

وقد يرى على النقود العربية الاسبانية المضروبة فى ذلك العهد اسماء الحجّاب وربما دلّ هذا على اتساع دائرة نفوذهم . ذكر ابن حيّان أنه كان يضرب من دراهم الفضة بقدر مايضرب من دنانير الذهب باسمه واسم حاجبه وكان يخطب باسم هذا فى جوامع أسبانيا ويرى من نقود المنصور فيما يأتى أن اسم الحاجب كان يوضع عادة تحت (شهادة) وحدانية الله .... الخ »

انتهى ما عرّبناه من كلام رومى ولا يخلو من مغامز

(١) فان لقب (الامام) ليس مختصاً بالخلفاء فان أصحاب المذاهب الاربعة يلقبون بالأئمة الامام مالك والامام أبى حنيفة والامام الشافعى

والامام أحمد بن حنبل ويقولون أيضا الامام الغزالى والامام الرازى وامام المحققين وامام المصلّين اللهـم الا ان يخصّص بمن له السلطان الدينى والدنيوى على المسلمين (٢) وان أبا الفداء لم يذكر سنة خمس وعشرين كما عزاها اليه روحى (٣) وأول كلامه لايطابق آخره ففى الاول عيّن سنة ٣٠٢ (٩١٤) وفى الآخر أفاد أن النقود مكتوب عليها سنة ٣٠١ (٩١٣) (٤) ونصّ (العبر Elabar) لايقوم دليلا لروحى فان (المعزّ) الفاطمى لم يرتق الى الخلافة في أفريقية الا منذ سنة احدى واربعين وثلثمائة (٥) وكان الظاهر أن يقول (ارتفاع الفاطميين) بدل قوله (ارتفاع سلالات جديدة) (٦) والمعتز بالله الذى زاد اسمه على النصين اللذين جاء بهما خليفة عباسى تولّى سنة ٢٥٢ وشغب موالى الترك كان قبل هذا التاريخ أيضا (٧) وعبارته اولا تفيد أن (الشهادتين) الاعترافَ بواحدانية الله وبرسالة نبيه محمد تكتبان في وجه واحد وعبارته أخيرا تفيد غير ذلك

وقال ابن عذارى «هو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين وتلقب بأحد الالقاب السلطانية وهو الناصر ثم تسمى منهم من كان بعده من خلفائهم بامرة المؤمنين وأثر اللقب السلطانى وذلك حين هاجت الخلافة العباسية وضعفت وظهرت الدولة التركية والديلمية فصارت امرة المؤمنين لائقة بمنصبه وكلمة باقية فى عقبه فاستهل الخطيب فى جامع قرطبة احمد بن بقىّ بن مخلد يذكر هذا الاسم المخلّد يوم الجمعة الاول من سنة ٣١٦»

وذكر في حوادث سنة ٣١٦ أن الناصر رأى أن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات عنه بأمير المؤمنين فعهد الى أحمد بن بقي صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة له يوم الجمعة مستهل (كذا) ذي الحجة بلقب أمير المؤمنين ونفذت الكتب الى العمال بمثل ذلك في يوم الخميس لليلتين خلتا (كذا) من ذي الحجة سنة ٣١٦ وهاك نسخة الرسالة النافذة في ذلك

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

أما بعد فانّا أحقُّ مَن استوفى حقّه وأجدرُ من استكمل حظّه ولَبِس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضلنا به وأظهر أثرتنا فيه ورفع سلطاننا اليه ويسّر على أيدينا دركه وسهّل بدولتنا مرامه وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلوّ أمرنا وأعلن من رجاء العالمين بنا وأعان من انحرافهم الينا واستبشارهم بدولتنا والحمد لله وليّ الانعام بما أنعم به وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك اذ كلّ مدعوّ بهذا الاسم منتحل له ودخيل فيه ومتّسم بما لا يستحقه وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه فأْمُر الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله والله المستعان وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا (كذا) من ذي الحجة سنة

٣١٦هـ [١]

وذكر فى حوادث هذه السنة أيضا أن الناصر أمر باقامة دار السكة داخل قرطبة لضرب الدنانير والدراهم وولى خطتها أحمد بن موسى بن جدير يوم الثلثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان وأقام الضرب من هذا التاريخ وكانت مثاقيله ودراهمه عيارا محضا من خالص الذهب والفضة . فكلام ابن عذارى صريح فى أن عبد الرحمن تلقب بأمير المؤمنين وأمر بضرب النقود فى سنة ٣١٦ والظاهر أن هذا هو الصحيح المعوّل عليه ويؤيده ماقاله دوزى من أن عبد الرحمن أمر بأن يلقب بألقاب (الخليفة وأمير المؤمنين والناصر لدين الله) وأن يخاطب له على المنابر بتلك الألقاب منذ يوم الجمعة سادس عشر يناير سنة ٩٢٩ [٢]

استولى عبد الرحمن الثالث على عرش الامارة وأسبانيا قد ثار ثائرها وفار فائرها ونبذت كورها طاعة قرطبة وتفرّد الولاة بولاياتهم وقطعوا أواخي التبع لبنى أمية فأطفأ نيران الثائرين وكبح جماح المخالفين حتى ثابوا الى الطاعة واستقامت له البلاد لكن أقاليم الشمال لم تدخل كلها فى دائرة سلطانه بل بقيت جليقة فى أيدى الجلالقة

---

(١) انظر ابن عذارى « ص ٢١٢ ج ٢ » ووفق بين قوله « يوم الجمعة مستهل ذى الحجة » وقوله « يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة » والظاهر أن قلمه عكس التاريخين فوضع أحدهما موضع الآخر

(٢) انظر دوزى ج ٢ ص ٤٩

¤(غزواته الداخلية)¤

(فتح استجة) فى جمادي الاولى سنة ٣٠٠ (ديسمبر سنة ٩١٢) أغزى الناصر حاجبه بدر بن أحمد مدينة استجة فهدم سورها وفتحها وولّى عمالتها حمدون بن بسيل

(فتح جيّان و إلبيرة) وفى هذه السنة أراد عبد الرحمن أن يجنى ثمار النصر بنفسه و يقاسم جنوده تكاليف الغزو فى ساحات الوغى لينال معهم الفخر والمجد فقاد جيشاً جرّارا الى جيّان فى ٧ رمضان (١٧ افريل سنة ٩١٣) ففرح الجنود بامرة ملكهم الشاب المعظم وانتعشت أرواحهم بالحماسة ولما وصل الملك الى كورة جيّان علم أن ابن حفصون اتفق مع الحزب الثائر فى ارشذونة ففصل قسمامن جيشه وأمره بالتوجه اليها سريعا ليحول دون مأرب ابن حفصون فتم ذلك وخاب أمل الثائرين وحاصر السلطان حصن (المنتلون) يوم الاحد فاذعن له بالطاعة أمير الحصن سعيد بن هذيل يوم الثلاثاء وعقب فتح هذا الحصن الحصين توالى فتح ثمانية حصون أخرى بدون ريث ولا توقف منها (شمنتان) و (منتيشة) و (الشارة) وأمراؤها عبيدالله ابن أمية بن الشمالية واسحق بن ابراهيم وعبد العزيز بن عبدالاعلى وقد أذعن أمراء هذه الحصون كلها الى طاعة السلطان واستأمنوه فآمنهم و بعث بهم ونسائهم وأولادهم تحميهم كوكبة من الفرسان الى قرطبة وأقام فى الحصون عمّالا يثق بهم ثم انتقل الى كورة إلبيرة

وفعل بحصونها كما فعل بامثالها من قبل غيران حصن فنيانة (Fiñana) توقف لأن من به من أشياع ابن حفصون أقنعوا السكان بأن المدينة منيعة ومع هذا لم تطل مدة التوقف فانهم لما رأوا الجنود يحرقون أرباضها خابروا السلطان وقبلوا أن يسلّموا اليه شيعة ابن حفصون كما طلب ثم توغل عبد الرحمن في السبل الوعرة من جبال (نقادة) فأخضع أمراء حصونها — حين ذلك علم ان ابن حفصون يهدد مدينة إلبيرة فبعث اليها مددا يساعدها على دفع اغارته عليها فلما علم حاميتها بقرب وصول المدد اليهم خرجوا ودفعوا العدوّ بالقرب من غرناطة حتى ألجؤه الى الهرب وأسروا حفيده عمر بن أيوب — في اثناء ذلك كان عبد الرحمن يحاصر حصن (شُبِلِس)[1] وقد التجأ اليه من فرّوا من الحصون الأخرى وكان من أعظم حصون ابن حفصون منعة وأصعبها مراما ودام الحصار خمسة عشر يوما فى نهايتها رضخ أهل الحصن لطاعة السلطان وأنزلوا اليه شيعة ابن حفصون فضرب رقابهم وأقام فى الحصن من يدير عمله ثم سار فى طريق إلبيرة ففتح مدينة (شاوبينية)[2] وقصد حصن (استين) وحصن (بنة فراطة) وكانا أعزّ مراما من وكر العقاب يفزع منهما دائما سكان إلبيرة وغرناطة فاحدقت

---

(١) قال ياقوت شبلس حصن حصين بالاندلس من أعمال البيرة قريب من ترْجة ·

(٢) قال ياقوت بفتح أوله ···· حصن بالاندلس من أعمال كورة البيرة

جيوشه بها وحاربوهما عشرين يوما حتى استولوا عليهما

تطهرت حينئذ كورتا جيّان و إلبيرة وما والاهما من الأشقياء المفسدين وسرت فى ربوعهما روح السلام وقد تسنّى للسلطان ذلك فى نحو ثلاثة أشهر فقفل راجعا الى قرطبة ودخل قصرها يوم عيد الاضحى (١٨ يولية سنة ٩١٣)

(فتح اشبيلية) بعد موت عبد الرحمن بن ابراهيم بن حجّاج صاحب اشبيلية فى المحرم سنة ٣٠١ (٩١٣) أقام أهلها أحمد بن مسلمة من سلالة بنى حجّاج خلفا له فبعث اليها الناصر جيشا تحت قيادة الوزير احمد بن جدير فحاربها وأوقع بأهلها . عندئذ جاء قرطبة محمد بن ابراهيم بن حجاج صاحب قرمونة وعرض نفسه على الخليفة لمحاربة أهل اشبيلية فبعثه لذلك مع قاسم بن الوليد الكلبى فحاصراها شهورا . لما رأى ابن مسلمة وأشراف اشبيلية أن المقاومة تطول ولا تجدى نفعا خابروا بدرا الحاجب وكان قد حضر المعسكر ليساعد الجيش المحاصر فوعدهم بان حكومة قرطبة تحفظ للاشبيليين ما كان لهم من العادات والخصائص فى عهد بنى حجاج . حينئذ فتحوا أبواب المدينة يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الاولى سنة ٣٠١ (٢٠ ديسمبر سنة ٩١٣) فدخلها بدر وهدم أسوارها وأصلح شؤون أهلها وأقام سعيد بن المنذر عاملا عليها [١]

---

(١) ابن عذارى ودوزى

عاد محمد بن حجّاج الى قرمونة مغاضبا لأن أمر اشبيلية لم يؤل اليه وكان يترقبه فارسل اليه الناصر قاسما صديقه الحميم يستقدمه الى قرطبة فاقنعه فقبل بشرط أن يخلفه عامله حبيب بن سوادة فى قرمونة ورجع الى الخليفة (فى افريل سنة ٩١٤) فقلّده الوزارة

وأما أحمد بن مسلمة فقد ولى الشرطة العليا فى قرطبة

(فتح قلهرّة) فى يوم الاربعاء ثامن عشر ذى القعدة سنة ٣٠١ فتح أهل (الثغر) مدينة (قلهرّة) وكانت بأيدى المشركين [1]

(فتح ريّة) بعد فتح كورتى جيّان وإلبيرة غزا الناصر كورة ريّة فافتتح حصونها واستأمنه أهلوها فآمنهم ولم يقف امامه الاحصن (طَرُّش) [2] Talox وكان فيه ابن حفصون نفسه — ما كان يتوقع أن يفوز عبد الرحمن سريعا فى هذه الكورة كفوزه فى الكورتين السابقتين لأن ابن حفصون نشر فيها لواء العصيان ونفخ فى أرجائها روح النصرانية حتى كاد ظل الاسلام يتقلص من ربوعها لكن سهّل فوز السلطان ما شهده فيه نصارى اسبانيا من معاملة رعاياه بالحسنى والعدل سواء فى ذلك المسلمون والنصارى وأنه كان يراعى شروط البلاد المفتتحة ولا ينقضها وأنه كان يخفف المغارم التى طالما أثقلت كواهل

---

(١) ابن عذارى (٢) قال ياقوت « طرش » بفتح أوله وتشديد ثانيه وضمه ناحية بالاندلس تشتمل على ولاية وقرى

الأهلين : في هـذا الحين قام أسطوله بأمر جالل وهو استيلاؤه على سفن ابن حفصون التى كانت تنقل اليه الاقوات من أفريقيـة . في أثناء عودة السلطان الى عاصمته مرّ على (الجزيرة) ثم على اقليمى شذونة ومورور Moron[1] — ثم وصل الى قرمونة في اليوم الثامن والعشرين من يونية سنة ٩١٤ وكان فيها حبيب القائم مقام محمد وقد رفع لواء الثورة . أمن تلقاء نفسه كان العصيان أم بايعاز من أميره ؟ ترجحت تهمة الشق الثانى عند السلطان فعزل محمدا من مرتبة الوزارة وأمر بزجّه في السجن . حاصر المدينة عشرين يوما في نهايتها استأمن حبيب وفتحت المدينة أبوابها أما محمـد بن حجّاج فاطلق سراحـه لكنه لم يتمتع بالحرية طويلا بل مات في افريل سنة ٩١٥م وبموته انقضت دولة بنى حجّاج بعـد أن لعبت دورا عظيما في تاريخ أسبانيا [2]

لزيادة البيان في غزوة الناصر السابقة نأتى بما ذكره ابن عذارى فيها مع تصرف قال

(غزاة أمير المؤمنين الى كورة ريّة والجزيرة وقرمونة) في ثامن شوال هذه السنة (٣٠١) فصل غازيا فوجّه حاجبه بدرا الى حصن (بلدة)

---

(١) بزاى معجمة بعد الواو الاولى وراء مهملة بعـد الواو الثانية . انظر الهامش الآتي — الاسم الافرنجى مأخوذ عن دوزى

(٢) دوزي ص ٣٣٨ ج ٢

فأتى أهله على غرة فقتل منهم وسبى وأسر وتوجّه الناصر نفسه بجيوشه الى حصن (طرّش) وحاصره أياما يغاديهم الحرب ويماسيهم ويقطع ثمارهم ويحطّم معايشهم ويقتل من تظاهر منهم وأبقى الحصار وتنقل الى حصون ريّة ومعاقل ابن حفصون يتتبعها معقلا معقلا ويوقع بأهلها المشركين وقائع عظيمة حتى ذهب كثير منهم وبعث برءوسهم الى قرطبة وألفى لابن حفصون مراكب فى البحر كانت تميره من العدوة فأحرقها وأسرع من كان بتلك الجهة من أهل (شانر) وفج (وسيم) و(قليرة) و (القصر) وما انتظم بها من أحواز (الجزيرة) الى الدخول فى الطاعة والاعتصام بها من الملكة فقبلهم وآمنهم وسكّن أحوالهم وتنقل منها الى حاضرة الجزيرة [1] ثم الى كورة شدونة ثم الى كورة مورور [2] ثم أوفى على مدينة قرمونة فاحتلها يوم الثلاثاء مستهل ذى الحجة وكان حبيب قد أظهر الخلاف فيها فحوصر عشرين يوما حتى استأمن فأومن وأخرج بأهله وأثقاله الى قرطبة وقفل الخليفة اليها فدخلها يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذى الحجة سنة ٣٠١

وفى هذه الغزاة بعث فى قاسم بن وليد الكلبى صاحب الشرطة

---

(١) يريد الجزيرة الخضراء فان أعمالها تتصل بأعمال شدونة كما فى ياقوت

(٢) براءين بينهما واو كذا فى ابن الاثير وابن عذارى ولكن رأيت فى ياقوت مانصه « موزور » اسم المفعول من الوزر واسم لكورة بالاندلس تتصل أعمالها بأعمال قرمونة وهى عن قرطبة بين الغرب والقبلة كثيرة الزيتون والفواكه بينها وبين قرطبة عشرون فرسخا

وكان قد خالف بقرطبة فسجن وسجن معه محمد بن ابراهيم بن حجّاج وعزل ابن مسلمة عن الشرطة العليا و وليها عباس بن أحمد ابن أبي عبده اهـ

في سنة ٩١٥ (٣٠٣) أجدبت الارض وأعقب الجدبَ مجاعةٌ هائلة فوباء حتى ان سكان قرطبة كانوا يموتون بالألوف وكلّت سواعدهم عن دفن موتاهم وقد قام السلطان وأهل دولته ولا سيما حاجبه بدر بكل مافي وسعهم لتخفيف ويلات الفاقة بكثرة الصدقات على ذوى المتربة — ولم يمكن أن يكون في هذه السنة غزو بل أن الناصر ضبط أطراف البلاد وتحفظ برعاياه من عادية أهل الخلاف سكان الجبال إذ كان يدفعهم الجوع الى شن الغارات على البلاد الموالية للخلافة

وفي آخر سنه ٣٠٦ للهجرة [1] (مايو سنة ٩١٩ الميلاد) قضى نحبه عمر بن حفصون بعد أن صرف هو و والده حفصون نحو نصف قرن في اثارة الثورات وشن الغارات على الامويين حتى كاد يثلّ عرش ملكهم من اسبانيا ولذا فرحوا بهبوط انوائه — بموت عمر بن حفصون لم تنقطع الحروب في اقاليم ريّة بل مكثت عشر سنين أيضا

ففي ذى الحجة سنة ٣٠٦ غزا الناصر مدينة (بلدة) فأحاطت بها العساكر فانضم من كان فيها من المسلمين اليهم واعتذروا بأنهم

---

(١) كذا يؤخذ من ابن خلدون ورومي كما سيأتي وفي ابن عذاري أنه هلك سنة ٣٠٥ وفي دوزي ٩١٧

كانوا مغلوبين على أمرهم فآمنهم الناصر وقاتل النصارى المخالفين حتى ظفر بهم وملك المدينة

ثم انتقل الى حصون ريّة فتقرّاها معقلا معقلا يفتح ما مرّ به منها ثم نزل على حصن بُبَشْتَر فحاصره حتى سأله جعفر بن عمر بن حفصون الصلح وقدّم اليه رهائن على طاعته وعلى أداء خراج سنوى فأجابه الناصر الى ذلك وقفل الى قرطبة فدخلها فى المحرم سنة ٣٠٧

وفى سنة ٣٠٧ احتلّ جنود السلطان بحصن طَرّش وكان به عبد الرحمن بن عمر بن حفصون فأسلمه اليه بدون قتال وتوجّه الى قرطبة فأنزلوا أكرم وكان غير داخل فى الحروب والفتن مدخل أبيه واخوته بل كان مولعاً بالكتب ونسخها لحسن خطه

يؤخذ من دوزى أن جعفرا اقترف خطأً عظيما كان طالعه عليه نحسا : اعتقد أن والده اخطأ فى اظهار نصرانيته ونصرانية اسرته لانه بذلك أبعد قلوب المسلمين عنه . هذا لا ريب فيه لكن الامر وقع ولا مردّ له وكان يجب أن يركن بنو عمر الى جنودهم النصارى دون المسلمين فان هؤلاء وقد انكشف الغطاء لهم عن بواطن أولئك لا يصافونهم . وفيما وقع عند حصار مدينة (بلدة) شاهد مقنع ومع هذا كان جعفر يعتقد أن فى الامكان استرضاء المسلمين عنه برجوعه الى دينهم فأظهر الاسلام ولم يحسب حسابا لما يحيط به فكانت العاقبة وبالا عليه فان جنوده النصارى غضبوا عليه واعتقدوا فيه الالحاد

فأمّروا به وقتلوه سنة ٩٢٠م واعلنوا امارة أخيه سليمان فى بُبَشْــتَر فبادر بالعودة اليها (وكان فى جند السلطان) لــكن كانت امارته شؤما فقد ساد فيها الفساد وظهر فيها العصيان وطرده الثائرون من المدينة وأطلقوا سراح من سجنهم ونهبوا قصره لــكن بعد يسير من الزمن علم أشياعه أنه دخل المدينة خفية فانضموا اليه وتغلبوا على أخصامه وانتقموا منهم شر انتقام ومع هذا لم يعش زمنا طويلا بل قتله جنود السلطان أثناء مناوشةٍ فى ٦ فبراير سنة ٩٢٧ وخلفه أخوه حفص لــكن دقت ساعة نحسه وجاءه جيش السلطان وحصر ببشــتر من جميع الجهات وقطع معايشها حتى ألجأه بعد ستة أشهر أن يسلم المدينة فى يناير سنة ٩٢٨ (فى ذى القعدة سنة ٣١٥) فاحتلها الجنود وحملوه واسرته الى قرطبة

تاقت نفس السلطان الى رؤية هذا الحصن المنيع الذى صدّ هجمات أربعة ملوك فى مدة خمسين سنة فتوجه اليه بنفسه بعد شهرين من افتتاحــه فرآه جاثما كالعقاب على طود شامخ ذا قلاع حصــينة وأبراج تناطح السحب فأيقن ان ليس لهذا الحصن نظير فى الارض بأسرها وسجد لله شكرا على أن ملّــكه ايّاه

لم يخدش وجه فخار الناصر الاّ ضعف عزيمته أمام إلحاف فقهاء اتبعوه وسألوه أن يخرجوا رفات عمر بن حفصون وابنــه جعفر من قبورهما فأذن فأزعجوا الاشــلاء من نومها الابدى وبعثوا بها الى

قرطبة فصلبت (١)

ثم استولى على المواقع التى كانت في أيدى الحفصونيّين وأعدم أفرادامنهم وأبقى على آخرين و بعث بمن يخشى شرهم الى قرطبة و بذلك استقامت له بلاد ريّة

لم يكن الغزو قاصرا فى السنين السالفة على جبال ريّة بل كان يجاوزها الى عدة جهات أخرى ففى سنة ٩٢١م استنزل الناصر ذرارى ابن مستنة من حصونهم فى جبال باغة Priego وأخضع بربر بنى المهلب فى كورة إلبيرة وفى سنة ٩٢٢م حاصر حصن منت روبى وكان من أمنع معاقل بنى حفصون متوسطا بين جيّان وإلبيرة مشيدا على جبل شامخ يعز على من رامه وطالما ألقى الرعب فى قلب الحكومة وكان سكانه يغيرون على القرى المجاورة لهم وينهبونها ويسفكون دماء أبناء السبيل ويسلبون أموالهم ولم يفتحه السلطان الا بعد أربع سنين من حصاره وفى سنة ٩٢٠ اضطر عصاة كورة بلنسية الى الطاعه و بعد سنتين أغزى الناصرقائده عبدالحميد بن بسيل بني ذى النون فانتصرعليهم

رأى السلطان أن لا خوف حينئذ من جهة الجنوب فوجه كل قواه الى عصاة كور أخرى فظفر بهم — ففى سنة ٩٢٨ أغزى قائده أحمد بن اسحق الى كورة تدمير فانخضع عصاتها — وفى السنة التالية

---

(١) دوزى

انتظمت باجة Beja في سلك الطاعة بعد أن قاومت خمسة عشر يوما ثم وجه السلطان جيوشه الى خلف بن بكر أميرأ كشونية فأطاع والتزم باداء الجزية فى كل سنة

وفى سنة ٩٣٠ خضعت مدينة بطليوس بعد ان حاصرها جنود السلطان سنة كاملة وكان يحكم فيها أمير من سلالة ابن مروان الجليقى .

ليكون عبد الرحمن وارثا ملك أسلافه لم يبق عليه الا اخضاع مدينة طليطلة فبدأ بارسال وفد من الفقهاء الى أهلها ينبهم الى أنه ليس من الحكمة أن يتمادوا فى غيهم ويصروا على عصيان السلطان وقد دخلت جميع بلاد اسبانيا فى الجنوب والشرق والغرب فى دائرة طاعته فلم ينجح هذا الوفد فى مسعاه فارسل الناصر فى شهر مايو سنة ٩٣٠ وزيره سعيد بن المنذر الى طليطلة فحاصرها — وفى شهر يونية سار السلطان بنفسه يقود جيشا كثيفا الى هذه المدينة ولما قرب من حصن مورة أمر صاحبه أن يخليه فلم يسعه الا أن بادر بتركه فاقام فيه عبد الرحمن حامية ثم حوّل معسكره الى جبل جرنكش بالقرب من طليطلة وأخذت عساكره تحطم الزروع والاشجار وتحرق القرى التى فى الضاحية وتهاجم الطليطليين بشدة عظيمة ثم عاد السلطان الى قرطبة بعد أن أمر ببناء مدينة على هذا الجبل فاقيمت وسميت بمدينة الفتح فعلم الطليطليون من بنائها ان الحصار يدوم فاستنجدوا بملك ليون

ولكن جيشه صدّته جنود السلطان ــ حينئذ أدركهم اليأس واشتدت بهم المجاعة فاضطروا الى فتح أبواب المدينة بعد حصار سنتين فعاد السلطان اليها ودخلها فى أوائل أغسطس سنة ٩٣٢ وفرح السلطان بهذا الفتح كفرحه بفتح مدينة ببشتر وشكر الله تعالى على ذلك ولزيادة البيان نعيد ذكر بعض الحوادث السالفة مأخوذة عن ابن عذارى مع تصرف فنقول

فى سنة ٣١٤ (٩٣٦ م) أغزى الناصر قوّاده بالصوائف ولم يغز بنفسه فى هذا العام لِخلَلٍ كان فيه وقحط شديد فاخرج عبد الحميد ابن بسيل الى الثغر الذى كان به بنو ذى النون فاوقع بهم اذ كانوا مرقوا عن الطاعة فقتل بعضهم وافتتح مدينة سُرتّه [(١)] فدرّت جبايتها واستقامت ثم قفل عن الثغر وقد استقامت أحواله فاخرجه الناصر الى مدينة ببشتر ليحاصر سليمان بن حفصون فى جملة القواد المحاصرين له فعارض سليمان بعض المغيرين فتبادرت اليه الخيل من جهة عبد الحميد فصرع سليمان عن فرسه فاحتزوا رأسه وقطعوا يديه ورجليه يوم الثلاثاء مستهل ذى الحجة وبعثوا باشلائه الى قرطبة فرفعت فى خشبة عالية على باب السدة

---

(١) بضم فكسر فتشديد أو بضم فسكون ففتح مدينة بالاندلس متصلة الاعمال بأعمال شنت برية وهى شرقى قرطبة منحرفة نحو الجوف بينها وبين طليطلة عشرون فرسخا ــ انظر ياقوت

وفيها هلك العلج شانجة صاحب بنبلونة وفيها كان القحط شديدا والمحل عاما واستسقى بالناس أحمد بن بقيّ ونفذت الكتب الى الكور فى الاستسقاء فنزل الغيث

وفى سنة ٣١٥ (٩٢٧) غزا الناصر الى مدينة ببشتر لمحاربة حفص بن عمر بن حفصون فنزل عليها بجيوشه وحاصرها وأقام على حصارها بعض القواد ثم تنقل عنها الى مدن وحصون أخرى فافتتحها منها مدينة مالقة ثم عاد الى ببُشتر فشدد الحصار عليها بالبنيان حولها وأقام عليها قوادا يضبطون طرقها و يعترضون من يدخلها ومن يخرج منها حتي لايدَعوا للحفصونيين مرتفقا ولا معاشا ثم عاد الى قرطبة فدخلها يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الآخرة وقد استكمل فى غزاته هذه خمسة وستين يوما

لما اشتدّ الحصار على حفص بن عمر بن حفصون بمدينة ببشتر وأحيط بالبنيان عليه من كل جانب كتب الى الناصر يستأمنه على أن يخرج من الجبل فآمنه وجاء الوزير أحمد بن محمد بن جدير به وبآله وحاشيته الى قرطبة فدخلها فى مستهل ذى الحجة وعفا عنه أمير المؤمنين وجعله من جملة حشمه ودخل جنود السلطان مدينة ببشتر لسبع بقين من ذى القعدة وضبطها سعيد بن المنذر وأحكم شؤونها

وفى سنة ٣١٦ (٩٢٨) كانت زيارة الناصر و ولىّ عهده الحكم الى مدينة ببشتر ففصل من قرطبة يوم الثلاثاء للنصف من المحرم مارا

بطريق استجة ثم اشونة حتى احتل ببشتر يوم الاحد لعشر بقين من هذا الشهر فلما دخلها وجال في أقطارها وعاين من حصانتها وعلو مرتقاها وانقطاع جبلها ماأيقن معه ألاّ نظير لها في الارض حصانة ومنعة أكثر من حمد الله على ما افتتح ـ وأمر بنبش جيفتي عمر بن حفصون وابنه فكشفت قبورهما وألفيا مدفونين على ظهورهما فأيقن من شهد ذلك من الفقهاء الغازين معه وغيرهم بانهما هلكا على دين النصرانية فاستخرجا من لحودهما وأتى بأعظمهما الى قرطبة ورفعت في جذوع عالية الى جنب الملحد سليمان بن عمر وصاروا عظة للناظرين . وقلّد الناصر أمور مدينة ببشتر سعيد بن المنذر واستنزل سكان حصون أخرى من أجبلهم وخرّبها ولم يبق للنصرانية بتلك الجهة حصن ولا معقل وعادت كورة ريّة ليس فيها جبل مضبوط ولا عدوّ محذور وأبعد الى قرطبة من تخشى منه الفتنة ليكون الناس أمة واحدة ورعية ساكنة ـ وقدّم عبد الحميد بن بسيل الى كورة شذونة لهدم حصونها وتبسيط أهلها وجمعهم الى مدينة قَلْسانة (١) قاعدة الكورة ـ ثم قفل فدخل مُنْية الناعورة يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣١٦ وقد استتم في سفرته هذه ستة وعشرين يوما

وفي سنة ٣١٧ (٩٢٩) احتبس الغيث وظهر المَحْل وغلت

(١) بفتح فسكون ناحية بالاندلس من أعمال شذونة — انظر ياقوت

الاسعار واستسق بجامع قرطبة يوم الجمعة لليلة بقيت من المحرم . وفيها
غزا الناصر الى مدينة بطليوس فقطع ثمارها وقتل كثيرا من أهلها
وأحرق ما أخلوه من ديارهم خارج سورهم وحاصرهم عشرين يوما
ثم أبقى عليهم أحمد بن اسحاق وفريقا من الجند - ثم انتقل الى ماردة
فأصلح أحوالها و ولاها محمد بن اسحاق - ثم عاد الى بطليوس ونزلت
عساكره عليها من جهة أخرى وأضروها بتشديد الحصار عليها - ثم انتقل
الى باجة وحاربها ونصب عليها المجانيق وقتل كثيرا من أهلها وانحطت
بعض أبراجها فاستأمن صاحبها عبد الرحمن بن مالك أمير المؤمنين
فآمنه وأخرجه وأهله الى قرطبة ودخلها و ولاها عبد الله بن عمر بن
مسلمة - ثم انتقل الى اكشونية بقرب الساحل الغربى فأطاع صاحبها
خَلَف بن بكر فأقره الناصر وفرض عليه من الجباية ما التزم اداءه له
فى كل عام وعهد اليه بحسن السيرة والرفق بالرعية وألاّ يقبل نازعا ولا
يكتنف هاربا فالتزم جميع ما أمر به - وقفل الناصر ودخل قرطبة يوم
الأحد لأربع عشرة ليلة خلت من رجب

وفى هذا العام (٣١٧) افتتحت مدينة شاطبة من بلنسية

وفى سنة ٣١٨ (٩٣٠) افتتحت مدينة بطليوس واستنزل صاحبها
ابن مروان الجليقى وأهله الى قرطبة .

وفيها بعث الناصر وفدا من الفقهاء وذوي الثقة الى الطليطليين
يدعوهم الى الطاعة والدخول فيما دخلت فيه الجماعة فلاذوا بمعاذير

المخادعة وجاوبوا الناصر بما لم يصل اليه فبعث اليهم الوزير سعيد بن المنذر في جيش عرمرم فحاصر طليطلة ثم فصل اليها الناصر نفسه في جيوش كثيفة يوم الخميس ثاني جمادى الاولى واستولى في طريقه على حصن مورة ثم احتل محلة جرنكش بقرب طليطلة ثم نزل محلة المقبرة على باب المدينة فشدد الحصار على أهلها وضايقهم مدة سبعة وثلاثين يوما قطع فيها ثمارهم وخرب قراهم وحطم زروعهم ثم أمر سعيد بن المنذر ببناء مدينة في جبل جرنكش سماها بالفتح وأمر بنقل الاسواق اليها ثم أقام محمد بن سعيد على باب القنطرة في فريق من الجيش وعهد اليهما بالمبالغة في محاربة القوم — ثم قفل الناصر عن مدينة طليطلة ودخل قرطبة يوم الاثنين لاربع خلون من رجب

وفي سنة ٣١٩ (٩٣١) بعث بالخيل الى القواد المحاصرين طليطلة وأمدّهم بالسلاح وأمرهم بالجد والعزم في نكاية المحصورين

وفيها (٣١٩) بلغ المحاصرين عزم الطليطليين على الخروج لانتهاز فرصة في ثغور المسلمين فنفر اليهم الوزير أحمد بن محمد بن جدير من قرطبة في جملة من الجنود فلما بلغهم خروجه سكنوا ٠

وفي سنة ٣٢٠ (٩٣٢) فتح أهل طليطلة أبوابها للناصر فانّ الحصار لما طال واشتدت وطأته عليهم استنجدوا بنصاري الشمال فلم يغنو عنهم شيئًا ولم يكشفوا عنهم ضرا بل هزمهم القواد المحاصرون فلما يئس الطليطليون من أن ينصرهم أحد استأمنوا أمير المؤمنين

فسار اليهم يوم السبت لاربع عشرة ليلة خلت من رجب حتى نزل محلة جرنكش فتلقاه صاحبها ثعلبة مستقيلا من زلته فعفا عنه ثم آمن أهل طليطلة وخرجوا الى المعسكر وابتاعوا المعايش التى طالما أجهدهم عدمها ثم ركب الناصر الى المدينة ودخلها وجال فى أقطارها فرأى من حصانتها ومنعتها مادعاه الى شكر الله تعالى كثيرا على فتحها ثم أمر باقامة بناء محكم ليكون مستقرا للقواد الملازمين فيها وأقام على البنيان قائده درى بن عبد الرحمن وملأها رجالا وسلاحا وتردد فى ربوعها ثمانية أيام يصلح شؤونها ويسوس أمورها حتى حلّت بالمدينة الطمأنينة وفتح أهلوها الحوانيت وانتشروا فى الاسواق آمنين والحمد لله ثم قفل الناصر فدخل قصر قرطبة يوم السبت لعشر بقين من شعبان .

وفيها (٣٢٠) مات الحاجب موسى بن محمد بن حدير للنصف من شهر صفر

يروى رومى وكندى تاريخ عبد الرحمن الثالث فى العشرين سنة السالفة بلسان آخر فيؤخذ منهما ما يأتى :

كانت أسبانيا لاول امارة عبد الرحمن بن محمد تتنازعها قوى مختلفة فأبناء حفصون تغلبوا فى أسبانيا الشرقية على الارض التى يرويها نهر إبرة المتوسط على الجانبين و بعض رؤساء القبائل فى الجنوب نبذوا طاعة الامارة الاموية وأهل طليطلة ما كانوا لها خاضعين واولاد

أذفنش الثالث كانوا فى الشمال يقتسمون حكومة أبيهم فقسّموها الى ثلاث ممالك فأخذ منهم غرسية الارض التى بين نهر دويرة واستوريا والبرارى القوطية المسماة قمپوس Campos وجعل عاصمتها ليون وأردُن تملك على جليقة وفرويلة على استوريا فأول عمل عنى به عبد الرحمن ان هدّأ اسبانيا المضطربة فدعا المسلمين لجهاد أبناء حفصون المخالفين فى طليطلة واسبانيا الشرقيــة فاجتمع تحت راياته جيش كثير العَدد والعُدد يبلغ أربعين الف رجل فقاده عمه المظفر حتى دخل اقليم طليطلة واستولى على قــلاع كانت بأيدى الحفصونيين ولم يجرأ ابن حفصون على المقاومــة بل التجأ هو ورجاله الى اسبانيا الشرقية تاركا لابنــه جعفر الدفاع عن المدينــة العظيمة التى اتخــذها فى قلب اسبانيا مِجَنّا وعضداً لحزبه . عندئذ رأى الأمير ان محاصرتها تطول لوفرة مُؤَنها المدّخرة وامكان ثباتها زمنًا طويلا ففضّــل أن يتركها ويقتفى آثار أعدائه فلما أدركهم رتب المظفّر فرسانه فتولىّ إمرة المقــدمة وأعطى القلب للأمير ابن أخيه والميمنة للوالى عبد الرحمن بن بدر والميسرة الى جَهْوَر بن عبد الله والمؤخرة والعساكر الاحتياطية لعبيد الله بن الغمرى . كانت جنود ابن حفصون أكثر عَدَدا يقودها شــجعان اسبانيا الشرقية وجبال تدمير والبيرة لــكنها كانت أقلّ سلاحا وخيلا تقابل الجيشان فى سهل متسع يمتد بين طليطلة وجبال قُونْــكة Cuenca وأخذت الطــلائع تتناوش ثم التحم الفريقان مــع صرخات أفزعت

القلوب وصيحات أبواق ارتعدت منها الفرائص ودارت رحى الحرب طويلا الى أن رجح جيش الأمير واختل نظام جيش ابن حفصون وتبدد شمله تاركا فى ميدان القتال سبعة آلاف بين قتيل وجريح ملتجئاً الى حصنه قونكة وخسر جيش قرطبة نحو ثلاثة آلاف رجل. أمر الأمير ان يعتنى بالجرحى من الفريقين ثم عاد الى قرطبة يحيط به الحرس تاركا عمه المظفر يداوم الحرب مع الحفصونيين. هذه أول واقعة شهدها الأمير

أخضع المظفر في غزوته هذه اقليم طليطلة من السفوح الشرقية لجبال الشارات الى اقليم تدمير ماعدا مدينة طليطلة وكثيرا من مدن اسبانيا الشرقية فانها لم ترض الا بامارة غالب بن عمر ابن حفصون

وقعت هذه الحوادث فى السنتين الاوليين من حكم عبد الرحمن الثالث

فى اثناء ما كان المظفر يحارب الحفصونيين فى الشرق على شواطئ نهر ابره كان عبد الرحمن يقود جيشاً مؤلفاً من فرسان قرطبة ومن أحراسه الى الجنوب نحو جبال البحر ليخضع العرب المخالفين المستأثرين بأفياء[1] الحكومة وثمرات البلاد وهم الذين عرفناهم فيما سبق يتحصنون فى جبال إلبيرة وشمنتان ورندة ويزدرون بالامراء السالفين ويوالون

---

(١) الافياء جمع فيء ويراد به الخراج

اغاراتهم على أراضى الموالين لحكومة بنى أمية . نجح الأمير فى غزاته هذه وفتح البلاد بشهرته وسياسته ذات اللين والمجاملة وكان يفعل بذاته ما يفعله جيش بسلاحه فقد كان يأتيه كثير من رؤساء القبائل من تلقاء أنفسهم طائعين ملتمسين رضاه سائليه سلاحا يقسمون انهم يستعملونه بصدق فى الذود عن بلادهم وحفظها خاضعة لسلطانه فكان يرحب بهم ويجذب قلوبهم بخطبه البليغة الى درجة انهم كانوا لا يودّون ان يتركوا معسكره و يودّون أن يقاسموه تكاليف الحرب وأخطارها

قد أثّر هذا المسلك الحسن فى تهدئة البلاد المضطربة أكثر مما كانت تفعله قوة السلاح حتى أن المحازبين لحفصون الساكنين فى هذه الاصقاع مدوا أيدى الطاعة لعبد الرحمن فتقبلهم بما فطرت عليه نفسه من الحسنى ناسيا عصيانهم وما جرّوه على البلاد من المصايب وخصص لكل منهم عملا يليق به فانقلبوا يرتقون الفتوق التى اتسعت من جرّاء الحروب الأهلية وشقاق القبائل . وكان من الرؤساء ذوى الشأن الذين أتوا طائعين فى هذه الغزاة الوالى أحمد بن محمد بن أضحى الهمذانى الذى كان قائد العصاة فى جبال إلبيرة فتقبله الأمير قبولا حسنا وقلّده قيادة الحامة وسنراه قريبا يعود الى الثورة ومنهم عبيد الله بن أميّة وكان صاحب قزلونة ومن أتباع حفصون فلمّا جاء مطيعا وهو من الاشراف قلّده الأمير ولاية جيّان

بعد ان زار الامير بلاد البيرة كلها بدون أن يجد مقاومة من أي جانب وبعد أن أخضع رؤساء العصاة الاقوياء وبعد أن فتح ما ينيف عن مائتي مدينة عاد الى قرطبة وأعاد من صحبه من الرؤساء والقوّاد الى مراكزهم وكان دخوله فيها يوم عيد وسرور عام وقد استغرقت غزاته هذه سنة (٣٠٣ — ٩١٥)

لم يذكر المؤرخون حروبا بين المسلمين والنصارى في السنين الاولى من حكم عبد الرحمن الثالث ويظهر أن السلم الذي كان بين عبد الله واذفنش الثالث استمر مدة غرسية كلها أى لغاية يناير سنة ٩١٤ على الاقل

جاء عبد الرحمن الثالث بأعمال جليلة في أول حكمه فنظم شؤون الجوامع والخطابة فيها وضرب نقودا جديدة وضع عليها اسمه وألقابه ونسخ القرآن بيده وشرحه وفسره للناس بنفسه وأمر بانشاء جوامع في قرطبة وغيرها من مدائن الاندلس وباصلاح القديم منها وبانشاء نافورات ماء من المرمر الجميل في جوامع قرطبة واشبيلية يحيط بهذه النافورات بُوحٌ يغرس فيها شجر البرتقال والآس وغيرهما وأمر باصلاح قنطرة النهر الكبير العظيمة المؤدية الى (مسقيتة Mesquita) وخليق بالذكر وجد يربثة الامير من اختاره لادارة هذه الاعمال وهو نصّار أبو عثمان فانه أهل لكل اجلال لاسيما في هندسة الابنية وتصريف المياه وصيانة الطرق والقناطر

في أثناء ما كان عبد الرحمن يقوم بهذه الاعمال في قرطبة كان عمّه المظفر يعيش في الخيام في أسبانيا الشرقية متعقبا عصاة ابن حفصون في هذا الحين جاء الامير كتاب من عمّه يخبره بانه غلب العصاة في كل جهة وانهم التجوءا الى الجبال ولا يجرءون علي دخول القرى الاّ خلسة ومع هـذا يدعوه الى الحضور لاتمام اخضاعهم وتوطيد دعائم الراحة والامن في البلاد وانه ينبغى لاجل ذلك أن يجمع الخيل والرّجـل من كورة تدمير ويطاردبهم العصاة ويقسو عليهم ويدع معهم سياسة اللين والرحمة جانبا فهم لايدركونها وربما عدّوها ضعفا

من أجل هذا الـكتاب كتب الامير الى قوّاد بلاد تدميرو بلنسية الطائعين أن يأخذوا أهبة الحرب في أول فصل الربيع لغزو البلاد التى لازالت في قبضة العصاة ثم توجّه الى كورة تدمير فقوبل مع تهليلات الفرح والسرور من سكان المدائن مرسية وأريولة ولورقة وكنتدة (١) Kenteda وزار المدن إلش ودانية وشاطبة ونوله (٢) Nules وطرطوشة وكان يقابل في كل مكان بعلائم الابتهاج — واقتفى شواطىء نهر إبرة الى أن وصـل الى القنت Elcanith ووقف فيها زمنا يستقبل رؤساء القبائل الذين أتوا اليه طائعين وكانت قضت عليهم الاحوال بالاندماج في حزب أبناء حفصون ثم رحل عنها في

---

(١) كنتدة بلدة بالاندلس كانت بهاوقعة مشهورة بين المسلمين والفرنج سنة ٥١٤

(٢) قال ياقوت نوله بكسرأوله وفتح ثانيه حصن من أعمال مرسية بالاندلس

جيش كثيف حتى وصل في وقت قريب أمام مدينة سرقسطة وللغالب ابن حفصون فيها أشياع كثيرون ولكن أغلب سكانها شهروا أميالهم الى الامام عبد الرحمن الناصر وفتحوا أبواب المدينة وقدّموا أنفسهم لرحمة الخليفة فلقيهم بما جبل عليه من الرأفة وشمل جميع السكان بعفوه حتى الحفصونيين ولم يستثن الا أبناء حفصون انفسهم فان العفو عنهم يقتضى روابط وثيقة — وفى اليوم التالي دخل عبد الرحمن سرقسطة وكان دخوله يوم عيد عند الاهلين وأقام فى قصرها أياما اخلادا الى الراحة مسرورا من وضعها ومزارعها الجليلة — وقتئذ أرسل اليه ابن حفصون قائدين يخابرانه فى الصلح فقابلهما الامير فى معسكره على شواطيء نهر ابرة غير محتفل بهما فعرض عليه أكبرهما بأدب أن الامير حفصون يرغب أن يعيش بسلام مع الأمير عبد الرحمن وأنه يأسف على الدماء المسفوكة فى هذه الحروب وانه فى مقابل ذلك يتعهد بالدفاع عن حدود هذه الجهة ويساعد الامير بجنوده عند الحاجة وأنه يقدّم برهانا على اخلاصه أن يسلّم طليطلة وهو سقار Huescar وجميع الحصون التى فى قبضته ـ فأجابهما الامير بتؤدة أنه يألم من أن يرى فردا من رعيته شاقّا عصا الطاعة يجرأ على أن يعرض على ملكه أمير المؤمنين شروطا للصلح ويسلك مسلك أمير ـ ارجعا وقولا له ان لم يأت طائعا فى ظرف شهر لاأقبله بعده أبدا ـ رجع الرسولان يجران ذيل الخيبة . بعد أن وطّد الامير دعائم الحكومة فى سرقسطة وأقام عمّه

المظفّر فيها كى يوالى الحرب على الحدود عاد الى قرطبة زائرا فى طريقه قسما كبيرا من اسبانيا الداخلة

لما حلّ ركابه فى قرطبة قابلته الامـة بتهليلات الفرح والسرور لـكن كدّر صفوهم ان جاءت أنباء تفيد بان عصاة جبال رندة قاموا بحركات جديدة تحت قيادة ابن أضحى الهمذانى [١] وأن أكثر من مائة مدينة دخلت فى طاعته وسبب ذلك أن وزيرا دخل اقليم رندة ومعه فئة من العساكر وأجبر الأهلين على دفع المتأخر عليهم من غـلال الزكاة [٢] فـكبر هـذا الأمر على عظماء العرب والمولدون فثاروا وقتلوا أغلب الفئة واتسعت دائرة الثورة واجتمع شيوخ هذا الاقليم واختاروا ابن أضحى رئيسا عليهم واقبوه بالذِمر [٣]

غضب عبد الرحمن من خيانة الذَمِر وأشياعه وليعاقبهم ويدفع غائلتهم عن المدائن الموالية له والمضطهدة منهم سار فى جيش مؤلف من فرسان قرطبة وجنود استجة وغيرها فأجلى العصاة عن المدن التى احتلوها ودفعهم الى الجبال ثم دخـل جيّان يوم الخميس رابع عشر شعبان سنة ٣٠٦ (١٩ يناير سنة ٩١٩) ليستريح من مطاردة العصاة وليعهد الى واليها باخضاعهم ثم عاد الى قرطبـة ومعه شاعر يسمى

---

(١) سبق ان هذا جاء الامير طائعا فقلده ولاية الحامة

(٢) يعنى خراج الارض (٣) يقول رومى Somor فعربناه بالذمر كـكتف أى الشجاع فحقق

أغلب بن شعيب

ما استقر قراره بقرطبة حتى جاءه نبأ من عمه المظفر يخبره بفوزه على الحفصونيين وبموت غالب بن حفصون فى حصن من اقليم وشقة فى آخر سنة ٣٠٦(مايو سنة ٩١٩)

وقد خلفه ولدان سليمان وجعفر فحمد الله عبدالرحمن على موت هذا الطاغية الباذر بذور الشقاق بين المسلمين

فى الوقت عينه حل وباء باسبانيا والمغرب خرّب البلاد وأهلك العباد وعكف الناس على المساجد يتضرعون الى الله أن يدفع عنهم سيل هذا البلاء الجارف وقد مات فيه اسماعيل بن بُشَير Boshair امام جامع قرطبة الكبير وكان مشهورا موقرا فدفن فى مشهد حافل ومع هذه الداهية الدهماء هبّت زوابع شديدة مكثت أياما حتى اجتثّت اشجارا وقوّضت بيوتا . مع انتياب هذه الكوارث لازالت المعارك تتعاقب بين والى جيّان لب بن عبيد الله والذمر والى الحامة وقائد عصاة جبال إلبيرة حتى استنجد لب بوالى قرمونة اسحاق بن ابراهيم بن صقر العقيلى لكن لم تجد مساعدته نفعا بل قهرهما الذمر وكاد ينقض على جيّان . حينئذ جاء اسحاق قرطبة وبلّغ الامير أنباء هذه المعارك المحزنة فجمع عساكره وقادهم بنفسه الى جيّان فما وسع العصاة الا أن يتركوا أرضها ويلتجئوا الى جبالهم وأدرك الذمر وأصحابه المخلصون له حصن الحامة فحصره الخليفة فيه وكانت حوائطه ثخينة جدا

ومحصنة بالابراج فأمر الامير جنوده أن يثلموا فيها ثلمة بالمعاول والنار ففعلوا ودخلوا المدينة وقتلوا رجالها و وجدوا بين جثث القتلى الذّمِر مغطّى بالجروح يكابد سكرات الموت فأحضروه الى عبد الرحمن فأمر بقطع رأسه وارساله الى قرطبة وكان ذلك فى أول سنة ٣١١ أو آخر سنة ٣١٠ أى فى فصل الربيع من سنة ٩٣٦ [١] للميلاد فى افريل أو مايو ثم توجه الامير من الحامة الى غرناطة ووقف فيها أياما اذ راقه جمال موقعها على نهر (الشنيل) فى راد خصيب ذى بساتين بهيجة وأمر أن يبنى فيها مسجد جامع ونَصَب أبا حسن علي بن عمر المرواني قاضيا لها

بعد موت الذّمِر قطع سكان برجالة وجبال (نقادة) كل أمل فى المقاومة فأتوا خاضعين بين يدى الخليفة معترفين بسلطانه وعلوشأنه

بعد أن سكّن عبد الرحمن اضطراب جنوب اسبانيا حوّل انظاره الى فتح طليطلة وقد مكثت زمنا طويلا فى أيدى أبناء حفصون . رأى ان منعتها تحول دون الهجوم عليها وفتحها عنوة فعمد الى وسيلة أخرى وهى التضييق عليها بالحصار الحازم وقطع معايشها حتى تضطرها المَخْمَصة الى التسليم فأمر عبد الله بن يعلى Ialy [٢] والى

---

(١) كذا فى رومى « ص ١٣٠ ج ٤ » وهو سهو فان سنة ٣١١ تنحصر فى سنة ٩٢٣ وسنة ٩٢٤ كما فى التقويمات

(٢) كذا فى رومى « ص ١٣٢ ج ٤ » ويقول فى موضع آخر « ص ٢٠٠ ج ٤ »

سُمرِيّة Zurita بأن يقود جيوش طلبيرة وقلعة رباح الى طليطلة ويتلف مزارعها ويحاصرها بشدة فأخذ هذا يجول في ضواحيها وجيوشه تقطع الزروع والنخيل والأعناب وتمنع الطليطليين من جنى ثمراتهم واستمر ذلك سنتين حتى ان جعفر بن حفصون الذى كان يدافع بشخصه عن المدينة رأى انه لا يمكنه المحافظة عليها بدون مؤونة لكن كبر عليه ان يُرَى مضطرا الى تسليم نفسه الى أعدائه فجمع ما يستطيع من النقود وعهد بالدفاع عن المدينة الى أحد قوّاده وخرج منها وقد أخذت طلائع الصباح تهزم جيوش الليل مع نخبة من جيشه وبعض أخصّائه متجنبا لقاء أعدائه لضعف قوّته

وذلك انه في السنة الثالثة من الحصار أمر الخليفة ولاة ماردة وبلنسية ان يرسلوا أمدادا الى عبيد الله فاجتمع جيوش كثيفة حول طليطلة وحلّ معسكر كثير العدد في جهة الجوف أو الشمال وهو الجانب الوحيد الذى يمكن منه أن تهاجم المدينة فان مياه التاجة لا تحيط به وأما الجهة الذي يجرى فيها النهر فكان يظهر للمحاصرين انها منيعة فان الجبل التى هى عليه مرتفع غير مطروق . حينئذ رأى عبد الرحمن أن حان الوقت المناسب ليحاصر المدينة بنفسه فتوجه مع حرسه ونخبة من أشراف قرطبة الى معسكر طليطلة فأثّر حضوره فى نشاط

عبيد الله ابن احمد بن يعلى Yali ويذكر ابن عذارى « ص ٢٣٥ ج ٢ » ان من قواد الناصر عبدالله بن أحمد بن يعلى

المحاصرين وتشديد الحصار ولما لاحظ أنهم استولوا على الجزء الاعظم من مبنيّات قديمة (ربما كانت قوطيـة) قائمة بين المعسكر والمدينة أمر بهدمها ـ صارت طليطلة حينئذ مضغوطا عليها بشدة من الجهة التى يمكن ان تؤخذ ومحدقا بها بهمة زائدة على طول الجانب الذى يرويه نهر التاجة حتى صارت كل مقاومة مستحيلة لما رأت المدينة أنها محاطة بجيوش من نخبة اسبانيا الجنوبية وان المجاعة حلت بها افتكرت فى أن تسلم وفكر ابن حفصون فى ايجاد طريقة يتخلص بها من المدينة التى أحدقت بها الجيوش السلطانية وضيقت دائرة الحصار عليها فجمع كبراء المدينة للتشاور فى الامر فكان من رأى عقلائهم أن يتركوا أنفسهم الى رحمة الخليفة . وليحسنوا الاعتذار عن مقاومتهم العنيفة الطويلة رأوا من المناسب أن يمهلوا صباح يوم الهروبَ على ثلاثةِ أو أربعةِ آلاف من الشجعان المدافعين عن طليطلة وان يفتحوا فى الحال الابواب لعبد الرحمن ـ استحسن جعفر هذا الرأى وأخبر به رفقاءه وشجّعهم على اتباعه بدون مهلة منذ فجر اليوم الثانى

لاح الفجر والنوم راخ سدوله على المعسكر لكن بعض الخيل انتبهت من ضوضاة سير فى الأرض وقد قرب الصباح فصهلت فى مدخل الخيام وقد خرج بغتة الفا فارس وفتحوا لأنفسهم ممرا فى خلال معسكر العدو وكان كل فارس يردف وراءه راجلا وقد كاد ينجو نحو أربعة آلاف رجل فى خلال هرج ومرج الا أن أفرادا منهم

أُمسكوا . وقد حمل عساكر قرطبة كلهم السلاح غير أن الخليفة لما أدرك أن جعفرًا وجنوده هربوا من طليطلة منع جنوده من أن يقتفوا آثارهم وقوى أمله فى الدخول حالا الى المدينة . وقد تحقق هذا الامل فى اليوم عينه فقد حضر اليه رسل من أهل المدينة يلتمسون عفوه ويعتذرون فعفا عنهم وعذرهم لاقامتهم فى المدينة وخروج ابن حفصون وجنده منها واستأمنوه على أرواحهم وأموالهم فآمنهم وفتحوا له أبواب المدينة فدخلها فى موكب حافل فقوبل من الاهلين بتهليلات الفرح والسرور من كل جانب وقد وافق دخوله المدينة سنة ٣١٥ [1] (٩٢٧) بعد ان مضى عليها ماينيف عن ٤٢ سنة وهى خارجة عن حكم الامويين وقد عهد بحكومتها الى عبد الله أول محاصريها ورجع منصورا الى قرطبة فى نهاية هذه السنة ٣١٥

﴿ حروبه الخارجة ﴾

استطاع عبد الرحمن الثالث أن يطفئ نيران الثورات المشتعلة في أنحاء الاندلس فى نحو احدى وعشرين سنة وكان خاتمة ذلك فتح طليطلة فى سنة ٣٢٠ كما قصصنا ذلك آنفا . لم يكن يزعزع أركان دولته هذه الثورات وحدها بل كان يهدد كيانها أيضا قوتان

(١) اختلف المؤرخون في تاريخ فتح الناصر طليطلة فمنهم من يذكر أن فتحها كان فى سنة ٣١٥ كما فى رومي وابن الاثير وأبي الفداء ومنهم من يذكر الفتح في سنة ٣٢٠ كما فى دوزي وابن عذارى فابحث وحقق

مجاورتان لها وهما مملكة (ليون) القديمة فى شمال اسبانيا ودولة الفاطميين الحديثة فى افريقية [١] فكان بينهما و بين دولة الامويين حروب

ففى أول ولاية عبد الرحمن الثالث لم يكن فى عزمته غزو الليونيين (الجلالقة) ومع هذا بدؤا الاندلسيين بالعدوان فان ملكهم (أرْدُن) الثانى عاث بجيوشه سنة ٩١٤م (٣٠٢هـ) فى أرض ماردة يحرق ويقتل حتى استولى على حصن (الحنش) [٢] وضرب رقاب حاميته واستعبد نساءهم وأولادهم ففزع أهل بَطَلْيَوْس من ذلك فجمعوا هدايا نفيسة وقدموها اليه فقبلها وانصرف منصوراً مثقلا بالغنائم واجتاز نهر التاجة ونهر دويرة وعاد الى (ليون) وبنى كنيسة للعذراء شكرا على فوزه

فأراد عبد الرحمن أن ينتقم من أُرْدُن لأهل ماردة وان لم يدخلوا فى طاعته ليجذب قلوبهم اليه فاغزى الى أرض ليون فى يوليو سنة ٩١٦ (٣٠٤) جيشا تحت قيادة الوزير ابن أبى عبده فوطئها ونكى فى الاعداء وغنم وسبى وعاد سالما

ثم أغزاه اليها ثانية فى السنة التالية لان سكان التخوم شكوا من احراق الليونيين قُوَرَى طلبيرة على نهر التاجة وأمره أن يحاصر قلعتهم العظيمة

---

(١) انظر الذنابة الاولى الآتية (٢) كذا الاسم فى تاريخ بن خلدون ويقول دوزي قلعة Alanje

(شَنت اشْتيبَن San Estevan)[1] ويسمونها قاشتر مورش فقاد ابن أبي عبده جيشاً كثيفا قسمٌ من عساكره بربر جلبهم السلطان من طنجة فشدّد الجيش الحصار على هذه القلعة حتى كادت حاميتها تخضع وتسلم لولا أن أنجدها أردن فجاء وهاجم بخيله ورَجْله ابن أبي عبدة . وكان في جيشه ممن لا يعتمد على شجاعتهم ولا ولائهم سوى البربر كثيرٌ من أهل الثغر ذوى النفاق فصاحوا وأظهروا الهزيمة وتبعهم غيرهم وأخلّوا بنظام الجيش لكن ثبت القائد ومن كانوا على شاكلته من الابطال ودافعوا وآثروا الموت في حومة الوغى على عار الفرار فقتلوا جميعا وقال بعض المؤرخين أن الباقين من جيش المسلمين اتحدوا وخرجوا بدوابّهم وأثقالهم الى أرضهم سالمين[2]

لم تقطع هذه الكارثة حبل الامل من عبد الرحمن بل أخذ يتأهب لاعادة الكرة على الليونيّين في السنة التالية لكن صرفه عن ذلك وقوع الخلاف في انحاء الاندلس وماهو حاصل في أفريقية من اغارة الفاطميين على بلاد المغرب فخشى ان تم لهم فتحها أن يولّوا وجهتهم نحو أسبانيا فطفق يمدّ يد المساعدة الى امراء هذه البلاد حتى يكون المغرب مِجَنّ مملكته دون المغيرين فانه لما تغلب عبيد

---

(١) الاسم العربي من ابن عذارى ص ١٨٦ ج ٢ والافرنجي من دوزى ص ٣٤ ج ٣ ويقول ياقوت شنت اشتانى كورة من الاندلس

(٢) انظر دوزى ص ٣٥ ج ٣ وابن عذاري ص ١٧٨ ج ٢

الله المهدى على أفريقية كتب الى سعيد بن صالح [١] أمير نكور [٢] بالمغرب يدعوه الي طاعته وفى أسفل الكتاب أبيات منها

فان تستقيموا استقم اصلاحكم — وان تعدلوا عني أُقتّلكُمُ قتْلا
وأعلوا بسيفى قاهرا لسيوفكم — وأدخلها عنوا واملؤها عدْلا

فرفض سعيد وكتب شاعره في الذيل

كذبتَ وبيتِ الله لا تعرف العدلا — ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت الاّ كافر ومنافق — تميل مع الجهّال فى السُّنة المُثلَى
وهمّتنا العَلْيا لدين محمد — وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فأحفظ هذا الجواب عبيد الله فكتب الى عامله فى تيهرت المسمى مصالة بن حبوس يأمره بمحاربته فنهض في ذى الحجة سنة ٣٠٤ ونزل على مسافة يوم من مدينة نكور فخرج اليه سعيد فحاربه ثلاثة أيام بدون أن يظهر أحدهما على الآخر لكن خان سعيداً أحدُ قوّاده [٣] فرجح عليه مصالة وغلبه وقتله واجتزّ رأسه ودخل مدينة نكور سنة ٣٠٥ وانتهبها وقتل رجالها وسبى النساء والذرارى ونجا

---

(١) من سلالة عربية ملكت نكور وأرضها منذ زمن الفتح وبينها وبين دولة بني أمية فى الاندلس مودة وتراسل

(٢) مدينة بالمغرب الاقصى تبعد عن البحر بخمسة أميال بناها سعيد بن ادريس وهى الآن مدينة المزمة أو قريب منها كذا يؤخذ من ابن عذاري ص ١٧٩ و ١٨٣ ج ١ ولم أر كليهما في معجم ياقوت

(٣) انظر ابن عذارى ص ١٨٢ ج ١

بنو سعيد لانهم فرّوا منها وركبوا البحر الى الاندلس فنزلوا مالقة فأمر الناصر بالاحتفال بهم وأكرام مثواهم وأفاض عليهم سحائب نِعَمه وخيّرهم بين المقام فى مالقة والنزول في قرطبة فاختاروا الاولى ليكونوا على مقربة من مجرى الحوادث فى وطنهم — عاد مصالة الى تاهرت بعد ان أقام في نكور ستة أشهر واستخلف عليها قائداً كتاميا اسمه ذلول وهذا انفضّ مِن حوله أغلب عسكره وعلم بنوسعيد بالامر وكانوا ثلاثة ادريسَ والمعتصمَ وصالحا فامتطى كلٌّ منهم ثَبَجَ البحر فى سفينة فى ليلة واحدة قاصدا نكور بعد أن اتفقوا على أن من يصل منهم قبل أخوَيْه فله الامارة فسبق الى الشاطئ أصغرهم وهو صالح بن سعيد فلاقاه الاهلون بحماسة شديدة وأعلنوا امارته وذهبوا به الى نكور وقتلوا ذلولا وجنده وأعلن الامير صالح سيادة الخليفة الناصر على بلاده وكتب اليه يشكر له على جميله ويهنئه بالنصر فأمدّه الخليفة بالاسلحة والخيام والرايات

أَلْهَتْ حوادثُ نكور عبدَ الرحمن عن ان يقتصّ من الليونيين لقتلهم قائدَه الشجاع ابن أبي عبده وأبطاله وهزْمِهم جيشه لكنّ نصارى الشمال جاءوا بما نبّهه الى ادراك ثأره

فى فصل الربيع من سنة ٩١٨ الميلاد (٣٠٥ للهجرة) خرج اردن ابن اذفونش صاحب ليون وشانجة بن غرسية صاحب بنبلونة في

جموع كثيفة الى مدينة ناجرة [1] بالثغر الاقصى وعاثت الجموع فى ذلك الثغر وأفسدت الزروع ثم تنقلت الى تطيلة و بلغت نهر كالس وجوائز مسقيرة ووادى طرسونة [2] وعبرشانجة نهرابرة وقاتل حصن بالتيرة وقهر أهل الربض وأحرق المسجد الجامع فأحفظ ذلك كله عبدَ الرحمن الناصر وحرّكه لحربهم

ففى سنة ٣٠٦ اغزى حاجبه بدر بن أحمد اليهم وهى غزاة مطونية ففصل في جموع كثيرة يوم الثلاثاء لخمس بقين من المحرم ودخل أرض ليون و واضع الليونيين القتال مرتين بالقرب من موضع يسمّى (مطونية) وظهر عليهم وقتل كثيرا من حُماتهم وأبطالهم وجنودهم وألجأ المنهزمين منهم الى الاعتصام بالجبال وتم الفتح لخمس خلون من ربيع الاول وورد الكتاب بذلك على أمير المؤمنين يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة خلت من هذا الشهر فشكر الله على ذلك وقرئ كتاب الفتح في الجوامع وكتب به الى الاطراف [3]

بهذا الفوز محا عبد الرحمن عارما لحق بجيشه فى العام الماضي من القتل والهزيمة لكنه رأى أن هذا القصاص لم يكف لردع الليونيّين ورام فوق ذلك ان ينال شرف النصر بنفسه

---

(١) قال ياقوت ناجرة بكسر الجيم مدينة في شرقي الاندلس من أعمال تطيلة وهي الآن بيد الافرنج (٢) قال ياقوت بفتح أوله وثانيه مدينة بالاندلس من أعمال تطيلة

(٣) دوزى وابن عذاري ص ١٧٩ و ١٨٠ ج ٢

ففى سـنة ٣٠٨ (٩٢٠) غزاهم غزاة (مُوَيْش Muez)
ففصل اليهم يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من المحرم وفى اليوم
الرابع من فصوله نزل بمخاضة الفتح وورد عليه كتاب من قبل عامل
مدينة الفرج يذكر فيه أن أهل جليقية أغاروا على ما ألفوْه فى بسيطهم
من الدوابّ والسوام وأنهم كانوا بحصن القليعة طامعـين فى التغلب
عليه فهبّ اليهم أهـل المدينة بفارسهم وراجلهم وواضعوهم القتال
حتى قهروهم وقتـلوا وأسروا كثيرا منهم فتفاءل الناصر بالـكتاب
ونهض بعساكره حتى نزل مدينة الفرج فنظر لاهلها وعزل بنى سالم
عنهم واستعمل على المدينة صهره ابن غزلان واستقضى عليهم محمد بن
مسرور الفقيه فصلحت أحوالهم ثم نهض الناصر فى جيوش تغَصّ بها
السُّبل ويضيق بها الفضاء حتى احتـلّ بثغر مدينة سالم فورد عليـه
كتاب من علج حصن وخشمة يَعِده ويمنّيه اذا صرف جيوشه عنه
ووجّهها الى جهـة أخرى فأرى الناصر أنه أعار كتابه أذنا واعيـة
وأظهر التوجّه الى الثغر الاقصى نحو نهر ابرة وقدمت المقـدمة نحوه
لـكنّه فى الحال حوّل جيوشـه الى اليسار وسار مسرعا حتى احتل
بوادى دويرة وباتت العساكر عليـه ثم أخرج فى الصباح الوزير
سـعيد بن المنذر فى جرائد الخيـل وسَرَعان الفرسان الى حصن
وخشمة فغشوه على حين غفـلة من أهله وأصابوا نَعَمهم وسَوَامَهم
ودوابِّهم مهملة فاكتسحوها وانصرفوا الى المعسكر سالمين غانمين ـ

وفى صباح الجمعة لاثنتى عشرة ليلة بقيت من صفر اندفعت الخيل فى أكمل تعبئة الى هذا الحصن ففرّ عنه أهلوه وأخلَوْه ولاذوا بالغياض والصخور فدخله عساكر الناصر وغنموا ما فيه ثم رحلوا عنه الى حصن قاشترموريش وهى شَنْت اشْتِبَن [1] بيضة النصارى وقاعدتهم فلما رأوا المسلمين أخلوا الحصن وفرّوا عنه فدخله المسلمون وغنموا ما فيه وخرّبوا حصن النبيلة المجاور له ثم ارتحل أمير المؤمنين الى مدينة قلونية وكانت من أمهات مدنهم فألفَوْها خالية قد شرد عنها أهلها فغنم المسلمون ما أصابوه فيها وخرّبوا ديارها وكنائسها ثم ارتحل الناصر عنها الى ثغر تطيلة ملبّيا نداء مسلميها اذ كان العلج شانجة قد ضايقهم فقطع السلطان المفاز الاعظم مسايرا لوادى دويرة حتى احتل حَوْز تطيلة ثم قدّم الخيل مع محمد بن لب عاملها الى حصن قَلْمَرة [2] وكان فيه شانجة فأخلاه وضبطه المسلمون ثم نهض الناصر الى حصن قَلَهُرّة وكان شانجة قد اتخذه معقلا فأخلاه وغنمه المسلمون ثم التقى جيش الناصر وجمع شانجة على حصن أُرْنيط [3] فاقتتلا فانهزم الجمع حتى توارى فى الجبال تاركا كثيرا من القَتْلى والجَرْحَى وبات المسلمون ظاهرين على

---

(١) كذا فى ابن عذارى والذى فى ياقوت شنت اشتاني كورة من الاندلس

(٢) كذا اسم الحصن فى ابن عذاري ويقول دوزى Carcar قرقر أو كركر فحرر

(٣) بضم فسكون مدينة فى شرقى الاندلس من أعمال تطيلة مطلة على أرض العدو ... ياقوت

عدوّهم منبسطين فى قراهم ومزارعهم ثم ورد الخبر على الناصر باجتماع العلجين أُرْدُن وشانجة وتماضدهما طامسين فى اعتراض المقدّمة أو انتهاز فرصة فى الساقة فامر عبد الرحمن بتعبئة العساكر وضبط الاطراف وأوغل بهم فى بلادهما وواضع رجالُه وأبطالُ الثغر وحماتُه اعداءهم القتال حتى هزموهم وشتتوا شملهم وأخذوا يقتفون آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام ولجأ عند الهزيمة أزيد من ألف علج الى حصن مُوَيْش ورجَوْا التمنّع فيه فأمر الناصر بتقديم المظال وخيام العسكر الى الحصن فأحيط به من جميع جهاته حتى تغلبوا عليه واستخرجوا جميع العلوج منه وضربوا رقابهم بين يدى الناصر وأصابوا من الامتعة والحلى المتقنة والآنية والثمرات والانعام والخيل مالا يكاد يُحصى كثرة ثم انتقل الناصر الى حصون المسلمين ينظر فى مصالحهم فكلما ألفى بقربها معقلا للمشركين هدمه وأحرق بسيطه حتى اتصل الحريق فى بلادهم عشرة أميال مربعة واجتمع عند الجنود من الأطعمة والخيرات ماعجزوا عن حمله ولم يجدوا لها ثمنا تباع به حتى كانوا يبيعون ستة أقفزة من القمح بدرهم فلا يوجد من يشتريها

وقفل الناصر يوم الثلثاء لثلاث بقين من ربيع الاول حتى انتهى الى مدينة انتيسة [١] فأقام بها يوما و وصل رجال الثغر فكساهم وحملهم

---

(١) كذا الاسم فى ابن عذارى بنون فتاء فياء ويقول دوزى Atienza ولم أجد

وأذن لهم في الرجوع الى مواطنهم ودخل قصر قرطبة يوم الخميس ثالث عشر ربيع الآخر وقد استكمل في غزاته هذه تسعين يوما [١]

كان يظن بعد ما حاق النصر المبين عبد الرحمن في غزوة (مُوَيْش) أن نصارى الشمال يسكنون زمنا طويلا عن شنّ الغارات على ثغور المسلمين لكن بعد سنتين هَبَّ (أرْدن) وملك ناجرة وأغار (شانجة) على بقيرة واستولى عليها وقتل من كان فيها من الاشراف ووجوه الرجال كبني ذي اللُبّ وبني ذي النون فجرح هذا الخطب قلوب مسلمي أسبانيا وأثار أشجانهم فهب سلطانهم ليشفي نفوسهم بادراك ثارات المقتولين

ففي سنة ٩٢٤ (٣١٢) غزا عبد الرحمن النفاريّين ففصل من قرطبة في افريل (المحرم) ووصل نفارة (أرض بنبلونة) في ١٠ يوليو (٤ ربيع الآخر) فأفزع اسمه اهليها حتى انهم كانوا يفرّون من حصونهم عند قربه منها فمرّ على حصون كركر Carcar (قَلْقَرة) وبِرَالته Peralta (بيطرة ألتة) وفلسس Falces (فالجش) وكَرْكَسْتِلّو Carcastillo (قَرْقَسْتال) وجنوده يدمّرون ويُحَرّقون كل مامروا به ثم توغل في داخل البلاد متجها نحو عاصمتها وقد حاول شانجة مرّات أن يوقفه في المضايق فخاب وخسر في كل مرة . بلغ عبد الرحمن بنبلونة ولم يعقه عائق فأخلاها أهلوها فخرّب

لكليهما مرجعاً فحرر (١) ابن عذاري

عساكره جملة بيوت منها وكنيستها التى كان يحج اليها كثير من النصارى في كلّ عام وكذا خرّبوا كنيسة أخرى على جبل قريب منها أنفق شانجة على بنائها نفقات طائلة وقد اجتهد في الذّود عنها فلم يفلح وجاءته أمداد من قسطيلة هجم بها على المسلمين وقد أخذوا فى القفول فصدّوه وباء بالخسران وعادوا مظفّرين ولم يخسروا فى هذه الغزاة الا قليلا ويسمّونها غزوة بنبلونة ٠

عربنا ماذكرناه فى هذه الغزاة من تاريخ دوزى مع تصرف ومأخذه فيها تاريخ ابن عذارى وقد أسهب فى هذا الموضوع بما لا يخلو عن زيادة افادة وتبيان فلذا رأينا أن نأتى بما قال بعد تشذيبه وهو :

فى سنة ٣١١ حاصر أهل بنبلونة حصن بقيرة وكان فيه عبدالله ابن محمد بن لب ومعه مطرف بن موسى بن ذى النون ومحمد ابن عمه وكثير من وجوه الرجال فتغلب العلج شانجة عليهم جميعا فأسرهم ثم قتلهم

وفى سنة ٣١٢ غزا الناصر الى دار الحرب الغزوة المعروفة بغزوة بنبلونة اذ أحفظه مادار على بنى لب وبنى ذى النون بحصن بقيرة [1] ففصل من قرطبة يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من

---

(١) قال ياقوت (بقيرة) بالفتح ثم بالكسر مدينة فى شرقي الاندلس معدودة فى أعمال تطيلة — وبقيرة أيضاً حصن من أعمال رية

المحرم فاحتل أول خروجه بمحلة (بالش)، ثم أمّ كورتي تدمير و بلنسية واستصلاح أحوال أهلها ..... ثم نهض في عساكر كثيرة العدد حتى دخل ثغر تطيلة وتلقاه عمال الثغر في جنود عظيمة وعدة كاملة فدخل بلاد المشركين فحل حصن (قلقرة) Carcar وكان العلج شانجة قد أخلاه فأمر بهدمه واحراق مافيه ثم تنقل الى موضع (بيطرة ألته)[1] وكان حوله حصون أخلاها أهلوها وتركوا في بسيطها أمتعتهم وأطعمتهم اذ عوجلوا عن نقلها ولجأ علوج منهم الى ثلاثة غيران في شفير جرف على النهر فلم يزل العسكر يتسورون عليهم من أعاليها حتى افتتحوها وقتلوا العلوج وسبوا الذراري وغنموا الأمتعة وهدموا حصون تلك الجهة

ثم دأب الناصر يتنقل الى حصون شتى وجيوشه يحرقون ويخربون وينتهبون الأطعمة وكان أخيرها حصن قرقستال على وادي ارغون ثم أوغلوا في بلدهم ليتوصلوا الى موضع قرارهم ونكايتهم في عقر دارهم فتقدموا من فج المركوير في أتم تعبئة فدخلوا مواضع غير مسلوكة حتى نزلوا بقرية بشكونسة فهدموا مبانيها وأحرقوا ما كان فيها فجمع العلج شانجة جموعه واستمدّ ببني جنسه فامدّوه ورجا بمن

---

(١) قال ياقوت بيطرة بالفتح اسم لثلاثة مواضع بالاندلس .... بيطرة شلج حصن منيع من أعمال أشقة و (بيطرة لش) حصن آخر من أعمال ماردة (وبيطرة) بلدة وحصن من أعمال سرقسطة —— ولعل هذا الاخير المراد بحصن بيطرة التة

اجتمعوا اليه ان يكافح جيوش قرطبة ولـكن خاب أمله فان جيوش
الناصر لما توسطوا بين وادي هيغة هبطت خيل شانجة من الاجبل
فعبر العسا كر اليها النهر و واضعوها القتال حتى هزموها الى مرتقى وعر
وجبل منقطع فتقحموا عليها وقتلوا جملة منها وأصابوا الغنائم والسوام
وضروب النعم وانصرفوا ولم يصب منهم غير يعقوب بن أبي خالد
التوبرى ونفر يسير — ثم ارتحل الناصر الى محلّة لنبيرة ثم الى محلّة لعين
والجيوش لا تمر بموضع الا اصطلمته وتملفت زروعـه وهدمت قراه
وحصونه الى ان بلغ مدينة بنبلونة فوجدها خاليه فدخلها وأمر بهدم
بنيانها ثم انتقـل الى صخرة قيس فأحرقوا كنيستها ولم يقو العلج على
حمايتها بل ولّى مهزوما وصرع من كان عنـه محاميا ثم تنقل الناصر
الى محلّة أسارية وكان في ممره اليها فجّ هرقلة ضـيق المسلك وعر
المجاز فرام النصارى انتهاز فرصـة في المسلمين فأمر الناصر بالتعبئة
والاحتراس وجاوزت عساكره ذلك المضيق لـكن أعداءهم اعترضوا
الساقه متسنمين لأعلى جبل فنهضت الخيـل اليهم وقتلت طائفة منهم
وهزمتهم فانقشعوا مدبرين ثم نزل المسلمون محلة اسارية ثم ارتحلوا
من موضع الى موضع يقتلون و يخربون الى أن وصلوا الى شنت اشتيبن
موضع العلج شانجـة ومكان طمأنينته يوم الاربعاء لثمـان بقين من
ربيع الآخر فجمع جموعه واستجاش بمدود أتته من ألبة والقـلاع
فناشبهم المسلمون الحرب والتحم بينهم القتال فانهزم جموع شانجـة

الى أعلى جبالهم وتفرّقوا ثم انتقـل الناصر يريد قَلَهُرّة فتظاهر العلج بجموعه ثانية فتبادر اليه الفرسان فانهزم وقتـل له رجال وعقرت له خيل وبلغ الناصر حصن قَلَهُرَّة [١] فألفاه خاليا فأمر بهدمه ثم تنقّل الى حصن بلتيرة من حصون المسلمين فعهد بادّخار الأطعمة عندهم وتفريق الأموال فيهم ثم احتل بمدينة تطيلة ثم رحل عنها قافلا ومر ببني ذى النون وكان يحيي بن موسى قد توقّف عن الجهاد ودارت عليـه مَعَرّة الجيش حتى أذعن واعترف للناصر بذنبه فعفا عنه ـ ثم دخل قرطبة يوم الخميس لثمـان بقين من جمادى الأولى وقد استمر فى غزاته هذه أربعة أشهر اه

قد أضعفت هذه الغزاة مَلِك نَقارة وحطّت من شأنه وقصّت من جناحه فلا يَخْشَى سلطانُ قرطبـة من جهته بأسا وكذا لا يخاف جهة ليون فان ملـكها أُرْدُن مات قبـل الشروع فى غزوة بنبلونة وخلفه أخوه (فُرُوِيلة) فلم يحكم الاّ سنة لم يقاتل فيها المسلمين الا أنه أمدّ شانجة ملك نَقارة فى هذه الغزاة ٠ وبعـد موته سنة ٩٢٥ تنازع مملـكة ليون أبنا أُرْدُن : شانجة وأذْفُنْش فغَلَبَ الثانى لأن صهره ملك نقارة ظاهره على أمره ومع هذا لم ييأس الأول فانه عند تتويج أذْفُنْش فى (شنت ياقب [٢]) وثب على ليون وتملّك عليها لـكن عاد أذفنش وانتزعها منه بمساعدة النقاريّين فى سنة ٩٢٨ ففرّ شانجة

---

(١) مدينة من أعمال تطيلة فى شرقى الاندلس (٢) ويقال ياقوب

ابن اردن وتملّك على جليقة القصوي الى أن مات سنة ٩٢٩

وفى سنة ٩٣١ ماتت امرأة أذْفُنْش فحزن عليها وتنازل عن الملك لأخيه (رامير) وترهب فى دير (سهَجون Sahagun) لكنّه رأي حياة الرهبانية لاتلائمه فترك الدير وخرج على أخيه وملك (سِمَنْكَس Simancas) فعدّ القسوس نزوعه عن الرهبانية عارا كبيرا عليهم وهدّدوه بعذاب جهنم فعاد الى لُبْس المِسْح لكنّه انتهز فرصة غيبة أخيه ليساعد طليطلة [1] وخرج ثانية وملك ليون فرجع اليه رامير سريعا وحاصره بها ودخلها عنوة سنة ٩٣٢ (٣٢٠) فحبسه وثلاثة أبناء عمه (فُرُويِلة) لأنهم كان لهم ضَلَع معه فى الفتنة وسمل عيونهم جميعا اتقاء منازعتهم اياه فى الملك

ترك عبد الرحمن نصارى الشمال يقتتلون كما شاءت أهواؤهم وفى غضون حروبهم الطويلة أخمد نيران الثورات المتأجّجة فى بلاده ومدّ أنظاره الى بلاد المغرب والشيعة يفتتحونها ويضطرون أهلها الى الاخذ بمذهبهم ويخدعون الناس بانهم من سلالة فاطمة وأن فيهم الامامة على المسلمين وبألقاب سامية انتحلوها لأنفسهم كألقاب الخلفاء العباسيين وقد استصرخه بعض أمراء المغرب من جور هؤلاء الفاطميين المغيرين على بلادهم فاغاث المستصرخين وأمدّهم بالذخائر والعُدَد والأموال واتخذهم دعاة له فى المغرب فاستمالوا البربر اليه

(١) كذا يؤخذ من دوزي · وفى ابن خلدون أن أذفنش كان غازيا في سمورة

باسم (أمير المؤمنين الناصر لدين الله) فانه لما رأى نفسه أحري بألقاب الخلافة لقوة سلطانه وضعف سلطان العباسيين في ذلك الحين وقد انتحلها من لم يبلغوا شأوه أمر أن يلقب بهذه الالقاب. ويؤخذ من دوزى ما معربه بتصرف ان أسلاف عبد الرحمن في أسبانيا كانوا يكتفون بلقب (أمير) أو (سلطان) أو (ابن الخلائف) معتقدين ان لقب (الخليفة) مختص بمن تدخل المدينتان المقدستان مكة والمدينة في دائرة ملكه وقد تركوهما للعباسيين أمّا الآن وقد تقلص ظل ملك هؤلاء ولم يبق لهم الا بغداد وأرضها فليس ثَمَّ ما يمنع الامويين من التلقب بألقاب ترفع أقدارهم في أعين رعاياهم ولا سيما الافارقة ومن أجل ذلك أمر عبد الرحمن أن يلقب بـ (الخليفة أمير المؤمنين الناصر لدين الله) وأن يخطب له على المنابر بهذه الألقاب منذ يوم الجمعة سادس عشر يناير سنة ٩٢٩ (ثاني ذي الحجة سنة ٣١٦)

ففي سنة ٣١٩ افتتح الناصر مدينة سبتة على بحر الزقاق (مجاز جبل طارق) وخطب له فيها باسم أمير المؤمنين — وكتب اليه موسى ابن أبي العافية أمير مكناسة يرغب في الدخول في طاعته وأن يدعو اليه أهل العدوة ويستعين به على محاربة الحسن بن أبي العيش بن ادريس العلوى فأجابه الى ما رغب وأمدّه بالخلع والاموال فظهر أمر موسى من ذلك الحين وتجمّع له كثير من قبائل البربر وتغلّب على

مدينة جُراوة وأخرج عنها الحسن

وكتب الى الناصر محمد بن خزر أمير مَغراوة (قبيلة من زناتة) يرغب فى موالاته و يستنجده على الفاطميين فتقبّله وأمدّه فظهر ابن خزر عليهم وقتل بيده قائدهم مصالة عامل تاهرت وطردهم من المغرب الأوسط (أقاليم الجزائر الآن) وأعلن فيه ولاية خليفة الاندلس .

قال ابن خلدون « ولما فشت دعوة الناصر فى المغرب الاقصى بعث عبيدالله المهدي قائده حميد بن يصل عامل تاهرت فزحف فى العساكر الى المغرب سنة احدى وعشرين وثلثمائة وكتب موسى بن أبي العافية الى الناصر يستنجده فأخرج اليه قاسم بن طملس فى العساكر ومعه الاسطول فوصل الى سبتة وبلغه الخبر بأن موسى بن أبي العافية هزم عساكر حميد فأقصر ورجع »

وفى سنة ٣٢١ وصل الخبر الى قرطبة بولاية أبى المنصور بن المعتز مدينة سجلماسة وهو غلام ابن ثلاث عشرة سنة فمكث فى ولايته شهرين وقام عليه ابن عمه محمد بن الفتح وأخرجه منها وتملكها وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله وضرب الدنانير الشاكرية

وفى سنة ٣٢٢ وصل الخبر الى قرطبة بوفاة أمير أفريقيه عبيد الله الشيعى الملقب بالمهدى وتقديم ولده أبي القاسم الملقب بالقائم بأمر الله

ويؤخذ من دوزى أن رامير ملك ليون بدّد شمل جيش من

المسلمين كان يحاصر وخشمة[1] Osma سنة ٩٣٣ فأثار هذا حمية عبد الرحمن سنة ٩٣٤ الى أن ينتقم ويجعل سهول وخشمة تشهد له بالنصر كما شهدت على جيشه بالخذلان فغزاها ورام أن يستنزل راميرو من قلعتها الى ميادين القتال فاستعصم بها فتركه الناصر فئة تحدق بها وسار نحو الشمال فعاثت جيوشه ولا سيما الأفارقة فى بلاد أعدائهم وخربوا (بُرْغش[2] Purgos) قاعدة قشتالة وكثيراً من الحصون لكن فى أثناء هذه الغزاة امتنع محمد بن هاشم والى سرقسطة من أن يضم قوته الى قوى الناصر ورفع لواء العصيان فانه كان حالف راميرو ملك ليون على مناوأة الخليفة ودخل فى محالفتهما غرسية بن شانجة ملك نفارة وكانت تكفله أمه طوطة لصغره — بهذا تم تحالف ممالك الشمال على عبد الرحمن . عصى محمداً بعض قواده واعتصموا بمعاقلهم حتى يسلموها لسلطان قرطبة لكن جاء راميرو فى جيوشه وانتزعها منهم وسلمها الى حليفه

سكت دوزى عما كان من أمر عبد الرحمن فى آخر هذه الغزاة وقد قال ابن خلدون فى هذا الموضع أن الناصر غزا فى سنة ٣٢٢ الى وخشمة واستدعى محمد بن هاشم من سرقسطة فامتنع فرجع اليه وافتتح حصونه وأخذ أخاه يحيى من حصن روطة ثم رحل الى بنبلونة فجاءته

---

(١) كذا الاسم العربى فى ابن خلدون وابن عذارى والاسم الافرنجى فى دوزى ويقرب لفظه من (خشمة) بدون واو

(٢) كذا الاسم العربى فى كتاب نزهة المشتاق والاسم الافرنجى فى دوزى

طوطة (أرملة شانجة) بطاعتها فعقد لابنها غرسية على بنبلونة ثم عدل الى (ألبَة) و بسائطها فدوّخها وخرّب حصونها ثم اقتحم جليقة وملكها يومئذ (ردمير) فخام عن اللقاء ودخل وخشمة فنازله الناصر فيها وهدم (بُرْغُش) وكثيرا من معاقلهم وهزمهم مرارا ورجع اهـ

وفى سنة ٣٢٥ غزا الناصر قلعة أيّوب فحاصرها وقتل قائدها مطرّفا التجيبى ومن كان معه من نصارى (ألَبَة) المبعوثين من قِبَل رامير ثم افتتح المدينة وثلاثين حصنا ـ ثم وجّه جيوشه الى سرقسطة وحاصرها وقاتل صاحبها ابن هاشم حتى سلّم المدينة وأطاع فعفا عنه الناصر ـ ثم غزا بنبلونة فان ملكتها طوطة انتقضت فأنزل بها النكبات حتى أطاعت واعترفت بسيادته على بلادها

الآن قد أطاعت أقاليم اسبانيا كلها خليفة قرطبة ماعدا مملكة ليون

(بنو اسحاق) [1] ان الذى كان يحاصر سرقسطة من قِبَل الناصر أمير أموى وهو أحمد بن اسحق قائد فرسانه وقد قلده الخليفة ولاية الثغر الاعلى لكن هذا القائد لم يقنع بل دفعته أضغاث أحلامه الى طلب مافوق ذلك . كان أكبر أسرة بنى اسحق وكانت ذات

(١) دخل أسحاق المنتهى نسبه الى عبد الملك بن مروان الاندلس أول الدولة وسكن اشبيلية أيام بنى حجاج ثم رحل الى قرطبة واستوزره الناصر واستوزر بنيه من بعده ففتحوا الفتوحات وكفوا المهمات وعلت مقاديرهم فى الدولة ثم كثرت فيهم السعايات وصاروا فى مجال الظنون فسطا بهم الناصر وغربهم فى النواحى وكان منهم أحمد وأمية

قُربى بعيدة جدا من عبد الرحمن وقد حَييَتْ أول أمرها فى اشبيلية حياة فقر وخمول زمنا طويلا وصاهرت الى من دونها ولم ينكر الخليفة عليها نسبها استحياء بل قرّب أفرادها اليه وغمرهم باحسانه ومع هذا ما كانوا راضين عن مناصبهم السامية في الدولة فان أطماعهم ما كانت تقف عند حدّ . كتب أحمد وهو يحاصر سرقسطة الى الخليفة يطلب منه أن يقلّده ولاية العهد فأثار كتابه غضب الناصر من موضوعه ومن زمنه غير المناسب ومن دلالته على التراخى والتساهل في الحصار فكتب اليه جوابا يعيّره بسوء ماضيه ويمنّ عليه بحسن حاضره وعزَله . عقب ذلك أخذ أحمد ينصب شباك الكيد والائتمار للناصر حتى حاول ان ينزع منه اسبانيا ويلقى بزمامها الى الفاطميين وكاتبهم في هذا الشأن فاطلع الناصر على سرّه فعدّه شيعيا وقتله

من أجل أخيه رفع أميّة بن اسحق لواء العصيان في شنترين (سنة ٣٢٧) [1] لكنه خرج ذات يوم من المدينة فانتهز ضابط فرصة خروجه وأقام فيها حكومة الخليفة فالتجأ أميّة الى (رامير) ملك ليون ودلّه على مواضع الوَهْن في مملكة الناصر [2]

كان من وراء ذلك أن غزا الناصر رامير في سنة ٣٢٧ في نحو مائة الف من الجنود فنزل على مدينة (سمُّورة) وكانت ذات سبعة

(١) فى ابن الاثير وأبى الفداء أن عصيان أمية بن اسحق كان سنة ٣٢٧ وفي ابن خلدون سنة ٣٢٥ (٢) دوزى

أسوار محكمة البنيان و بين الاسوار خنادق ومياه وافتتح منها سورين وعبروا خندقا هناك لكن ارتد أهل المدينة عليهم فقتلوا وأغرقوا منهم نحو خمسين ألفا وانهزم الباقون وكانت هذه الوقعة بعد ثلاثة أيام من كسوف الشمس الذى حدث فى شوال هذه السنة — والذى منع ردمير من طلب المنهزمين أمية بن اسحاق ولولا ذلك لأتى عليهم جميعا — ثم تخلص أمية من ردمير واستأمن عبد الرحمن فآمنه وقبله أحسن قبول[1] وأسر فى هذه الوقعة محمد بن هاشم التجيبى وحاول الناصر اطلاقه فأطلق بعد سنتين وثلاثة أشهر وقعد الناصر بعدها عن الغزو بنفسه وصار يردد البعوث والصوائف[2] ويسمون هذه الغزوة بغزوة الخندق

ويؤخذ من دوزى أن السبب فى فشل جيش الناصر فى هذه الغزاة وهو مائة ألف أنه ولّى قيادته العامّة سلافيا[3] (صَقْلَبِيّا) من مواليه يسمى (نَجْـدة) فأسخط ذلك قواده العظام من العرب وأقسموا « أن الخليفة سَيُجْهِز على شرفه القديم بهزيمة مخجلة » وقد كان ماتوقعوه فانهم ألقوا حبل الحرب على غاربها وتجنبوا القتال حتى قتل القائد العام وغطّت اشلاء القتلى وجه الارض وتمزق شمل الجيش شَذَرَ مَذَرَ وكاد يقتل أو يؤسر الخليفة نفسه لولا أن أنقذته يد المقدور ولم ينج معه من حرسه الا تسعة وأربعون فارسا وقد أثّرت هذه

---

(١) المسعودى وغيره (٢) ابن خلدون (٣) انظر الذنابة الثانية

الكارثة فى نفسه حتى انه بعدها صار لا يصاحب جيوشه الى ميادين القتال

لم يذكر دوزى فى هذه الغزاة مدينة (سمّورة) ولا أسوارها ولا خنادقها ولم يسمّها غزوة الخندق كغيره من المؤرخين الا أنه قال ماهؤداه فى سنة ٩٣٩ أخذ جيش قرطبة طريق سِمَنْكَس (Simancas) فجاء لمقابلته جيش راميرو وطوطة وفى ٥ أغسطس دارت رحى الحرب حتى هزم الليونيون القرطبيين الى مقربة من مدينة (الخندقة Alhandaga) فى جنوب (سلمنقة) على شواطئ (تُرماس Tormès) وهناك جمع المهزومون شتاتهم وواجهوا عدوّهم لكن دارت عليهم الدائرة اه ـ فغزوة (الخندق) فى كلام المؤرخين هى غزوة مدينة (الخندقة) [1] عند دوزى وبين الخندق والمدينة بون بعيد لم يتكلم ابن عذارى عن هذه الغزوة الشهيرة وقد شرحها روى [2] ناقلا عن كندي فقال ماهؤداه فى سنة ٣٢٦ (من نوفمبر سنة ٩٣٧ الى اكتوبر سنة ٩٣٨) أمر الخليفة بحشد جنود الاندلس على حدود جليقة فأخذ القوّاد يجمعون جنودهم من جميع الجهات وخطباء الجُمَع يحضُّون الناس على الجهاد وتتابَعَ ورود العساكر من كل جانب تخفق فوق رؤوسهم الاعلام حتى اكتظّت الطرق بهم

---

(١) لم أجد الخندقة في المعجمات فحرر

(٢) ص ١٦٤ وما بعدها ج ٤

وبآلات الحرب والبغال المحملة بالمؤن والذخائر — واحتشدوا في ضواحي مدينة سلمنقة حتى صارت ضفاف نهر تُرماس وبراريها معسكرا عامّا واسع الأرجاء — وفي أوائل سنة ٣٢٧ تمّ احتشاد الرايات وأعلن الولاة الجهاد ولم يبق الا حضور الخليفة ليفتتح باب الغزو — قام عبد الرحمن من قرطبة ومعه حرسه ونخبة فرسان الأندلس وقام في الوقت عينه من ماردة عمّه المظفّر يقود فئة من الفرسان — وفي صفر (ديسمبر سنة ٩٣٨) حضر الخليفة في موكبه الحافل معسكر سلمنقة وتفقّدهو وعمّه معسكرات الأقاليم المخيّمة في الضواحي ورتّبا الجنود وأعدّاهم للغزوة التي راماها وكانوا ينيفون عن مائة ألف مدجّجين بالسلاح فقسّماهم الى ثلاث فرق الأولى أخذ بزمامها المظفّر والثانية قادها والي بطليوس عبيد الله بن أحمد بن يعلي والثالثة كانت تحت أمرة الخليفة نفسه واتخذ ولاة طليطلة وبلنسية وتدمير ضباطا لها — تحرك هذا الجيش العرمرم واجتاز نهر دويرة بدون أن يلقى مقاومة وانساب في أرض العدوّ كالسيل الجارف مخرّبا القلاع التي كان يمر بها ومنها رباط ووخشمة وشنت اشتيبن الى أن حاصر مدينة سمّورة وامتدّت خيامه على طول نهر دويرة — كانت المدينة حصينة يكتنفها سبعة أسوار متينة البنيان من صنع الملوك السالفين يتخللها خنادق عريضة عميقة مملوءة بالماء وكانت حاميتها من شجعان الجلالقة فقاومت هجمات جنود عبد الله بن الفهري والي بلنسية وكانوا ذوي شجاعة فائقة وكانت

سيوف كلا الفريقين تدمى الفريق الآخر فى معارك عنيفة

في هذه الاثناء جمع ردمير ملك الجلالقة جيشاً كثيفاً كان فيه أميّة بن اسحاق الذي كان والى شنترين والسببَ الأولَ فى هذه الحرب الشعواء يقود فئة من فرسان المسلمين اقتفت أثره في خيانة البلاد — واحتشد مع ردمير فى برغش (غرسية) ملك نفارة أو البشكنس وأمّه (طوطة) و (فردنند) كُونْت قشتالة متحدين على أن يقاتلوا الجيش المحاصر سمّورة — علم المظفّر بسيرهم ومقصدهم فتقدم بفرقته نحوهم وكان عددها أربعين ألفاً وتبعتها فرقة الخليفة وكانت مثلها فى العدد وفيها نخبة فرسان قرطبة — واستمر على حصار سمّورة عبدالله بن الغمرى ووالى بلنسية ومعهما عشرون ألف جندي

فتقابلت طلائع الجيشين على شواطئ نهر يصبّ فى دويرة (La Pisuerga) وجرت بينهما مناوشة خفيفة والتجأ كلاهما نحو معسكره — وفى اليوم الثانى حدث كسوف هائل حجب نور الشمس بظلمة مشوبة بصفرة فملأ قلوب شبان الجيش فزعا ورعبا فانهم لم يروا مثله فى حياتهم ولم يكن أعداؤهم أقل تأثرا بهذه الحادثة — مرّ يومان ولم تبد حركة من الجانبين لكن مالاح فجر اليوم التالى الا وقد بدت الضوضاة فى المعسكرين استعدادا لاخذ العساكر أوضاعهم فى السهل وامتلأ الهواء بأصوات الابواق وصيحات الجيشين وارتجفت الارض من وقع الاقدام وصفّ القوّاد جنودهم وامتطى المظفّر فرسا قويا

سريع العَدْو واخترق صفوف جنوده باثًّا في أرواحهم الحميّة والاقدام على القتال وقاد بنفسه المقدمة والقلب وسلّم قيادة الجناحين لوالي طليطلة و بطليوس وأما الخليفة فقد نصب سرادقاته وخيامه على ربوة مشرفة على ميدان القتال وحوله جنود الاحتياط — حمل أحد الجيشين على الآخر وقد ارتفعت الشمس وهجم المظفّر في فرقة من الفرسان مدجّجة بالسيوف الهندية والرماح والاقواس لكنها ما كانت مسربلة بالدروع على جهة الوسط التي كان يقود زمامها ملك ليون نفسه لكن ثبت النصاري في مواقعهم وقاوموا هجمات فرسان المسلمين مقاومة عجيبة وكان راميرفي مقدمة فرسانه المسربلين بالحديد يتوغل في الميدان ويفتك بكل من شخص امامه — وكان بجانبه أميّة بن اسحاق الفارّ من وطنه وشرذمة على شاكلته من فرسان المسلمين يقاتلون اخوانهم في الدين ويضربونهم برماحهم وسيوفهم الهندية كأنهم ألدّ أعدائهم — انثنى المسلمون من هجمات رامير وجنوده وأميّة وشرذمته ولما رأى الخليفة اختلالا في الجناح الأيمن وتزحزُحَ قلب الجيش عن مكانه للعدوّ هجم تحفّ به فرسان قرطبة وأحراسه الصقالبة مدجّجين بطوال السيوف ومتوقين بتروس طويلة على جناح جيش العدوّ وضغطوا عليه بشدة فانكسر الجناح لكن حمل هذا الجيش بأجمعه على هذه الجهة وحمى وطيس القتال حتى تجندل على الأرض بالقرب من الخليفة فرسان شجعان أصيبوا بطعنات بعد أن جاءوا

بالعجائب في هذه الحرب الزبون ومع هذا كان يظهر رجحان كفة
المسلمين فان النصارى أخلوا ميدان الحرب وانصرفوا لأنهم كانوا
دائماً فى القتال أمام جيش قوى يسير فيه الخليفة ممتطياً جواداً أبيض
مرتدياً بُرْداً طويلاً على رأسه تاج الخلافة خفيف العُدّة ممسكاً بيده
مصحفاً مفتوحاً على السرج مسمعاً الآيات التي تبعث فى المقاتلين
روح الشجاعة — لكن بينما هو محاط بأحراسه الابطال يحيي
شخصه فيهم أمل الفوز اذ أرخى الليل سدوله فحال دون القتال وبقى
النصر غير محقق لفريق دون آخر وقد عزاه كلاهما الى جهته — بقى
المسلمون فى ميدان الحرب وهو مغطّي باشلاء القتلى والجرحى ونصبوا
خيامهم فيه مع السرعة وقضوا ليلتهم فيها بائتين بين الاموات مترقبين
مع الضجر طلوع الشمس ليعيدوا كرة القتال — ومع هذا كانت خسائر
المسلمين أعظم من خسائر النصارى ولو كان هؤلاء أعادوا القتال فى
اليوم التالى لكان النصر بلا ريب حليفهم — كذا يصرّح العرب
أنفسهم بذلك قائلين ان السبب في نجاة جيش المسلمين اشارة ابن
اسحاق على راميرفي الليل بانه لا يعود الى قتال أعدائه خشية خداعهم
ولأنهم أكثر عدداً من جنوده فاعتقد صحة ذلك ورجع وحرمه الله
من الفوز والقدرة على مساعدة المحصورين فى سمورة

لما رأت جيوش عبد الرحمن ان الاعداء رحلوا وان لا فائدة
من اقتفاء آثارهم تركوا فصائل من الفرسان على شواطئ النهر ورجعوا

الى معسكر سمّورة وقد هجم المحاصرون على أسوارها المحصّنة بالقلاع هجمات عنيفة ولكنّ المحصورين دافعوا عنها دفاع الابطال حتى ان الهاجمين ما كانوا يخطون الى الامام الا باراقة دماء كثير من شجعانهم — قوّى عزائمهم حضور الخليفة وعمه المظفر فثلموا وهدموا سورين ثم تقدموا الى حظيرة مستديرة يقطع وسطها خندق واسع عميق مملوء بالماء فأصابهم وابل من نبال الحامية وهبّ عليهم إعصار من سهامها فهلك منهم ألوف مؤلفة فجاء جنود الغرب وجنود طليطلة وألقوا جثث اخوانهم فى الخندق حتى كونوا شبه قنطرة مروا عليها — حينئذ لم تستطع الحامية أن تدافع فتسلق الجنود الاسوار وكسروا أبواب الحديد المزدوجة وفتكوا بالرجال وأبقوا على النساء والاطفال وصارت اعلام النصر تخفق فوق قلاع سمورة كلها فى شوال سنة ٣٢٧

عاد عبد الرحمن الى ماردة ومنح القواد الذين امتازوا فى هذه الغزاة أسلحة وخيلا ثم رجع الى قرطبة فقوبل من أهليها بالحفاوة

هذه غزوة الخندق الشهيرة وكان شرها مستطيرا على الغالب والمغلوب .

مارواه كندى في هذه الغزاة صريح فى أن عبد الرحمن انتصر فيها وملك سمورة وهذا لا يطابق مارواه المسعودى ودوزي وقد ناقش هذا الموضوع رومي ثم قال أخيرا مامعناه

كل هذا يحمل على اعتقاد أنه عقب العودة الى معسكر سمورة

من واقعة سمنكس التى كان النصر فيها غير محقق شدّد الخليفة والمظفر الحصار على المدينة فعاد رامير وحاصر المعسكر فصار المسلمون في هذا الموضع غالبين ومغلوبين فاستولى بعضهم على سمورة ورفعوا عليها أعلامهم ولكن اشتروا ذلك بثمن غال وهو خسارتهم الفادحة التى نوّه عنها المسعودى — وأخذ بعضهم تحت امرة الخليفة والمظفر يقاتلون محافظين على النظام راجعين القهقرى الى سلمنقة — وبناء على هذه النتيجة وأظن أنها قريبة من الحقيقة يكون هناك محلّ لنصيحة ابن اسحاق لرامير ولعودته الى عبد الرحمن التى ذكرها المؤرخون جميعا ... ولما علم رامير بتقهقر الخليفة الى جنوب نهر دويرة ظهر أمام سمورة ولم يلاق صعوبة فى الاستيلاء عليها ومن هنا يتبين أنها لم تمكث فى أيدى العرب الا بضعة أيام وقد وقع أغلب المدافعين عنها فى قبضة يد العدوّ اه

فى السنة التالية غزوة الخندق نزعت ولاية قشتالة الى الانفصال من مملكة ليون وجاهرت بالعصيان فأعلن رامير أنه لحسم الخلاف بالحسنى سيعقد مجلسا يكون له القول الفصل فى الأمر ودعا الى المجلس رؤساء قشتالة الاربعة فجاؤا فأمر بالقبض عليهم وحبسهم فعدّ القشتاليون هذا العمل خيانة وأقاموا الكونت فِرْدِنَند جونسَلِز رئيسا عليهم لينتقم من الليونيّين فشهر الحرب على ملك ليون لكن كان من المقدور أن انتصر رامير على خصمه ففاجأه وألقاه فى سجن ليون

فتعلقت قلوب القشتاليين به حتى صنعوا له تمثالا وعبدوه ولما ضجروا من طول سجنه عزموا عزما أكيدا على تخليصه بالقوة من السجن فاجتمعوا جميعا شبانا وشيوخا وأقسموا أن لا يعودوا الى قشتالة بدون سيدهم وأن كل من يتخلف يعد خائنا فتركوا برغش وأرياضها خالية ليس فيها غير النساء والاطفال وساروا رافعين تمثال وراية فردنند — من اقترابهم خشي الملك فعدل عن رأيه وأطلق لهم زعيمهم على شروط ملائمة وقد أقسم هذا يمين الطاعة ولتوثيق عرى الصداقة زوج ابنته براقة أردن بن رامير (١)

قال روى ان الكونت فردنند والكونت دِدَقوس شهرا الحرب على الملك رامير لاسباب غير معلومة و بعد ان جمعا جيشا فاجأهما الملك وحبسهما ولم يطلقهما الا بعد ان أقسما ان لا يعودا الى محاربته — استتب السلام بين رامير وفردنند واقترن ابن الاول المسمى أردن الثالث بابنة الثاني المسماة براقة Urraca (٢)

كان تنازع نصاري الشمال من الاسباب التى أدت الى توالى نصرات المسلمين عليهم

ففي سنة ٣٢٩ أغزى الناصر قائده أحمد بن يعلى الى أرض

---

(١) دوزي (٢) بحث روى في الاسم الافرنجي ورده الي الاسم العربي وقال ان معناه اللماعة أو ذات الالوان أو المشوبة بالبياض والسواد وأن العرب تطلق هذا اللفظ على ما كان أبيض أسود وعلى العين والعنز والبط والغراب وأنه لازال اللفظ الافرنجي يطلق على الاخير في اللغة الاسبانية — فانظر وحرر

ليون فعاث فيها وقتل وأسر وسبى وأرسل الى قرطبة مائتى علج اسراء[1]

يروى رومى عن كندى هنا أن الوالى عبد الله القرشى جمع جيوشه واجتاز بهـا حدود جليقة فقابلتـه جيوشها فى مكان صعب يكتنفه نهر دويرة من جانب وجبل عال وصخور منحوتة من جانب آخر وصار القتال لامناص منه ولم يبق أمل للمسلمين فى السلامة الا بالفوز فدارت رحى الحرب فكان النصر حليفهم وملـكوا قلعة (سان استيفان دوغُورمز)[2] واحمرّ وجه ماء النهر من دماء الاعداء والله يعلم عدد قتلاهم وكانت هذه الوقعة سنة ٣٢٩ (من ٥ اكتوبر سنة ٩٤٠ الى ٢٤ سبتمبر سنة ٩٤١) وقد ذكرها القرشى هذا فى شعر له قالوا ان معناه (من جهة يكتنفنا دويرة ومن أخرى جبل شامخ ولا سبيل الى الخلاص الا بالنصر ولا أمل الا فى الشجاعة . سالت دماء المشركين فأخجلت مياه دويرة)

وفى سـنة ٣٣٢ أغزى الناصر قائده أحمد بن إلياس الى أرض ليون فدخلها وغنم وأحرق جملة من حصونها ورجع

يقول رومى ما معناه « إمّا لان ردميرلم يلاق نجاحا فى ذلك الزمان واما لانه ملّ الحروب أرسل فى سنة ٩٤٤ (٣٣٢) رسلا الى قرطبة ليتكلموا فى الصلح فقابلهم عبـد الرحمن بالحفاوة — وعقدت هدنة

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٢٦ (٢) هى شنت اشتيبن التى تقدم ذكرها

بين الامتين مدة خمس سنين وأرسل الخليفة وزيره أحمد بن سعيد (شهيد) الى ليون ليبلغ سلامه الى الملك فعاد الوزير مسرورا — ومع ذلك جرى فى خلال هذه الهدنة قليل من الحوادث من جهة العرب »

وفى سنة ٣٣٥ أعاد الناصر بناء مدينة سالم وقوّاها فى الثغر الاوسط الشرقى مواجهة لمدينة قشتيلة فكانت ردءا للعرب وشجا فى حلوق القشتيليين

وفي سنة ٩٤٩ (٣٣٧) انقطعت الهدنة بين ليون وقرطبة فاعتدى ردمير على طلبيرة — يروى من جهة أنه قتل اثني عشر ألفا وأسر سبعة آلاف وعاد منصورا ويروى من أخرى أن عبد الرحمن أعلن الجهاد فى هذه الصائفة وجمع الرايات من الأقاليم ودعا من أفريقية والى فاس محمد بن الخير اليَفْرَني الزناتى فجاء فى جيش من البربر — وعهد الخليفة بقيادة الجيش العام الى حاجبه أحمد بن شهيد فدخل أرض النصارى وطردهم من سِتْمَنِقة Setmanica ودفعهم الى الجبال وغنم غنائم واسعة — وقد أعلت شأنه هذه الغزاة وأمدت صيته وأنالته من الخليفة كل رعاية

أعقب ذلك رومى بانه يظهر أن هذه الصائفة جاءت بعد حملة راميرعلى طلبيرة فى أثناء ما كان هذا الملك تخامره سكرات الموت

وفى سنة ٣٣٩ أخرج الناصر قائده أحمد بن يعلى الى أرض ليون فافتتح ثلاثة حصون منها وسبى نحو ألف سبية وانصرف — وفيها مات

راميرو ملك ليون وخلفه ابنه أُرْدُن ونازعه أخوه شانجة وقيل غرسية وكان من وراء نزاعهما أن ظهر المسلمون عليهم في السنين التالية حتى انهم في سنة ٣٤٤ قتلوا نحو عشرة آلاف منهم وأرسلوا الى قرطبة رءوس خمسة آلاف فعلقت على سور قرطبة ـ وفيها أرسل اردن سفيرا الى قرطبة ليسأل عبد الرحمن الصلح فصغا اليه ـ وفي السنة التالية (٣٤٥) أرسل الى ليون سفيرين محمد بن حسين وابن شبروط اليهودي ليتفقا هما وأردن على شروط الصلح فتساهل ووضعوا أساسها وعاد السفيران الى قرطبة ليوقع عليها الخليفة فأمضاها بعد أن ارتضاها ابنه الحكم

يقول دوزي ما معناه أن راميرو تزوج امرأتين إحداهما جليقية ولدت له أُرْدُن والأخرى (برّاقـة) أخت غرسية ملك نقارة ولدت له شانجة ـ فبعد موت راميرو طلب أردن كرسي الملك لنفسه لانه البكر وطلبه شانجة أيضاً لانه من بيت المُلك في نقارة واستمال الى حزبه فردنند زعيم قشتيلة وزوج خالته فان أم شانجـة وامرأة فردنند أختان أمهما طوطة فهذه من جهة حماة فردنند ومن أخرى جدة شانجة ـ وكيف مال فردنند الى شانجة ومال عن صهره أردُن لأن الظروف قضت عليه بذلك فدعا رجاله الى حمل السلاح وسار معه شانجة وجيش من النقاريين الى مدينة ليون لنزع تاج الملك من أردن — في أثناء ما كان الفريقان يقتتلان تحت أسوار ليون كان قواد الناصر ينتصرون في جميـع مواقع التخوم وترد الرسائل تترى الى قرطبة مبشرة بالفتوحات ومنها جمـلة

أجراس وصلبان ورءوس مجزّة وقد بلغ عدد ما ورد من هذه الرءوس في سنة ٩٥٥ خمسة آلاف رأس ومع هذا قد انتصر فردنند بالقرب من (سان استيفان) ونهب أردُن اشبونة بعد أن دفع أخاه وأخضع الجلالقة الثائرين ولكن كان الجزاء ضئيلا فلم يعدل ما ناله المسلمون من النصارى — خشية من تجدد الاغارات رغب أردن في الصلح فأرسل رسولا الى قرطبة يطلبه في سنة ٩٥٥ فصغا اليه عبد الرحمن وأرسل في السنة التالية الى ليون محمد بن حسين وحَسْداي بن شبروط اليهودي المدير العام للجمارك — فلم تطل المفاوضات فان أردُن تساهل في قبول مطالب الرسولين (يظهر أنه وعد بتسليم بعض الحصون أو هدمها على الاقل) وأقرّوا جميعا دعائم المعاهدة وعاد الرسولان الى قرطبة ليقرّها الخليفة ايضا فرآها شريفة ومفيدة ولكنها غير كافية وليس في أجله متسع لتنفيذها فانه كان قد بلغ نحو السبعين وانها تختص بزمن ابنه الحكم فألقاها اليه ليقطع فيها أمرا فوافق عليها فأمضاها الخليفة — وبعد قليل من الزمن أمضي معاهدة أخرى مع فردنند فلم يبق عدوّ المسلمين في أسبانيا سوى النقاريّين اه معربا

في آخر سنة ٣٤٥ مات أردن الثالث ملك ليون فخلفه شانجة المعروف بالسمين لسمن أصاب جسمه فأعياه وبعد سنة من حكمه ائتمر به الاشراف وخلعوه لاستبداده وولّوا عليهم أردُن بن اذفُنش فهرب شانجة الى بنبلونة حاضرة نقارة وشكا أمره الى جدّته الملكة

طوطة وابنها الملك غرسية ثم سار فى وفد الى قرطبة سنة ٣٤٧ مظهرا أنه يرغب في التداوي عند اطبّاء العرب الماهرين فى الطبّ فى ذلك الحين ـ لكن دَلّ على أن غرضه كان سياسيا أيضا خروجه فى جيش من المسلمين سنة ٣٤٨ للاغارة على مملكة ليون وقد تم استرجاعها اليه فى سنة ٣٤٩ ـ هذا القدر المجمل من تاريخ شانجة السمين هو الذى يمكن الحكم بصحته ـ وازيادة البيان نعرّب ماقاله دوزى وما قاله رومى فى هذا الموضوع مع تصرف

فيؤخذ من دوزي انه لما مات أردُن الثالث فى مارث سنة ٩٥٧ خلفه على مملكة ليون من كان ينازعه فيها وهو أخوه شانجة [1] فلم يقبل معاهدة الصلح التي كانت أبرمت بين أردُن وعبد الرحمن وكان من شروطها التزام الأول بهدم الحصون القريبة من ثغور المسلمين فأمر الناصر قائده الشهم احمد بن يعلي والى طليطلة أن يغزو ملك ليون الجديد فغزاه وانتصر عليه انتصارا مشهورا فى يوليو هذه السنة فسرّ هذا النصر الخليفة وقوّى عزيمته على غزو عدوه الآخر فى أفريقية فكانت ولاية شانجة شؤما على البلاد وأيضا على نفسه لأنه اجتهد فى كسر شوكة الأشراف ومحو نفوذهم واستبدّ بالحكم المطلق فكرهوه وفوق ذلك استفحل به مرض السِمَن حتى كان لا يستطيع ركوب الخيل

(١) كذا في دوزى — وفى ابن خلدون وابن عذارى ان الذى كان ينازع أردن بن ردمير هو أخوه غرسية

ولا يمشي الا متكئا على آخر فكان الشعب يهزأ به و يعده اضحوكة فاتخذ (فردنند) كونت قشتيلة سخط الليونيين على ملكهم ذريعة لخلعه فأتمر هو والجيش به لخلعوه في فصل الربيع من سنة ٩٥٨ واختاروا من بيت الملك أردُن بن اذفونش الرابع ملكا عليهم (وزوّجه (فردنند) ابنته (برّاقة) ارملة أردُن الثالث — التجأ شانجة الى بنبلونة وشكا ما أصابه الى جدّته طوطة التي كانت تحكم نقارة باسم ابنها غرسية مع انه كان قد بلغ سن الحكم بنفسه منذ زمن بعيد فامتعضت من الليونيين والقشتيليين وأقسمت لتستردّنّ الى حفيدها ملكه مهما كلّفها ذلك من الصعاب — لكن ليس الامر سهلا لان نقارة وحدها لا تقوى على مهاجمة ليون وقشتيلة معا ولان شانجة ليس له في مملكته القديمة من راغب — فلم تر طوطة امامها إلا أن تحالف الناصر الملك القويّ وتستعين به على مآربها وتطلب منه طبيبا من نُطُس قرطبة التي كانت وقتئذ مطلع الانوار ليعالج حفيدها من سمنه الفظيع حتى اذا عاد اليه كرسيّ الملك في ليون يمكنه أن يتبوأه بنفسه ولا يصير هُزْأة للناظرين لهذا أرسلت طوطة سفراء الى قرطبة — فلما عرضوا على الخليفة سبب مجيئهم أجابهم بانه سيرسل طبيبا الى بنبلونة ليداوي شانجة من علته ويعرض على بيت الملك شروطا فاذا رضي بها أمدّ الملك المخلوع بجيش يردّ اليه كرسيّ ملكه — بعد رحيل السفراء دعا عبد الرحمن اليه (هَسداي Hasdaï) اليهودي وكان ماهرا في الطب ذا دهاء في السياسة

عارفا لغة النقاريين و بعد أن زوّده بتعاليمه أرسله الى عاصمة نقارة فاستمال اليه شانجة ووعده بالشفاء القريب وقال له ان الخليفة يطلب منك أن تتنازل عن عشرة حصون وهو ينيلك مأربك فوعد شانجة بتسليمها بمجرد عودته الى ملكه — لم يكن ذلك فقط مهمة (هسداي) بل كلفه الخليفة أيضا باستمالة الملكة وابنها وحفيدها الى زيارة قرطبة ليتحالفوا و يتفقوا على خطة السير فيما يرومونه باطنا ولمداواة الحفيد ظاهرا فنجح (هسداى) فى ذلك ووصلت الملوك الثلاثة طوطة وغرسية وشانجة الى قرطبة فاحتفل الناصر بلقائهم احتفالا باهرا وأنزلهم في الزهراء ـ و بعد زمن هاجم جيش النقاريين قشتيلة وهاجم جيش المسلمين مملكة ليون يصحبه شانجة وقد عوفى من ورمه وصار نشيطا خفيفا فاستولى الجيش أولا على سمّورة وفي شهر ابريل سنة ٩٥٩ خضع لشانجة جزء كبير من المملكة وقد قاومت عاصمتها زمنا لكنّ هرَب أردُن الرابع منها الى استوريا أسقطها سنة ٩٦٠ ـ ولما ثاب الى شانجة ملكه أرسل الى الناصر يشكره على صنيعه

ويؤخذ من رومي ان موت أردُن فتح باب التملّك لاخيه شانجة الاول بعد ان كان مؤصداً في وجهه فسار على رغبات أشراف ليون في السنة الاولى من حكمه لكنه استبدّ عليهم بعدها فنقَموا منه ذلك وخلعوه وكان روح هذه الفتنة (فِردِنند) كونت قشتيلة مع انه كان عضداً له أولا وملّكوا عليهم ابن اذفنش الرابع (الراهب

والاعمى) وكان يسمّى أُردُن وزوّجه الكونت ابنته برّاقة مطلقة وأرملة اردُن الثالث فاضطر شانجة إلى الفرار من ليون ولاذ بخاله الاكبر غرسية فى بنبلونة فتقبله قبولاً حسنًا لكنه لم يساعده بجيش يرد ليون اليه — ومع هذا كان مأوى شانجة الجديد خيراً من القديم فانه منذ سنين كان عرضة لاستفحال السمن بجسمه ولا يبعد أن يكون ذلك هو الحامل على اقصائه عن كرسي الملك فان سمنه الثقيل كان يمنع جسمه من ممارسة الاعمال حتى صار لا يقدر على ركوب الخيل ولا أن يحفظ نفسه فوق ظهورها وذلك مما كان يشين الملك في ذلك الزمان — لعلة شانجة الشائنة ولشهرة أطباء العرب فى تلك الحقبة أشارت عليه أسرته في نقارة أن يعرض نفسه عليهم فى قرطبة — ومع هذا كان سفر شانجة إلى دار الخلافة يرمى الى غرض سياسى وهو استمالة الخليفة الى مساعدته بقوة عسكرية ترد اليه ملكه المسلوب فان غرسية ملك نقارة أرسل الى قرطبة وفدا المعروف من أمره أنه يصحب شانجة لغرض شفائه من علته ولكنه كان مكلّفا بمفاوضة الخليفة في التحالف وفي استرجاع مملكة ليون وقد اشتركت طوطة أم الملك فى هذه السياحة فرحّب عبدالرحمن بشانجة وأنزله في قصره وخصّص لعلاجه أطباءه فداوَوه بشراب مركب من عصارات الاعشاب حتى أضاعوا من جسمه كثافة الشحم وردّوا اليه لطافته وخفته — ويؤخذ منه فى موضع آخر أن زيارة شانجة قرطبة كانت سنة ٩٥٦ وانه حصل

فيها على صحته ونشاطه الاول وانه أقام فيها زمنًا طويلا بين العرب حتى تعلّم لغتهم وعاداتهم ونال محبة الخليفة وخيراته ثم أظهر رغبته فى ردّ مملكته المغتصبة وطرد ازدُن الدخيل من ليون وكتب الى خاله غرسية بذلك وفاوض ديوان قرطبة فى هذا الشأن فعبّأ له جيشًا قلّده الخليفة قيادته — لم يذكر التاريخ شروط المعاهدة التي ابرمت بين الملك المخلوع والخليفة لكن يظهر من عدة شواهد أنها لم تكن ثقيلة ولا مزرية بشرف الاول وأنها كانت تنطوي على الاتحاد الودّي بينه وبين الثاني — توجّه الجيش نحو ليون فى وقت كان الليونيون فيه يمقتون ازدُن الرابع لاجحافه بحقوقهم ولفساد أخلاقه وكان يحسّ من رعيته البغضاء له فلما بلغته اشاعة سير جيش العرب نحو ليون لخلعه واقامة شانجة في كرسيّه لم يسعه أن ينتظر دنوه منها بل فرّ ليلا الى الاستوريّين — لم يُرَ من جيش العرب أثناء مسيرة اعتداء ولاقسوة بل كان يعامل بالحسنى المدائن التى تفتح أبوابها لشانجة بدون مقاومة ويقهر المدن التى تأبى قبوله الى الدخول فى الطاعة — وكانت البلاد المفتوحة ترحب به وتهلّل وتعدّه مخلّصًا لهم وما زال يتنقل الجيش من مدينة الى مدينة ومن تهليل الى تهليل حتى بلغ ليون حيث كان ينتظر شانجة جمهور عظيم ليحتفلوا به — عند ذلك اضطر ازدن الى الرحيل بأسرته من استوريا الى برغش حيث كان يحكم صهره فردنند فلم يجد فيها مأوى

كما كان يأمل إمّا لغيبة فردنند كما يقول ذلك بعض المؤرخين [١] وإمّا لتغيّر أواصر المصاهرة بينهما لاسباب مجهولة في التاريخ فألجئ أردُن وحده الى الانزواء في بلاد المسلمين [٢]

ويؤخذ من المقرى [٣] في تاريخ الناصر في حوادث سنة ٣٤٥ ومابعدها أن حافد طوطة ملكة البشكنس الذى انتقضت عليه أهل جليقية وتولى كبرهم قومس قشتيلة فردنند هو (غرسية بن شانجة) لاشانجة بن أردن مع انه قال في تاريخ الحكم ابن الناصر في حوادث سنة ٣٥٤ « ثم كانت وفادة أردن بن أذفونش ملك الجلالقة وذلك أن الناصر لما أعان عليه شانجة بن ردمير وهو ابن عمّه وهو المملك من قبل أردون وحمل النصرانيـة على طاعته واستظهر أردون بصهره فردنند قومس قشتيلة توقع مظاهرة الحكم لشانجة كما ظاهره أبوه الناصر فبادر الى الوفادة على الحكم مستجيرا به .... »

نرجع الى حوادث أفريقية فنقول

كان المغرب في النصف الاول من القرن الرابع الهجري بين قوتين

---

١) يقول ذلك البعض ان فردنند كان غائباً حين جاءها أردن الرابع يتلمس مأوى وان ملك نفارة كان يحارب فردنند وحبسه وأولاده في (سيرونيا Cirue ̄na) سنة ٩٦٠ ثم أرسل جميع الاسرى الي بنبلونة ويؤيد ذلك مايؤخذ من دوزي من أن غرسية وعبد الرحمن اتفقا على انه حين يهاجم جيش العرب ليون يهاجم جيش النفاريين قشتيلة

٢) يذكر المقري في تاريخ الحكم ابن الناصر أن أردن بن أذفونش وفد عليه مستجيرا في سنة ٣٥٤

٣) ص ١٧٢ ج ١

تتجاذبانه الامويين فى الاندلس والفاطميين في أفريقية وقد أتى حين من الدهر قويت فيه القوة الاولى فامتدّ سلطان عبد الرحمن الناصر على المغرب الاقصى والاوسط وكانت تواليه القبائل التى أسلمت منذ الفتح الاسلامى مثل قبائل زناتة وأما قبائل اليهود والوثنيين والشيعة مثل قبائل صنهاجة وكتامة فانها كانت توالى عبيدالله وبنيه — وكان بعض قبائل البربر ينزع تارة الى خليفة قرطبة وأخرى الى خليفة القيروان على حسب مقتضيات الاحوال — وكذا كان شأن بقايا الادارسة بعد أن تقلّص ظل ملكهم من فاس وتلمسان [١]

كان للناصر ولاة قائمون بدعوته في المغرب منهم بنو سعيد بن صالح امراء نكور [٢] من ساحل المغرب وقد سبق كلام عنهم في حوادث سنة ٣٠٥ ومنهم موسى بن أبى العافية كان أمير مكناسة وعلى يده ويد مصالة بن حبوس قائد الشيعة زال ملك الادارسة من فاس سنة ٣٠٧ أو سنة ٣٠٩ ثم صار موسى عاملا للشيعة على فاس والمغرب ولأسباب خلع طاعتهم ومال الى الخليفة الناصر ووالاه ونشر دعوته فى المغرب [٣] فجاء ميسور الصقّلبى قائد الشيعة وحارب موسى وأجلاه عن عمله الى الصحراء مستعينا عليه ببني ادريس أعدائه وآل اليهم ما كان في يده سنة ٣٢٣ — من أجل ذلك انحرفوا

---

١) انظر الذنابة الاولى الآتية ٢ يؤخذ من ابن خلدون أن نكور في الريف على ساحل المغرب الاوسط لكن يستفاد من ابن عذارى فيما سبق انها على ساحل المغرب الاقصى ٣ انظر حوادث سنة ٣١٩ السابقة

الى الفاطميين مع أن هؤلاء لمّا أزالوا ملكهم من فاس انحرفوا عنهم الى الأمويين - ومع هذا أقصاهم ولاة الناصر عما ملكوه فأنابوا اليه وفى سنة ٣٣٢ نقض بنو محمد الادارسة طاعة الناصر وأسروا واليه فى سبتة فأغزاهم قائده قاسم بن محمد فجنحوا الى السلم وأطلقوا الوالي سنة ٣٣٣ وبعثوا برهائنهم الى قرطبة مؤكدين الطاعة فقبل الخليفة انابتهم وأكرم وفادتهم

ومن ولاة الناصر في المغرب بنو خزر عظماء زناتة يقال ان جدّهم خزر بن صولات هاجر وأسلم على يد عثمان بن عفان — أغاروا على مدينة تيهرت وأسروا ميسورا عاملها من قبل الشيعة وأقاموا فيها الدعوة لخليفة الأندلس وكتبوا اليه بذلك سنة ٣٣٣

ومن دعاة الناصر أيضاً أبو يزيد مخلد اليَفْرَني الزناتي الخارجي ثار على الشيعة فى أفريقية وأوقع بهم وتغلّب على القيروان ورقّادة وأقام فيهما الدعوة لامير المؤمنين الناصر لدين الله — وجاءت رسل منه ومن أهل القيروان الى قرطبة ينبؤن الخليفة بهذا الفوز المبين سنة ٣٣٤

كان أهل المغرب ينزعون الى طاعة الناصر فرارا من مذهب الشيعة المنحرف عن الاسلام الحقيق فلما تظاهر أبو يزيد أول الامر بأنه ينصر شريعة الاسلام الطاهرة من بدع الشيعة ويدحض ترّهاتهم التفّوا حوله ونصروه وكاد يجهز على دولة الفاطميين في أفريقية لكنه لما استباح المحرّمات انفضّ أغلب جنوده من حوله وخذلوه ففى سنة ٣٣٤ جاء رسول من القيروان الى قرطبة ينبيء أن المنصور الشيعي لاقى أبا يزيد

في مدينة سوسة وهزمه الى القيروان

يؤخذ من ابن عذارى [١] أن الناصر أغزى قائديه احمد بن يعلي [٢] وحميد بن يصل [٣] المكناسي الى بني محمد الادارسة الحسنيين فى سنة ٣٣٨ فقادا جيشا الى الجزيرة الخضراء فجاء رسول منهم الى الخليفة يذكر طاعتهم له وانقيادهم لأمره في هدم مدينة تيطاون التى أنكر عليهم بناءها فقبل انابتهم — ثم وصل محمد بن أبى العيش الحسنى فاكرمه الناصر ثم جاء نبأ بوفاة أبي العيش فعزّى الخليفة الابن عن أبيه وعقد له على عمله ووصله وخلع عليه وعلى الوافدين معه وصرفهم فبادر محمد الى عمله في المغرب ـ كان عند وفاة أبيه قصد ابن عمّه قنون الى بلده فاستولى على ماله وأهله لكن لما بلغ البربر اقبال محمد بن أبي العيش من قبل الناصر رجعوا الى عيسى بن قنون وقد خرج عن تيكيساس فسلبوه ما كان أخذه لابن عمه وقتلوا أكثر أصحابه فلم يخلص الا في سبعة فوارس ٠

ويؤخذ منه في موضع آخر [٤] أن بني محمد الادارسة شرعوا في اعادة بناء مدينة تيطاون سنة ٣٤٧ بعد أن هدموها فشكا أهل سبتة من ذلك الى الناصر لأن في بنائها ضررا يلحق بهم فأغزاهم الناصر

---

١) ص ٢٣١ و ٢٣٢ ج ٢ ٢) أرى لفظ (يعلي) مضبوطا في البيان المغرب بكسر الياء وفتح اللام وهذا الا وجود له فى لغة العرب ولا جل أن يكون من عداد كلماتها يلفظ به بضم الياء ٣) لفظ (يصل) تارة يكتبونه أيضا (يصال) وأخرى (مصال) ويظهر انه لفظ بربري ٤) ص ٢٣٠ ج ١

قائده احمد بن يعلى وكتب الى حميد بن يصل صاحب تيجيساس [١] أن يمين القائد فلما اجتمع العسكران على بني محمد كفوا عن البناء ووعدوا أن لا يعودوا اليه و بعثوا بأولادهم الى قرطبة رهائن على وعدهم

وفي سنة ٣٣٩ جاء الى قرطبة الخير بن محمد بن خزر الزناتي كبير أمراء المغرب يذكر للخليفة ما أتاح الله له من دخول تاهرت وظفره بميسور الصقلبي وابن بكار اليفرنى من قادة الشيعة فقرىء كتابه بجامع قرطبة وجامع الزهراء

وفيها جاء كتاب الى قرطبة يذكر أن بني محمد الأدارسة زحفوا الى حميد بن يصال قائد الناصر ونزلوا عليه والتفوا به ولكن دارت عليهم الدائرة وانصرفوا مفلولين

وفي سنة ٣٤١ جاءت الانباء الى قرطبة بأن زيرى الصنهاجي عامل الشيعة على تاهرت أسر سعيد بن خزر زعيم زناتة

وفيها وصل الى قرطبة فتوح بن الخير كبير أمراء زناتة ومعه وجوه أهل تاهرت ووهران وعرضوا على الناصر رءوسا محتزة من كبار الشيعة و بنودا وطبولا لهم فرفعت هذه الرءوس والبنود والطبول على باب قصر قرطبة وأقيمت لفتوح ولمن جاء معه الكرامات الواسعة

---

١) تارة يكتبونها بالكاف وأخرى بالجيم ولم أرها في معجم ياقوت — وفيه تيفاش مدينة بافريقية شامخة البناء ذات عيون ومزارع كثيرة وهى فى سفح جبل

يؤخذ من رومى [1] انه فى سنة ٩٥٥ (٣٤٣ و ٣٤٤) كتب والي فاس الى الخليفة الناصر يخبره بنجاح جيوشه فى المغرب ويستأذنه فى بناء قبة الجامع الكبير فى عدوة القرويين فأذن له و بعث اليه بمال وافر من خمس الغنائم المكسوبة فى غزوة جلّيقة فوسّع الوالى الجامع و بنى القبة ووضع فى قمتها سيف ادريس مؤسس مدينة فاس ـ وفي هذه السنة احتلت جيوش الناصر مدينة تلمسان وأعلنوا فيها حمايته للأدارسة

وفى سنة ٣٤٤ أنشأ عبد الرحمن سفينة كبرى فى أشبيلية لنقل البضائع من أسبانيا الى مصر والشام فلقيت أثناء سيرها مركبا يقلّ رسولا من صقلية الى المعز الفاطمي فى أفريقية ومعه رسائل اليه [2] فاعترضت السفينة المركب وأخذت مافيه غصباً ووالت سيرها و باعت بضائعها فى الاسكندرية واشترت منها غيرها ورجعت الى الاندلس .

بلغ ذلك المعز فجهز أسطولا وأمر الحسن بن على عامله على صقلية أن يقوده الى ساحل المرية فلما اقتربوا منه أبصروا السفينة الكبرى وهى عائدة فاقتفوا أثرها حتى قنصوها واجهضوا أحمالها وكان فيها أمتعة لعبد الرحمن وجوار مغنيات ثم حملوا على مراكب الميناء فسلبوا مافيها وأحرقوها ثم صعدوا الى البرّ فقتلوا ونهبوا وعادوا فرحين بغنيمتهم وادراك ثأرهم

---

١ ص ٢٠٣ ج ٤ ٢ يقول ابن الاثير وأبو الفداء ان الرسول كان من صقلية الى المعز ويقول كندي ورومى أنه كان من المعز الى والي صقلية

كان صدى هذا الاعتداء أن أمر الناصر بلعن الفاطميين على جميع منابر الاندلس وان كلّف قائده غالبا أن يهاجم باسطوله سواحل أفريقيـة لـكن لم تأت حملته بالنجاح الذي كان ينتظره الخليفة فان الاندلسيين مع انهم فازوا بعض الفوز فى مبدأ أمرهم دفعهم الافارقة واضطروهم الى الاقلاع [1]

قال ابن خلدون فى هذا الموضع بعث المعز الى الحسن بن على عامل صقلية سنة ٣٤٤ أن يخرج باسطوله الى ساحل المريّة من بلاد الاندلس فعاث فيه وغنم وسبى ورجع فأخرج الناصر صاحب الاندلس أسطوله الى سواحل أفريقية مع غالب مولاه فمنعتهم العساكر وأقلعوا ثم عادوا سنة ٣٤٥ فى سبعين مركبا فاحرقوا مرسى الخزر وعاثوا فى جهات سوسة ثم فى نواحى طَبَرْقة ورجعوا اهـ — كلام صريح فى أن الناصر غزا الفاطميين فى أفريقية غزوتين واقتصر ابن الاثير وأبو الفداء على الغزوة الأولى فى سنة ٣٤٤

ويؤخـذ من كندى ورومي أن هجوم عامل صقلية على ساحل المرية أثار سخط خليفة قرطبة وكان حاجبه وقتئذ احمد بن سعيد [2] الذي امتاز بفوزه فى غزوة جليقة الاخيرة فحقق للخليفة إمكان انتقامه من المعتدين وجمع السفن من شواطىء اسبانيـا وقادها الى

---

١ دوزي ص ٧٧ ج ٣ ٢ الذي فى نفح الطيب (احمد بن عبد الملك ابن شهيد)

وهران [1] مقلة عددا عظيما من رجال الحرب الاشداء وجمع من فرسان الاندلس المحتلين بلاد المغرب خمسة وعشرين ألف فارس ثم هجم بالرجلان والفرسان على أفريقية فقابله الحسن بن علي بجيوشه ودارت رحى الحرب بين الفريقين حتى غلب وهزم الاندلسيون قبائل صنهاجة و كتامة وكان يتألف منها معظم جيش الافارقة واتبعوا آثارهم مشتتين شملهم ومحرقين بلاد الموالين للفاطميين حتى وصلوا الى ضواحي تونس وكانت غنية بتجارتها الواسعة يسكنها كثير من تجار اليهود الاغنياء فحاصروها برا و بحرا وشددوا الحصار عليها فلما رأى أهلوها ان الخطر محدق بهم ولا مغيث لهم عرضوا أن يسلموا المدينة وقدموا مقدارا جسيما من المال الى ابن سعيد فطلب منهم مقدارا أجسم مما قدموا فاضطروا الى أدائه وأخذ منهم أيضا أنسجة مختلفة الاجناس وطرفا من الحلى وذهبا وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير للرجال والنساء وأسلحة وخيلا وعددا عظيما من الارقاء — وغنم أيضا سفن الميناء وأثقالها وضمها الى سفنه وسير أسطوله الى اشبيلية مشحونا بهذه الغنائم الواسعة — قدم الحاجب منها الى الخليفة الخمس وقيمة سفينته الكبرى وأحمالها التي قنصها الحسن وأعطى القواد والرؤساء والجنود الذين دخلوا في غمار هذه الغزاة أنصبتهم كلا على قدر منزلته حتى صاروا جميعا راضين وبقي للحاجب

---

(١) قال ياقوت وهران مدينة على البحر الاعظم من المغرب بينها وبين تلمسان سرى ليلة

قسم كبير من الغنائم ـ وقد رقّاه الخليفة الى اسمى مراتب الشرف ورتّب له فى كل سنة مائة ألف قطعة من الذهب

يحتمل أن ابن سعيد أهدى هديته المشهورة الى الخليفة بعد عودته من هذه الغزاة ـ وفى كندى ان الهدية قدّمت الى عبد الرحمن بعد رجوع احمد من غزوة جليقة لكن الاقرب الى الحقيقة انها أخذت أو قسم كبير منها على الاقل مما اختص به الحاجب من غنائم تونس ومهما يكن من الامر فكتّاب العرب يعدّون أصناف الهدية هكذا أربعمائة رطل من الذهب الخالص من التبر [1] — وقيمة أربعمائة وعشرين ألف دينار من سبائك الفضة [2] وأربعمائة رطل من عود الندّ [3] ـ وخمسمائة أوقية من العنبر الأشهب ـ وثلثمائة أوقية من الكافور ـ وثلاثون ثوبا من الحرير الابيض الموشى بالذهب ومائة وعشرة فراء من الفَنَك الخراسانية [4] وثمان وأربعون ملحفة من

---

(١) الذى فى ابن خلدون والمقرى خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين وأربعمائة رطل من التبر (٢) الذي في ابن خلدون ومصارقة أربعون ألف دينار ومن سبائك الفضة مائتا بدرة (٣) في ابن خلدون اثناعشر رطلا من العود الهندى الذي يختم عليه كالشمع .... انظر المقرى — وزاد ابن خلدون ومائة أوقية من المسك الذكى وقال ابن الفرضى ان المسك مائتان واثنتا عشرة أوقية (٤) عبارة ابن خلدون ومن اللباس ثلاثون شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الالوان والصنائع وعشرة أفربة من عالي جلود الفنك الخراسانية — انظر فى المقرى ما قاله ابن الفرضى — في القاموس الفنك بالتحريك دابة فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها وأعدلها صالح لجميع الامزجة المعتدلة — وزاد ابن خلدون وستة من السرادقات العراقية

الحرير والذهب مصنوعة في بغداد باتقان نادر المثال لزينة الخيل أيام الاحتفالات [١] وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول [٢] ـ وثلاثون بساطا فارسية [٣] طول كل بساط منها عشرون ذراعا ـ ومائة طنفسة للصلاة [٤] وخمسة عشر نَخّا من الخزّ وهو نوع من البُسُط المصنوعة من الجهتين على السواء [٥] وثمانمائة شِكّة وتِجفاف [٦] من الحديد المصقول لخيل الحرب ـ وألف تُرْس ومائة ألف سهم ـ وخمسة عشر فرسا من الخيل العراب الجميلة التى تصلح لركاب الخليفة وخمسة أخرى مُلْجَمة مُسْرَجة بسروج من الخزّ العراقىّ وثمانون فرسا مهيّأة ومروّضة لركوب الحاشية فى الحرب [٧] ـ وعشرون بغلا بسروجها واجلالها السابغة [٨]

---

(١) ومما زاده ابن خلدون هنا وعشرة قناطير من السمور فيها مائة جلد والظاهر أن رومى أضاف جلود السمور الى جلود الفنك ـ في القاموس السمور كتنور دابة يتخذ من جلدها فراء مثمنة . (٢) زاد ابن خلدون وألف رطل من الحرير المنتقى للاستغزال ...

(٣) عبارة غيره وثلاثون بساطا من الصوف مختلفة الصناعات ....

(٤) عبارة غيره ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة الصناعات من جنس البسط (٥) كذا يقول رومى ـ وفي القاموس النخ بالفتح بساط طويل ـ ووهم من قال (نوخا) (٦) الشكة بالكسر السلاح ـ والتجفاف بالكسر أيضاً آلة للحرب يلبسه الفرس أو الانسان ليقيه فى الحرب ـ وعبارة ابن خلدون ومن السلاح والعدة ثمانمائة من تجافيف الزينة أيام البروز والمواكب (٧) عبارة ابن الفرضى ومن الخيل مائة فرس منها من الخيل العراب المتخيرة لركابه خمسة عشر فرسا وخمسة من عرض هذه الخيل مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خز عراق وثمانون فرسا مما يصلح للوصفاء والحشم وقال ابن خلدون مائة فرس من عتاق الخيل التي تصلح للركوب فى المتصرف والغزوات (٨) عبارة ابن خلدون وعشرون من بغال الركاب مسرجة ملجمة

وأربعون غلاما وعشرون جارية مكتسيات بكسًا فاخرة(١) انتهى ما عزّ بناه من رومي — يظهر أن غزوة تونس التى فصلها رومى ناقلا عن كندي هي الغزوة الثانية التي أجملها ابن خلدون فى كلامه السابق — وما ذكره رومى من احتمال أن تكون هدية ابن سعيد بعد عودته من هذه الغزاة يمنع منه أن بعض المؤرخين نص على أن الهدية كانت في سنة ٣٢٧ — من هذه الهدية يدرك الانسان ما وصلت اليه بلهنية العيش وضخامة دولة الامويين في الاندلس في ذلك الزمان

قد أزعج استيلاء الحاجب احمد بن سعيد على مدينة تونس المجاورة لمدينة القيروان خليفة المهديّة المعزّ الشيعي فهبّ لاخذ الثار وشهر الحرب على بلاد المغرب التي كانت تحت حماية خليفة قرطبة الناصر السنيّ منذ سنين . فأرسل المعز قائده جوهرا الرومى يقود عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة الى هذه البلاد وأمره باخضاعها وإذلال أهلها والقسوة على رؤسائها فقام جوهر من القيروان الى المغرب سنة ٣٤٧ مضمرا فى نفسه تنفيذ ما أمره به مولاه — حينئذ دعا يعلى بن محمد اليفرني والنائب عن الناصر فى المغرب رجال قبائل يفرن وزناتة الى حمل السلاح وقتال جوهر — تقابل الجيشان بجوار تاهرت ودارت رحى الحرب وحمي وطيسها وكان الكتاميّون يرمون الى غرض واحد

---

(١) عبارة غيره ومن متخير الرقيق أربعون وصيفا بكسوتهم وجميع آلاتهم وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن بمراكب خلافية مجالس سروجها خز جعفرى عراقى

وهو قتل يعلى رئيس جيش المغرب فان جوهرا فرّق فيهم أموالا لهذا الغرض خاصة قبل الدخول في المعمعة - قابل يعلى هجمتهم بثبات لكنهم أدركوه وحوله عدد قليل من أتباعه فأسقطوه عن جواده وأثقلوه بطعنات رماحهم وترجّل أحدهم بسرعة وقطع رأسه وحمله الى قائدهم ففرح بهديتهم وكافأهم عليها بمال جسيم وبعث بالرأس الى المعزّ فأمر باطافته في القيروان - ولّت قبيلة يفرَن بعد قتل رئيسها وقد اجتهدا بنه هارون في تسكينها فلم يُجْد نفعا - عندئذ سار جوهر الى سجلماسة وشدّد الحصار عليها حتى فتحها ونهب أموالها وأسر صاحبها محمد بن الفتح وشدّ وثاقه وكان يلقّب نفسه بالخليفة أمير المؤمنين الشاكر لله ويضرب نقودا باسمه ويظهر عدلا في أحكامه ومحافظة على السنّة ويعمل بمذهب مالك الذي بقي متبعا في أفريقية وكذا في أسبانيا مدة حكم العرب فيها - ثم اتّجه جوهر الى فاس وحاصرها من جميع الجهات ثلاثة عشر يوما ودخلها في يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ (١٣ نوفمبر سنة ٩٦٠) وضرب أعناق بعض أهليها وأسر واليها من قبل الأمويين وهو أحمد بن أبي بكر الزناتي ونهب المدينة وخرّب كثيرا من منازلها - ثم أخذ يطارد جنود بني أمية من جميع بلاد المغرب حتى استولى عليها ومع هذا لم ينتهك حُرمات المدن التابعة للأمير الحسن ابن قنّون الادريسي فان هذا بادر بالاعتراف بسيادة المعز الفاطمي والدخول في حمايته

بعد أن أخضع جوهر بلاد المغرب وسفك دماء حماتها أنهارا وقسا على أهليها وأذلهم ومحا اسم الخليفة الأموى من خُطب الجوامع وأثبت فيها اسم الخليفة الفاطمى عاد الى أفريقية ومعه من الاسرى محمد بن الفتح الذى كان أمير سجلماسة وأحمد بن أبي بكر الذى كان والي فاس وخمسة عشر من أعاظم مشايخها مصفّدين فى أقفاص محمولة على جمال فأمر أن يطاف بهم فى شوارع القيروان وأسواقها ثمّ حملوا الى المهدية وسجنوا أياما ثم أُهلكوا [١] كذا يؤخذ من رومى وقد نقل عن مؤرخ سمّاه عبد الحليم — ويؤخذ من ابن الاثير وابن خلدون أن المعز الفاطمي صاحب أفريقية أغزى وزيره جوهرا الصقلّي الى المغرب فى صفر سنة ٣٤٧ في جيش كثيف وخرج معه جعفر بن على صاحب المسيلة [٢] وزيرى بن مناد الصنهاجي صاحب أشير [٣] فساروا الى تاهرت فتلقاهم يعلى بن محمد الزناتى صاحب المغرب الأوسط جائيًا من مدينته افكان [٤] فأكرمه جوهر ثم قبض عليه لمخالفة وناشته سيوف كتامة فثارت أصحابه فقاتلهم جوهر وهزمهم الى إفكان ودخلها بالسيف ونهبها ونهب قصور يعلى وأسر ابنه وكان صبيا وأحرق المدينة فى جمادي الآخرة ثم سار الى فاس ونازلها فامتنعت عليه فرحل

---

(١) انظر رومى ج ٤ ص ٢٤٨ ومابعدها (٢) كقبيلة مدينة بالمغرب اختطها أبو القاسم محمد بن المهدي في سنة ٣١٥ وتسمى المحمدية (٣) كامير مدينة فى طرف أفريقية الغربى (٤) مدينة بالمغرب ذات أرحية وحمامات وقصور

الى سجلماسة وأخذها وقبض على صاحبها محمد بن الفتح من بنى واسول من مكناسة المتلقب بأمير المؤمنين الشاكر لله والضارب السكة باسمه وولى ابن المعتز من بني عمه مكانه ودوّخ بلاد المغرب الى البحر ثم عاد الى فاس وحاصرها حتى افتتحها عنوة على يد زيرى بن مناد تسنم أسوارها ليلا وفتح أبوابها وأوقد المشاعل ودق الطبول فدخلها جوهر وقبض على واليها محمد بن بكر الجذامي فى رمضان سنة ٣٤٨ وطرد عمّال بني أمية من سائر المغرب، وضمّ تاهرْت الى زيري وانقلب الى القيروان ظافرا ومعه احمد بن بكر ومحمد بن الفتح أسيرين في قفصين فحملهما الى المعزّ في المهدية في يوم مشهود

و يؤخذ من ابن عذارى أن جوهرا قائد المعز دخل فى سنة ٣٤٧ بلاد المغرب واستولى على فاس ثم توجه نحو تيطاون ففر أمامه الحسن ابن قنون الادريسى الى قرطبة ثم وصل القائد الى سبتة فلم يقدر عليها فقصد سجلماسة وملكها بعد أن فرّعنها صاحبها محمد بن الفتح الملقب بالشاكر لله ثم جيء به أسيرا الى جوهر ومكث هذا بالمغرب نحو سنة

و يؤخذ منه فى موضع آخر أن الناصر أمر قائده احمد بن يعلي سنة ٣٤٧ بأن يغزو فى الأسطول الى بلد الشيعي معدّ بن اسماعيل صاحب افريقية فبرز لغزاته هذه يوم الخميس لثمان خلون من المحرم ... وفى جمادى الآخرة ورد كتاب منه من افسلان من عمل تلمسان يذكر أن جوهرا قائد معدّ (المعز) قتل يعلى بن محمد اليفرنى صاحب

مدينة إفكان غدرا وأن ابن عمه انتصب مكانه باقامة قومه له ثم رجع قائد الاسطول الى قرطبة

مناقشات — (١) يؤخذ من رومى أن يعلي جاء الى جوهر محاربا ويؤخذ من ابن عذارى انه جاء مسالما فقتله جوهر غدرا (٢) ويؤخذ من رومى أن ابن يعلى بعد قتل أبيه أراد المقاومة فخذله قومه ويؤخذ من ابن الاثير ان جوهرا أسره وهو صبي عند أخذ إفكان (٣) لم يذكر رومى إفكان مدينة يعلى وقد جاء ذكرها فى كلام ابن الاثير وابن خلدون وابن عذارى ولم يذكر توجهه الى فاس وامتناعها عليه قبل توجهه الى سجلماسة كما جاء فى ابن الاثير وابن خلدون (٤) يذكر رومى أن جوهرا دخل فاس يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ ويذكر ابن الاثير وابن خلدون أن دخوله فيها كان فى رمضان سنة ٣٤٨ ويؤيد صحة كلامهما ماجاء فى التقويمات من أن أول رمضان سنة ٣٤٨ يوافق يوم السبت فيكون يوم ٢٠ منه بالبداهة يوافق يوم خميس — وأما رمضان سنة ٣٤٩ فاوله فى التقويمات يوم الخميس فيكون يوم ٢٠ منه يوافق يوم ثلثاء — وقد ذكروا أن جوهرا ابتدأ غزوته في صفر سنة ٣٤٧ ومكث في المغرب نحو سنة وعلى كلامه يكون قد مكث نحو سنتين (٥) ويذكر رومى أن اسم والي فاس (احمد بن أبى بكر) ويقول غيره احمد بن بكر ولم يذكر ان فتح هذه المدينة كان على يد زيري بن مناد كما نصّ غيره على ذلك (٦) ويؤخذ من رومى أن جوهرا لم يطارد الحسن بن قنون الادريسى

ويؤخذ من ابن عذارى أنه فرَّ منه الى قرطبة (٧) ويذكر رومى أن جوهرا أخـذ معه من الاسرى خمسة عشر سوى والي فاس ووالى سجلماسة واقتصر المؤرخون على الواليين (٨) يقولون غزا جوهر في جيش كثيف و يقدر رومى عـدد الجيش بنحوخمسة وعشرين ألفا (٩) ينصون على ان جعفرا صاحب مسيلة وزيري صاحب أشيرخرجا مع جوهر وقد أغفل هذا رومى (١٠) زاد ابن عذارى ان جوهرا توجه الى تيطاون ثم وصل سبتة فامتنعت عليه

وفي ذى القعدة سنة ٣٤٨ أرسل الناصر جماعة من وجوه الموالي والعرفاء ورجال الجند مع بدر الفتى صاحب السيف الى مدينة سبتة من أجل جولان جوهر قائد معدٍّ الشيعي صاحب القيروان ثم عادوا في آخر ذى الحجة بعد ان انفرجت الأزمة

و يؤخذ من رومى أن حوادث أفريقية شغلت بال عبد الرحمن الثالث وضاعفت أحزانه فانه كان لازال يبكي عمه المظفر وولده عبد الله وحاجبه ابن سعيد الذى مات من أمد غير بعيد ــ ولرتق فتوقه فى أفريقية وإدراك ثأره من أعدائه فيها وجّه الى المغرب اسطولا قويا يقلّ كثيرا من الجيوش فما لبثوا أن أعادوا شرف الخليفة الى ذروته فانهم لم يجدوا فى المغرب مقاومة تذكر الا أمام فاس ومدن أخرى فملـكوها بعد معارك عنيفة بينهم و بين جنود من كتامة وصنهاجة وأخضعوا كلّ البلاد الممتدّة من فاس الى البحر المحيط وعاد خطباء

المنابر فى جميع المساجد يخطبون باسم الامام عبد الرحمن الثالث أمير المؤمنين وقد عمّ السرور شعوب السوس وقبائل زناتة واضطر الأمير الحسن بن قنّون الادريسي الى أن يعود الى طاعة الناصر وقد أطاع ولىّ عهده الحكم أيضاً

— منثورات —

١ — كان من عجائب الدنيا مدينة الزهراء التي اختطها عبد الرحمن الناصر فى أول محرم سنة ٣٢٥ (نوفمبر سنة ٩٣٦) فى شمال قرطبة على نحو خمسة أميال منها وجعل طولها من الشرق الى الغرب ألفين وسبعمائة ذراع وعرضها ألفا وخمسمائة — يحكى فى سبب بنائها ان الناصر ماتت له سرِيّة وتركت مالا كثيرا فأمر أن يفك به أسرى المسلمين فلم يوجد أسير فى بلاد الافرنج فقالت له جاريته الزهراء وكان يحبها حبا جما اشتهيت لو بنيت لي به مدينة تسميها باسمى ففعل وقد اتقن بناءها وأحكم الصنعة فيها وجعلها مسكنا للزهراء وحاشيته وأرباب دولته — وقال ابن خلدون اختط الناصر مدينة الزهراء واتخذها منزله وكرسيا للملك وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما علا على مبانى اسلافه واتخذ فيها محالات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن اهـ — يروى

المؤرخون انه كان يعمل في عمارة الزهراء عشرة آلاف رجل وألف وأربعمائة بغل وكان من الرجال من له درهم ونصف ومن له الاثنان والثلاثة أجرة فى اليوم وكان من البغال ألف بالكراء لكل بغل فى الشهر ثلاثة مثاقيل — وكان يصرف في العمارة كل يوم من الصخر المنحوت المعدَّل ستة آلاف صخرة سوى الآجر والصخر غير المعدل وكان يجلب اليها الرخام الأبيض من المرية والمجزع من رية والوردي والأخضر من أفريقية من أسفاقس وقرطاجنة والسوارى من رومة وكان يصل جالبي الرخام على كل رُخامة صغيرة بثلاثة دنانير وعلى كل سارية بثمانية وأهدى اليه ملك القسطنطينية مائة وأربعين سارية وكانت تشتمل مباني الزهراء على أربعة آلاف وثلثمائة سارية وعلى ماينيف على خمسة عشر ألف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموّه

وكان يسكنها من الاناث ٦٣١٤ ومن الذكور ١٣٧٥٠ منهم ٣٧٥٠ من الفتيان الصقالبة وكانوا احراسا للخليفة وخدما فى قصره وقيل أن عددهم كان ٦٠٨٧ وكان لهؤلاء من اللحم في اليوم ١٣ ألف رطل تقسم من عشرة أرطال للشخص الى مادون سوي الدجاج والحجل وأصناف الطير وضروب الحيتان — وكان بها بحيرة ذات حيتان يرمى اليها كل يوم مقدار عظيم من الخبز والحمص الأسود المنقوع لتربيتها وحمامان احداهما للعامّة والأخرى للخاصّة وجامع وقصر للخلافة : فالجامع كان يعمل فيه من حذاق العملة ألف عامل وثلثمائة بنّاء ومائتا نجّار وخمسمائة من

الاجراء وسائر الصنائع فاستتم بنيانه واتقانه فى ثمانية وأربعين يوما في شعبان سنة ٣٢٩ وكان ذا خمسة أبهاء ومحراب ومنبر بديع ومقصورة عجيبة وصومعة (مأذنة) وصحن مكشوف وجميعه مفروش بالرخام الحمرى وفى وسطه فوّارة يجرى منها المــاء وطول الجامع من الجنوب الى الشمال سبع وتسعون ذراعا وعرضه من الشرق الى الغرب تسع وخمسون وارتفاع الصومعة أربعون وعرضها عشر فى مثلها (١)

وأما قصر الخــلافة فكان فَخما عليــه حلة من الجمال ممرّدا مشرفا على الرياض فيه مجلس مقرمدة قبّته وحيطانه بقرامد الذهب والفضة يعرف بمجلس الذهب وضع فى وسطه اللؤلؤة اليتيمة التي أهداها ليون ملك القسطنطينية الى الناصر خليفة قرطبة وفيه حوض عجيب منقوش بتماثيل الانسان قالوا انه لاقيمة له لفرط غرابته وجماله وانه لما جلب من القسطنطينية نصبه الناصر فى بيت المنام فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه تماثيل من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس مما عمل بدار الصناعة بقرطبة ترى في هذه التماثيل صور الأسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة والشاهين والطاووس والدجاجة والديك والحِدَأة والنسْر تمجّ الماء من أفواهها الى الحوض

يؤخذ من نفح الطيب انه كان فى كل جانب من هــذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع

(١) المقرى ج ١ ص ٢٦٨

بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سواري من الرخام الملون والبلور الصافي وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار وانه كان في وسط هذا المجلس صهريج عظيم مملوء بالزئبق وكان الناصر اذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أومأ الي أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيل للحاضرين أن المحل قد طار بهم •

وجاء فيه في موضع آخر « لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة أطبق الناس على انه لم يبن مثله في الاسلام البتة وما دخل اليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة ..... الا وكلهم قطع انه لم ير له شبها بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله .... ولو لم يكن فيه الا السطح الممرّد المشرف على الروضة المباهي بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف وبراعه الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون وذهب مصون وعمد كأنما أفرغت في القوالب ونقوش كالرياض وبرك عظيمة محكمة الصنعة وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدي الاوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها » لكفاه فوقانا على ماسواه من القصور

واستمر العمل في مدينة الزهراء نحو أربعين سنة من سنة ٣٢٥ الى آخر دولة الناصر وابنه الحكم

وقــدَّر بعضهم ما كان ينفق في عمارة الزهراء كل عام بثلثمائة ألف دينار مدة الخمسة والعشرين عاما التى بقيت من دولة الناصر فاذا صحّ هذا التقدير كان مجموع ما أنفق فى هذه الأعوام سبعة ملايين ونصف مليون دينار أى نحو ثلاثة ملايين وثلاثة أرباع مليون جنيه لـكن هذا لا يستقيم مع قول ابن بشكوال « كان الناصر يقسم جباية البلاد أثلاثا فثلث للجند وثلث مدّخر وثلث ينفقه على عمارة الزهراء وكانت جباية الاندلس خمسة آلاف ألف ألف (مرتين) دينـار وار بعمائة ألف ألف (مرتين) وثمانين ألف دينار » ولا يخفى ما فى هذا القول من الغلو فانه يبعد أن تـكون جباية الاندلس خمسة مليارات وار بعمائة مليون وثمانين ألف دينار ويظهر ان كلمة (ألف) فى المكرر مقحمة فتكون الجباية خمسة آلاف ألف (خمسة ملايين) وار بعمائة ألف وثمانين ألف دينار — بعد كتابة هذا رأيت فى المقرى فى موضع آخر ما يؤيده قال مانصه « وقال غـير واحد أنه كان يقسم الجباية أثلاثا ثلث للجنـد وثلث للبناء وثلث مدّخر وكانت جباية الاندلس يومئذ من الـكور والقرى خمسة آلاف ألف وأر بعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان » [1]

---

(١) المقرى ج ١ ص ١٧٩

كان القاضي منذر بن سعيد[1] ينكر على الناصر اسرافه في البناء .
في المسهب في أخبار المغرب ان منذر بن سعيد دخل يوما على الناصر باني الزهراء وهو مكبّ على الاشتغال بالبناء فوعظه فأنشده الملك

همم الملوك اذا أرادوا نشرها   من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم   ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاظم شأنه   أضحى يدل على عظيم الشان

ودخل منذر على الناصر مرّة وهو في قبة جعل قرمدها من ذهب وفضة واحتفل احتفالا ظن أنه لم يصل اليه أحد من الملوك فقام خطيبا والمجلس قد غص بار باب الدولة فتلا قوله تعالى « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون» واتبع الآية بما يليق بذلك فوجم الملك ولم يسعه الا احتمال منذر لعظم قدره في علمه ودينه وحضر معه يوما في الزهراء فأنشد الرئيس أبو عثمان قصيدة للناصر منها

سيشهد ما أبقيت انك لم تكن   مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى   وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج وأطرق منذر ساعة ثم أنشد

ياباني الزهراء مستغرقا   أوقاته فيها أما تمهل

---

(١) سبب تعلقه بالناصر خطبته المشهورة أثناء الاحتفال برسل ملك الروم كما سيأتي قريبا

لله ما أحسنها رونقا   لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر اذا هبّ عليها نسيم التذكار والحنين وسقتها مدامع الخشوع لا تذبل اه وقد ذبلت الزهراء في سنة ٣٩٨ وسيأتي بيان ذلك حكى أن الوزير ابن جهور قال وقد وقف على قصور الامويين المتقوضة

قلت يوما لدار قوم تفانوا   أين سكانك العزاز علينا

فأجابت هنا أقاموا قليلا   ثم ساروا ولست أعلم أينا

(٢) — في سنة ٣٣٢ ليلة الاثنين لتسع خلون من ذى القعدة حدث فى قرطبة زلزلة هائلة دامت ساعة ففزع الناس ولجئوا الى المساجد ودعوا الله في كشفها فصرفها عنهم — وفى صباح ليلة الزلزلة هبت عاصفة ردفتها أخرى فاقتلعتا كثيرا من الشجر والنخل — ونزل أثر ذلك مطر وابل يحمل بردا غليظا فقتل كثيرا من الطير والوحش والماشية وأتلف ما أصاب من الزرع (١)

(٣) — عنى الناصر بتربية ابنه الحكم وتهذيبه واختار لتعليمه كبار الاساتذة وشهراءهم حتى استدعى اليه من بغداد اسماعيل بن القاسم المعروف بأبي على القالي وكان ذا حظوة عند العباسيين وشهرة في العراقين العربي والفارسي وكان يصاحب الحكم في قصر الزهراء — ويتردد اليه في ذلك القصر أيضا نخبة العلماء والادباء فشب مولعا بالعلوم والآداب ذا حلم ومكارم أخلاق محبوبا عند الرعية — لذلك ولكونه

(١) ابن عذارى ج ٢ ص٣٣٢

أكبر اخوته كان أهلا لولاية عهد أبيه لكن حسده على هذه الولاية
أخوه عبد الله وكان أيضا ذا علم وحذاقة في الفقه والشعر يعرف علم
الهيئة والفلسفة وقد كتب تاريخا للعباسيين — ومع هذا سوّلت له
بطانته أن يتخذ الوسائل الحائلة دون تولية أخيه فأتمروا به في القصر
المرواني فى ضاحية قرطبة ليقتلوه فى يوم عيد الاضحى فبلغ أمرهم
الخليفة فبادر بارسال كوكبة من فرسانه الصقالبة تحت قيادة أحد
وزرائه فدخلوا القصر ليلا باسم الخليفة وباغتوا الأمير عبد الله ومعه
صاحبه الفقيه أحمد بن عبد البر وشريف آخر يسمى أحمد بن العطار
ويعرف بصاحب الورد وساقوهم الى الزهراء وسجنوهم فرادى ثم
اشخصوا الامير الشاب أمام أبيه فسأله عن جريمته فكانت اجابته
الاضطراب والبكاء ثم سأله وزيران من مجلس الحكومة فى غير حضرة
أبيه فاعترف بما فعله هو وابن عبد البر اعترف بأنه فقد رشده بسماعه
وساوس هذا الفقيه وان هذا ألقى فى أمنيته خطته السوداء انتقاما من
حكومة الناصر لانها لم تعهد اليه بوظيفة قاضى القضاة وأنه لا شريك
له في المؤامرة سواه وبرّأ صاحب الورد من أن يكون له يد في الامر
فلم ينفع عبد الله بكاؤه ولا صدقه ولا شفاعة أخيه بل حكم عليه
بالاعدام فى اليوم الذي كان موعد تنفيذ ما تآمروا فيه وحكم على ابن
عبد البر بضرب العنق فنزعت روحه فى السجن وكانت هذه الحادثة
فى ذى الحجة سنة ٣٣٧ — وقد مات فى هذه السنة المظفر أسوفا عليه .

كذا يقتبس من رومى ومأخذه تاريخ كندى وهاك تعريب مافيه بتصرف :—

عهد عبد الرحمن بولاية العهد لابنــه الحــكم فحلف له الوزراء والولاة والقضاة والـكتاب يمين الطاعة وكان الأمير عبدالله أخوه مولعاً بالعلوم ويساميه فيها وفي الحركات البدنية وركوب الخيل واستعمال الأسلحة وكانت محبة الناس المتفين حوله اياه تعادل محبتهم اخاه فقد جذب قلوبهم اليه بشاشته وكرمه وكان هذان الاميران يتفقان في حسن الشيم ويتصفان بالحذق وسعة المدارك

ولكن عبد الله نفخه ما كان يسمعه من كلمات التملق فاخطأ محجة الصواب ولجأ اليه الناس المتملقون راجين من وراء ذلك نيل أغراضهم فقامت بنفسه افـكار كان من جرائها أن تغيرت حياته السعيدة ذات الشرف والمجد الى حياة ذات بؤس وشقاء فنزع الى انتزاع المملـكة التي عهد بها والده الى أخيه فأجبرته المخاوف التى تحف بهذا الأمر الى العمل فى الخفاء — يذكر أبوعمر بن عفيف هذه الحادثة في كتاب تاريخه الذى أتمه ابن حيّان بالصورة الآتية

كان أعز صديق حميم الأمير عبد الله رجل ذو قدرة خارقة للعادة يسميه بعض الـكتّاب الفقيه احمد بن محمد ويعرف بابن عبد البر وكان يلازم الأمير ملازمة شـديدة حتى يقال انه لم يفارقه قط فـكان يصاحبه فى غـدواته وروحاته وينـدر أن يري عبـد الله بغيره —

كان هــذا الرجل يكتم في صدره مطامع واغراضا فـكان يصانع من فوقه و يعتو على من دونه و يخفي تحت ثياب تنبئ عن الحشمة والوقار نفسا خبيثة ذات مكر ودهاء وعزم أكيد على القيام بمطالبها الخفية أمكن هذا الرجل أن يخدع الأمير عبد الله فذكر له أن الأشراف في قرطبة والأقاليم يظنونه حزينا لأن أباه آثر أخاه الحكم عليه بتوليته إياه ولاية العهد وأظهر له أنه ممتاز عليه بكثير من الصفات الحسنة مما جعل الناس اجمعين يحبونه ولما وجد الأمير مصيرا أذنا لـكلامه زاد أنه اذا أراد أن يخطو بضع خطوات في سبيل انتخاب الجمهور اياه فانه لايجد أدنى صعوبة في هذا الأمر وان هذا هو العلاج النافع لما أصابه من ظلم أبيه وقد ذهب أحمد بن محمد شوطا بعيدا اذ قال أخيرا لعبد الله ان الملك والده ربما يضطر الى تسليم عرش المملكة اليه بدون ريث وأكد له أن جميع ما يعمل في ما يؤدى الى مثل تلك النتيجة هو عين الحق *

ضلّ عبدالله السبيل وفتن بالمنظر الذى أراه إياه ابن عبد البر وتحير حينما سمع منه كلمات الملق ووعْدَه بانه هو الذى يقوم بجميع ما في الأمر ضامنا له حياته وذكر ان ذلك عنده من السهولة بمكان وانه جهّز المعدّات التي لايشك في أنها تؤدي الى النجاح . أثّرت تلك الكلمات في الأمير المخدوع فـكانت سبب نحس طالعه فانها هي التي قادته لاطويته السليمة الي أن أذن لهذا الرجل أن يكوّن له حزبا

ويأخذ هو في جذب قلوب وزراء وقوّاد أبيه الى جانبه — كلاً
عبد الله أصحاب ابن عبد البر بعين الرعاية ونصبهم في بعض المناصب
وأسبل عليهم رضاه التام وفي الوقت نفسه كان يتعرف بأناس من جميع
الطبقات كما أشار عليه مرشده الخادع

لم يعجب أحد حين رأى أن الأمير عبد الله يذهب الى منازل
العلماء الذين طنّ صيتهم في آذانه وأن هؤلاء العلماء يترددون على
قصر مروان الذي كان يسكنه الأمير لانه كان اشتهر بولوعه بالعلوم
الادبية ولكن ابن عبد البر لم يقصر دخول القصر على من يثق بهم
بل جعله عامّا لكل زائر ولم يخصّص الناس الذين يزورهم عبد الله
فكانت نتيجة ذلك ان ذهب أحدهم الى عبد الرحمن وأفشى اليه كل
شيء وأكد له ان هذه الافاعيل لا تؤدي فقط الى صعود عبد الله
فوق كرسي المملكة بل الى انقضاض ملكه العاجل والقضاء على
حياة الأمير الحكم أيضا فان أقل ما في عزم المتآمرين قتله حتى يكون
ضمانا لحياتهم وحدّد اليوم المزمع فيه انجاز الجريمة وهو يوم عيد الاضحى
الذي كان قرب ميعاده .

لم يزل عبد الرحمن غير مصدّق هذه الرواية الا أنه لم يهمل شأنها
لعظمه فدعا عمه الأمير المظفّر وأطلعه سرّا على ما بلغه واتّفقا على أن
يرسل أحد الوزراء في جنح الليل الى قصر الأمير عبد الله ويقبض
عليه ويقوده الى مدينة الزهراء حيث كانت تجتمع المحكمة . فأعد

الوزير ممدّات ذلك وذهب الى قرطبة ودخل باسم الملك قصر مروان الذى كان يبعد قليلا عن المدينة فأدهش ذلك الأميرالذى كان فيتلك الآونة فى صحبة الفقيه ابن عبد البر والفارس احمد بن عبد اللهابن العطار المسمي بصاحب الورد فقبض الوزير على هذين الشخصين لاشتباهه فيأمرهما وساقهما الىالزهراء وحبسهما منفردين لكى يمنعهما من المحادثة

ولمامثل عبد اللهبين يدى أبيه قال له أبوه يظهرلى انك استأت من عدم تبوئك عرش مملكتى فلمحرالامير جوابا ولم يمكنه غيرالبكاء فأمر والده بأن تغلق عليه حجرة ٠

أمر الخليفة وزيرين أن يذهبا ويستطلعا سر المؤامرة من عبد الله ففعلا ذلك ولم يتردد الامير فى الاقرار بماحصل الى الساعة التى قبض عليه فيها

الآن صار من الجلى ان تحريضات ابن عبدالبر هىالتى ألجأت عبد الله الى المؤامرة ضد أخيه وانه هو الذيمهّد السبل للجريمة فان عبد الله لم يعرف أحدا سواه من الذين لهم ضلع فيها وان صاحب الورد كان بريئا لأن عبد الله شهد بأنه لم يدخل في تدبير هذه المكيدة ٠ وقصارى القول أنه قد ظهر للعيان ان الأميرعبد الله لم يحدّث الاعن وساوس ابن عبد البر وعن المكيدة التى دبرها وانه لم يعرف سواه من المتآمرين وان هذا الفقيه أراد بذلك أن

يحصل على وظيفة قاضى قضاة اسبانيا .... فلم يحصل على مبتغاه وقد حكم عليه بالاعدام في اليوم الذى كان موعد تنفيذ جريمته ليكون ذلك شاهدا عدلا على اجرامه — لما علم ابن عبد البر بهذه الحقيقة قال (بيدى لا بيد عمرو) وقتل نفسه فى السجن في ليلة اليوم الموعود وكان ذلك في شهر ذى الحجة سنة ٣٣٨

تتفق الروايات فى أن الحكم طلب العفو عن أخيه ولكن عبد الرحمن الناصر أجابه ان شفاعتك وطلبك العفو لاخيك لجليلان ويعودان بالنفع عليك وانى اذا كنت فى مرتبة أحد الاشراف لكان الأمر كما أحببت وكما يملي عليّ ضميرى ولكن لكونى ملكا فلابد أن أنظر الى المستقبل وأكون لأمتى مثالا حسنا واني وان كنت سأبكي ولدى وأحزن عليه ماحييت مضطر الى أن أفعل ماتوحيه إلىّ العدالة ويجب علىّ ان اتخذ الخليفة العظيم عمر بن الخطاب قدوة وأسير على منواله في العدل وعلى ذلك لا تستطيع دموعك المنسكبة أو يأسى المنقطع أو الحزن الذي سيخيّم على أهل بيتنا ان تنقذ أخاك من قصاص ذنب لاريب فى أنه اقترفه

يقال ان الامير عبد الله كتب الى والده بشأن صاحب الورد قائلا له لاتدع انسانا آخر يؤخذ بجريرتى . وفى الليلة نفسها قتل الأمير في سجنه وفي اليوم التالى دفن في مدفن الرصافة واحتفل بجنازته ومشي فى مشهده الحكم واخوته وغيرهم من اسرة مروان

وكثير من اهل المدينة — لم يمض زمن مديد على تلك الحادثة المحزنة حتى أصيبت أسرة الخليفة برزء جديد وهو موت الأمير المظفر عم الملك عبد الرحمن فجزع عليه جزعاً شديدا لأنه كان يحبه كأبيه وهكذا سنة الدهر فان مصائبه يتلو بعضها بعضا ٠

وقال ابن خلدون في هذا الموضوع كان الناصر رشّح ابنه الحكم وجعله وليّ عهده وآثره على جميع ولده ودفع اليه كثيرا من التصرف في دولته وكان أخوه عبد الله يساميه في الرتبة فغصّ بذلك وأغراه الحسد بالنكثة فنكث وداخل من في قلبه مرض من أهل الدولة فأجابوه وكان منهم ياسر الفتى وغيره ونمى الخبر بذلك الى الناصر فاستكشف أمرهم حتى وقف على الجلي فيه وقبض على ابنه عبد الله وعلى ياسر الفتى وعلى جميع من داخلهم وقتلهم أجمعين ٠

٤ — قوّة الناصر البرية التي أخمد بها نيران الفتن التي كانت مشتعلة في الاندلس والتي قهر بها نصارى الشمال وقوته البحرية التي أمكنته من الاستيلاء على سبتة مفتاح المغرب وعلى تونس القريبة من القيروان احدى عواصم مملكة الفاطميين في أفريقية وضخامة ملكه في العمران وعظمة شأنه في الحضارة والعرفان كل ذلك أكسبه شهرة ملأت الآفاق ودفعت ملوك الأمم الأخرى الى الازدلاف اليه ٠ ففي سنة ٣٣٨ (٩٤٩) بعث اليه قسطنطين بن ليون ملك الروم رسلا يحملون اليه هدية وكتابا يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة التي

كانت بين أسلافهما على خلفاء بغداد وكان الكتاب مكتوباً بحروف من الذهب في رَقّ ذي لون سماوي وفيه طرس سماوي أيضاً مكتوب بحروف من الفضة يصف الهدية وأصنافها وكلاهما بالخط الاغريقي وعلى الكتاب طابع ذهب يزن أربعة مثاقيل على أحد وجهيه صورة المسيح عليه السلام وعلى الآخر صورة قسطنطين وابنه رومانوس والكتاب موضوع في علبة من فضة منقوش على غطائها إطار من ذهب فيه صورة قسطنطين مرسومة على زجاج ملوّن بأبدع رسم — والعلبة في جعبة ملبسة بالديباج وكان مفتتح الكتاب ماترجمته في السطر الأول « من قسطنطين ورومانوس المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكي الروم » وفي السطر الثاني « الى العظيم صاحب المجد الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب في اسبانيا أطال الله بقاءه » لما أخبر الناصر بوصول الرسل الى الحدود وجّه للقائهم القائد يحيي بن محمد تحفّه كوكبة من الفرسان فتلقاهم بالتجلّة ورافقهم في الطريق ولما قربوا من قرطبة تلقتهم بالحفاوة فِرَقٌ من الجنود كاملة العَدد والعُدد يقودها كبار القوّاد ثم لقيهم الخَصِيَّان ياسر وتمام كبيرا الموالى أولى السلطان في القصر الخلافي وكان هؤلاء وقتئذ من عظماء الدولة فكان ذلك من المبالغة في الاحتفال بالوافدين ثم أنزلوا في قصر في ضاحية قرطبة وأقيم على حجابتهم بعض وجوه الموالى ومُنِع الناس طرّا من مخالطتهم وفي ١١ ربيع الأول (٧ سبتمبر سنة ٩٤٩)

استوى الخليفة على عرش الخلافة فى قصر قرطبة السلطانى وقعد
ن يمينه و يساره أبناؤه وأعمامه والوزراء والولاة والعلماء على حسب
مراتبهم و وقف فى الخدمة أبناء الوزراء والموالى بأزياء بديعة وفى
الحراسة جنود مدججة بالسلاح مرتبة الصفوف وقد بسط صحن
القصر بنفائس البسط وكرائم الدرانك [1] وظللت أبوابه وحناياه
بظلل الديباج ورفيع الستور فلما جيء بالرسل الى هذا المجلس الزاهر
بهرهم ما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودنوا من العرش وأدّوا
رسالة ملكهم • حينئذ أمر الخليفة أن يخطب العلماء والشعراء بما يناسب
المقام فراعهم هول المحفل وأبّهة الخلافة فارتج عليهم وكان منهم اسماعيل
أبو علي القالى [2] البغدادي وكان فى بطانة الحكم ولىّ العهد قام يخطب
بأشارة منه فحمد الله وصلى على نبيه ثم بهت فقام الفقيه منذر بن سعيد
من ذاته و وصل افتتاح القالي بكلام بليغ خلب الالباب واسترق
الاسماع ولما انفرط عقد الجمع أخذ الناس يطرون منذرا و يعجبون
من ثبات جنانه وسحر بيانه وأعجب به الناصر وولاّه الصلاة
والخطابة فى جامع الزهراء ثم ولاّه قضاء قرطبة • و بعد أيام انصرف
هؤلاء الرسل وبعث الناصر معهم وزيره هشام بن هذيل بهدية من
الصافنات الجياد ومن الاسلحة القيّمة المصنوعة فى قرطبة وطليطلة
ليوطّد دعائم المودة بين الملكين ورجع بعد سنتين وعاد معه

---

(١) جمع درنك بكسر الدال والنون وهو الطنفسة (٢) نسبة الى قاليقلا

رسل قسطنطين.

ثم بعد ذلك وفد على الناصر رسل من ملوك أمم أوروبا: الصقالبة والالمان والافرنج القاطنين وراء البرت والافرنج المتاخمين لهم من جهة الشرق ووصل مع رسولهم رسول صاحب برشلونة وطركونة ووصل بعده رسول صاحب رومة فاحتفل الناصر لقدومهم وأجاب رغباتهم ورجعوا معجبين بحضارة الاسلام فى الاندلس. هذا مجمل كلام[1] المؤرخين الذى لا مرية فيه لكنهم اختلفوا في أسماء ملوك تلك الأمم فقد جاء في المقري ان ملك الصقالبة يومئذ (دوقوه) وفي ابن خلدون انه (هوتو) وفيهما ان ملك الافرنجة وراء البرت (أوقة) وملك الافرنجة بقاصية المشرق (كلدة) وقال ابن عذارى « في سنة ٣٤٤ قدمت رسل (هونوا) ملك الصقالبة على الناصر» وقال دوزى ان مؤرخى قرطبة يسمون ملك الصقالبة (أوتون Otton[2]) وقال رومى ان العرب يسمونه (دوقو) آخذين ذلك من لقبه (دوق Duc) ويسمون ملك الفرنك وراء جبال البرانس (أوقة Ouketh) وهو (هوغوس Hugues) ملك إيطاليا وپروفنسا وأنه جاءت بعثة من امرأة ملك الفرنك الآخر المسمى (كارة Kalara) [3] وانه جاء الى قرطبة رسل من كونت برشلونة الذى كان يسمى (سونيارة

(١) انظر الذنابة الثالثة (٢) أنظر هامش ص ٦٠ ج ٣ ـ في Otton زيادة نون وحذف هاء وفي (هوتو) العكس ويظهر ان الاسم الحقيقى (هوتن) فابحث (٣) بالراء بعد اللام وفي ابن خلدون والمقرى (كلدة) بالدال ويظهر ان أحدهما محرف عن الآخر

Suniaire) يصحبون سفراء الملكة أرملة (شارل الساذج Charles-le - simple) ووالدة (لويس الرابع) اه [1]

وأقول ان أمبراطور ألمانيا الذى كان في عصر الخليفة عبدالرحمن هو (أوثون الاول Othon) فانه ارتقى على عرشها سنة ٩٣٦ م (٣٢٤ ه) ومات سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ ه) وأخضع الصقالبة فيظهر انه الذى بعث رسولا أو رسلا الى الناصر — وأن دوق فرنسا فى ذلك العصر كان (هوغوس Hugues) فانه مات سنة ٩٥٦ (٣٤٥) فيظهر أنه هو الذي يحرفون اسمه الى (أوقة) — وأنه يستنتج من مقارنة عبارة روى الأخيرة بما فى التواريخ العربية من أن رسول ملك برشلونة وطرّكونة وصل الى قرطبة مع رسول (كلدة) ملك الافرنجة بالمشرق ان اسم (كلدة) أو (كارة) محرف عن (كارلة) أو (كارلوس) أو (شارل Charles) وان لم يَخلُ الكلامان من اختلاف

٥ — كان الناصر يقوم بأعباء مملكته بنفسه ولا يكل شيئاً منها الى غيره فكانت تستغرق أوقاته — لكنه فى سنة ٣٤٤ وزّع بين وزرائه أعمال ديوانه فاختص الوزير جهور بن أبى عبدة بالنظر في كتب أهل الخدمة والوزير أحمد بن فطيس بالنظر فى كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف والوزير الكاتب عبد الرحمن الزجالي

---

(١) ج ٤ ص ١٩٢

بالنظر فى تنفيذ كل ما يخرجه من العهود والتوقيعات والوزير محمد بن جدير بالنظر في مطالب الناس وتنجيز التوقيعات لهم فالتزم القوم ما ألزموا به وكان الخليفة يشرف على جميع أعمالهم

٦ — ساقتنا الحوادث التاريخية السالفة الى سنة ٣٥٠ وفى ثالث رمضانها أفل نجم عبد الرحمن الثالث وهو ابن اثنتين وسبعين سنة بعد ان حكم منها ما ينيف عن خمسين سنة ٠ كان واسطة عقد ملوك بنى أمية فى الاندلس يمتاز ببلاغته وشجاعته وأقدامه وعدله وكرمه ورأفته بالرعية

أطفأ نيران الثورات التى كادت تقوض دعائم ملك بني أمية فى الأندلس تارة بلسانه وأخرى بسيفه وقاد الجيوش بنفسه الى بلاد الاعداء حتي خضعت له ممالك الشمال وامتد سلطانه فى بلاد المغرب من أفريقية وسارت البلاد في عهده شوطا بعيدا في سبل الحضارة والعمران وتقدمت الزراعة والصناعة والتجارة وارتقت العلوم والفنون والآداب ولاسيما الشعر

مما ينبئ عن رقى زمن الناصر ما يحكى انه أراد الفصد فقعد بالبهو فى المجلس الكبير بأعلى قصره بالزهراء واستدعى الطبيب فأخذ المبضع وجس يد الخليفة فبينما هما على هذه الحالة إذ أطل زرزور فصعد على أناء ذهب بالمجلس وأنشد

أيها القاصد رفقا بأمير المؤمنينا

انما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

وكرر ذلك المرة بعد الأخرى فاستظرفه الناصر وسأل عمن علم الزرزور ذلك فقيل له انها السيدة مرجانة أم ولده الحكم فوهب لها ماينيف عن ثلاثين ألف دينار (١)

ويؤخذ من دوزي انه فى مارس سنة ٩٦١ مرض عبد الرحمن الثالث وخيف على حياته ومع هذا نجح الأطباء فى علاجه — وفى أول يوليو نقه من مرضه ولكن النقاهة ما كانت الا ظاهرية فقد انتكث وعاد اليه مرضه وفي ١٦ اكتوبر من سنة ٩٦١ أسلم الروحَ الى بارئها وهو ابن سبعين سنة حكم منها نحو تسع وأربعين سنة .

كان له المقام الأول بين ملوك بني أمية فانه قد جاء بالعجائب: وجد المملكة فوضى ممزقة بالأحزاب مقسمة بين جملة أمراء من أجناس مختلفة معرضة لاغارات نصارى الشمال المستمرة ومشرفة على أن يبتلعها الليونيون من جهة والأفارقة من جهة أخرى ورغما عن العقبات التى لا تحصى خلّص الأندلس من التهلكة فى الداخل والخارج وبعثها أعظم وأقوى مما كانت عليه وأكسبها النظام والسعادة فى الداخل والاعتبار والاحترام فى الخارج وجد خزائنها خالية فى حالة يرثى لها فأفعمها بالأموال حتى بلغ دخل المملكة السنوى الى ستة ملايين ومائتين وأربعين وخمسة آلاف دينار وكان ثلث الدخل

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٠

يكفي للمصر وفات العادية والثلث الثانى يدّخر والثلث الاخير مخصّص للبناء . أكد سائح يعنى بالامور المالية ان عبد الرحمن والحمدانى الذى كان يحكم وقتئذ فى بلاد الجزيرة (بين دجلة والفرات) كانا من أغنياء الملوك فى ذلك الزمان ولاريب أن بين ضخامة الجباية العامة وارتقاء البلاد ارتباطا — كانت الزراعة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم والآداب زاهية زاهرة فى عصره فكان الغريب يروقه جمال المزارع وطرق أرواتها الهندسية العجيبة التي كانت تخصب الاراضى المجدبة و يعجب من كمال النظام المستولى على الاقضية بواسطة الشرطة المتيقظين و يستغرب من انخفاض أثمان الاطعمة ومن نظافة الملابس ومن الرفاهية العامة التي كانت تسمح للسابلة بركوب البغال بدل السير على الاقدام — كانت قرطبة والمريّة ومدن الاندلس الاخرى غنية بصناعاتها العديدة المختلفة — واتسعت فى عهده دائرة التجارة وكانت رسوم الجمارك عن الصادر والوارد تكوّن الجزء الاعظم من دخل المملكة — كانت قرطبة في عصره تضارع بغداد في العظمة والحضارة وقد بلغ عدد سكانها الى نصف مليون وعدد مساجدها الى ثلاثة آلاف وعدد قصورها ودورها الى مائة وثلاثة عشر ألفا وعدد حماماتها الى ثلثمائة وعدد ضواحيها الى ثمان وعشرين

ذنابات

هذا انا سيرتاريخ الناصر فيامر الى الكلام على حروبه فى أفريقية وقد كان فيها لعهده سلالتان يرجع نسبهما الى على بن أبى طالب وهما الادارسة والفاطميون وكان ينبغى لنا أن نستطرد حين عرضت هذه الحروب بذكر لمحة نبين فيها منشأ هاتين السلالتين وكيف تهيأ لهما بعد الانتقال من المشرق تأسيس دولتين فى المغرب ولكن رأينا الاستطراد هناك يقطع تسلسل حلقات التاريخ فأفردنا له ذنابتين

(الاولى فى الادارسة) كان لعبد الله حفيد الحسن بن علىّ بن أبي طالب ستة أبناء دوّن التاريخ لهم أعمالا هامّة فى الدين والسياسة: تفرقوا فى الجهات وبايعهم الناس لاعتقادهم ان الامامة فى نسل علىّ ونازعوا بني العباس في الخلافة وحاربهم هؤلاء وفتكوا بهم واطلّوا دماءهم

من أولئك الأبناء ادريس وهو أصغرهم كان يقاتل مع الحسين حفيد عمه الحسن الثالث أخي عبد الله وحفيد الحسن السبط بني العباس أيام الهادي فى وقعة وجّ [١] على ثلاثة أميال من مكة سنة ١٦٩ للهجرة فلما دارت الدائرة على الحسين وقتل وولّي أصحابه أفلت من الهزيمة إدريس ولحق بمصر وعاملها يومئذ مولى لبنى العباس اسمه واضح وكان يتشيع لآل علىّ فحمله على البريد الى برقة ومعه مولاه راشد ومنها

---

(١) بواو مفتوحة وجيم مشددة وقيل فج بالفاء وقيل فخ بالخاء

توجّه الى القيروان حاضرة أفريقيـة وفيها ابراهيم بن الاغلب عامل
بنى العباس — أراد الله أن يكون لادريس دولة بالمغرب كما أتاح لعبد
الرحمن الداخل دولة بالأندلس فأعمى ابصار الرقباء العباسـيين عنه
وكان يتزيّا بزىّ الارقاء تمويهاً للأنظار — ثم انتقل الى تلمسـا
قصبة المغرب الأوسط واستراح فيها أياما ثم عبر نهر ملوية متجهاً ا
طنجة مدينة السـوس الأدنى وكان أخصب أقاليم المغرب الأقص
فلم يُقم بها طويلا لأنه لم يجد فيها الوسائل التى تؤدّى الى ماتطمح ا
أنظاره فتركها ونزل وَايلى [١] وكان بها يومئذ اسحق بن عبد الحم
اميرأوْرَبَة [٢] وكان من المعتزلة فقابله بالحفاوة وأكرم مثواه ودعا قبائ
المغرب الأقصي الى طاعتـه فأطاعوه وبايعوه على أن يكون أميرهم ف
رمضان سنة ١٧٢ (٧٨٨)

خاطب ابن الاغلب هارون الرشـيد فى شأن ادريس فدس
اليه من سمّه فهلك سـنة ١٧٥ وترك حظيّة حبلى تسمى كنزة فقا
بأمر البربر مولاه راشد ولما وضعت جنينها سمّوه ادريس باسم أ
وكفله راشد الى ان قتل سنة ١٨٦ وقام من بعده بالـكفالة أبو خا
العبدي الى أن بايعوا ادريس سنة ١٨٧ وهوابن اثنتى عشرة س
واستوزر مُصْعَب بن عيسى الأزدى وقتل اسحق كبير قبيلة أورَ

(١) بفتح أوله وكسر ثانيه ورابعه مدينة بالمغرب قرب طنجة — ياقوت
(٢) أوربة بفتح فسكون ففتح قبيلة من البربر مساكنهم قرب فاس.

سنة ١٩٠ لما أحس منه بموالاة ابراهيم بن الاغلب — ولما ضاقت وليلى بسكانها اختط مدينة فاس ذات عدوتين عدوة الاندلسيين سنة ١٩٢ وعدوة القرويين سنة ١٩٣ فانتقلوا اليها وغزا المصامدة سنة ١٩٧ وفتح بلادهم وضايق ابراهيم بن الأغلب والى القيروان فدافع هذا عن حماه واستمال بهلولا المظفرى وقومه عن طاعة ادريس الى طاعة الرشيد — فاستراب ادريس بالبربر فاتخذ زهاء خمسمائة من عرب أفريقية والاندلس نزعوا اليه بطانته فاستقام بهم سلطانه وعجز الاغالبة عن مدافعة الادارسة وهلك ادريس سنة ٢١٣ وخلفه ابنه محمد وأشرك اخوته في سلطانه باشارة جدته كنزة فقسم المغرب بينهم فكان من نصيب القاسم طنجة والبصرة [1] وسبتة — وعمر صنهاجة وغمارة وداود هوّارة ومكناسة — وعبد الله اغمات [2] وجبال المصامدة وبلاد لَمْطة [3] والسوس الاقصى — ويحيى أصيلة [4] وعيسى سلا [5] وأزْمُورة [6] وحمزة وليلى وأعمالها — خرج عيسى بأزمورة على أخيه

---

(١) البصرة هنا غير بصرة العراق وهي بلد فى أقصى المغرب قرب السوس خربت وكان بينها وبين فاس أربعة أيام (٢) اغمات ناحية فى بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش وهى مدينتان متقابلتان ومن ورائها الى جهة البحر المحيط السوس الاقصى بأربع مراحل ومن سجلماسة ثمانى مراحل وبينها وبين مراكش ثلاثة فراسخ (٣) لمطة بالفتح ثم السكون أرض وقبيلة من البربر بأقصى المغرب (٤) أصيلة أول مدينة العدوة ما بين الغرب والبحر بغربيها وجنوبيها وهى بغربي طنجة بينهما مرحلة (٥) سلا بالفتح مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور الامدينة صغيرة يقال لها غرنيطوف (٦) أزمورة بثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم بلد بالمغرب في جبال البربر

محمد طالبا الامر لنفسه فبعث لحربه أخاه عمر بعد أن دعا القاسم لذلك فامتنع فأوقع عمر بعيسى ثم بالقاسم وغلب على ما في أيديهما فصار ريف البحر الرومي من بلاد غمارة الى سبتة ثم الى طنجة وريف البحر المحيط من سلا الى أزمورة من عمل عمر واتسعت ولايته الى أن هلك سنة ٢٢٠ بصنهاجة فنقل الي فاس ودفن بها وهو جد بني حمود المستولين على قرطبة عند انقراض ملك الامويين — وولّى الأمير محمد عمل أخيه لولده عليّ بن عمر وهلك محمد سنة ٢٢١ بعد ان استخلف ابنه عليا وهو ابن تسع سنين فكفاته بطانة أبيه وطاعته سائر البربر وكانت أيامه خير أيام ومات سنة ٢٣٤ وخلفه أخوه يحيي فامتدّ سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستجدت فاس في العمران وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وفي عهده اختطت سيدة مثرية تسمى فاطمة المسجد الجامع وكان أبدع بدائع المغرب — ومات يحيي فخلفه ابنه يحيي فاساء السيرة فثارت به العامة وأخرجوه من عدوة القرويين الى عدوة الاندلسيين فمات بها — وبموته انقطع عقب محمد بن ادريس كذا يؤخذ من ابن خلدون — ويؤخذ من ابن عذاري ان الذى خلف محمدا ابنه يحيي فلم يحسن سياسة الملك لانهماكه في الشراب ولهوه بالنساء وانه دخل يوما الحمام على امرأة فتغير عليه أهل فاس فهرب الى عدوة الاندلس ومات بها — وخلفه علي بن عمر صاحب الريف فجاء الى فاس وبايعوه واستولى على أعمال المغرب الى أن ثار عليه عبد الرزاق

الخارجي وملك منه عدوة الاندلس وألجأه الى أورَبة وخلفه في عدوة القرويين يحيي بن القاسم بن ادريس وأخرج الخارجي من العدوة الاخرى وطالت امارة يحيي بفاس الى أن قتله الربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ وخلفه يحيي بن ادريس بن عمر صاحب الريف فتفرد بملك المغرب وفاق اسلافه سلطانا وعلما ولكن فى عهده أخذ الفاطميون يمدون بساط ملكهم فى أفريقية ومدوا انظارهم الى ملك المغرب فأغزى اليه عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين قائده مصالة بن حبوس المكناسي صاحب تاهرت سنة ٣٠٥ (٩١٧) فى رجالات مكناسة وكتامة فأوقع بيحيي صاحب فاس وهزمه اليها وحاصرها ثم صالحه على الخراج والطاعة لمولاه وعلى عمل فاس خاصّة وولى ابن عمه موسى بن أبي العافية كبير مكناسة يومئذ أعمال المغرب ماعدا فاس ورجع فكان بين موسى ويحيي شحناء فلما عاود مصالة غزو المغرب سنة ٣٠٧ وقيل سنة ٣٠٩ اغراه موسى بيحيي فغدر به واستصفى أمواله وضم أعمال فاس الى موسى ومحا دعوة الادارسة من المغرب واجهضهم عن أعماله فتحيزوا الى بلاد الريف وغمارة واستجدوا بها ولاية — بذلك سقط نجم الادارسة من المغرب وظهر كوكب الفاطميين فى أفريقية — ومع هذا في سنة ٣١٣ عاد الحسن بن محمد بن القاسم بن ادريس الى فاس وطرد منها ريحان عامل موسى وملكها عامين وحارب موسى لكنه انهزم الى فاس فلما دخلها ابن أبي العافية فر الحسن ومات أثناء فراره

وكان يعرف بالحجام لانه تكرر منه عند القتال أصابة موضع المحجم وقد قال فى ذلك

وسمّيت حجاما ولست بحاجم　　　ولكن لضربي في مكان المحاجم

استولى موسى على ملك فاس واجلى بني محمد بن القاسم بن ادريس الى الريف فنزلوا البصرة وولوا عليهم ابراهيم أخا الحسن الحجام فاختط حصن حجر النسر سنة ٣١٧ وخلفه أخوه القاسم ونزع الى الفاطميين وقام بدعوتهم كما نزع موسى بن أبي العافية الى خليفة قرطبة وقام بدعوته فى المغرب والسبب فى ذلك أن الشيعة أرسلوا قائدهم حميد بن يصل الى المغرب فانتزع فاس من عامل موسى سنة ٣١٧ وولّي عليها حامد بن حمدان لكن بعد عودة حميد الى أفريقية قام أهل فاس وقتلوا حامدا وابنه وبعثوا برأسيهما الى موسى فبعث بهما الى قرطبة ـ وكان بنو عمر بن ادريس يومئذ بغمارة فانتزع الناصر منهم سبتة سنة ٣١٩

ومن أبناء عبدالله حفيد الحسن السبط السالف الذكر سليمان دخل المغرب بعد هلاك أخيه ادريس وملك تلمسان واطاعته زناتة وخلفه ابنه محمد واقتسم بنوه ثغور المغرب الأوسط فكانت جُراوة لابنه ادريس ثم لابنه عيسى وكنيته أبو العيش ـ ووليها الحسن بن أبى العيش سنة ٢٩١ وانتقل عنها الى تلمسان سنة ٣٢٥

(الثانية في الفاطميين) الفاطميون فريق من الشيعة يقولون انهم من نسل فاطمة الزهراء زوج الامام عليّ وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى له من بعده بالامامة على المسلمين وانها صارت من عليّ الى الحسن ثم الحسين ثم ابنه عليّ زين العابدين ثم ابنه محمد الباقر ثم ابنه جعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٨ وهؤلاء الشيعة يسمون بالامامية واختلفوا بعد هذا الامام السادس فقد كان له ولدان أحدهما اسماعيل وليّ عهده لكنه مات قبل أبيه سنة ١٤٥ وثانيهما موسى الكاظم خلف أباه

فأغلب الشيعة الامامية يرون ان الامامة صارت من جعفر الى ابنه موسى ثم ابنه عليّ الرضا ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه الحسن العسكري ومات هذا سنة ٢٦٠ للهجرة وترك جنينا وضعته أمه وسمته محمدا زعموا انه دخل مع أمه سردابا في جامع سامرّا فلم يعد وانه حيّ واتخذوه امامهم ولقبوه المهدي وهم الآن ينتظرونه فهو عندهم المهدي المنتظر والامام الثاني عشر ولذلك يسمون الاثني عشرية ويروى انهم بعد صلاتهم المغرب يقدمون مركبا بجهازه وحليته الى السرداب وينادونه «أيها الامام اخرج الينا فان الناس منتظرون والخلق حائرون والظلم عام والحق مفقود فاخرج الينا تقرب الرحمة من الله في آثارك» ومذهبهم منتشر في المدينة والشام والعراق

وقد تصدّى خلفاء بني العباس لأئمة الاثني عشرية بالاهلاك

فقد أشخص هارون الرشيد موسى الكاظم من المدينة الى بغداد وحبسه حتى مات مسموما سنة ١٨٣ — و بعد ان عهد المأمون لعلي الرضا بالأمر من بعده وكانا بخراسان سمه (على ماقيل) فى الطريق الى العراق ودفن بطوس سنة ٢٠٣ — وقال بعضهم ان المقتدر سم عليا الهادي سنة ٢٥٤ — وحبس الحسن العسكري بسامرا حتى هلك سنة ٢٦٠ ودفن في جامعها المعروف بالمشهد وفيه السرداب الذي تزعم الشيعة ان مهديهم يخرج منه

والقليل منهم يرون ان الامامة حلّت فى اسماعيل فان الله عهد بها اليه على لسان أبيه جعفر والاله لا ينقض عهده وانها انتقلت من اسماعيل الى ابنه محمد المكتوم ثم ابنه جعفر المصدّق ثم ابنه محمد الحبيب ثم ابنه عبيد الله المهدى صاحب الدولة الفاطمية فى أفريقية — وهؤلاء هم الاسماعيلية وكان أئمتهم مستورين ولهم دعاة ظاهرون فقد أنفذ امامهم جعفر الى أفريقية الحلواني وأبا سفيان وقال لهما « بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر » فنزلا أرض كتامة ففشت دعوتهم فيها — وأنفذ امامهم محمد الحبيب وكان ينزل سَلَمية من أرض حمص بالشام رستم بن الحسن بن حوشب الكوفى الى اليمن لاقامة دعوتهم فيه ومبشرا بقرب ظهور المهدي فسار الى عدن ودعا و بشّر وقاتل وغلب حتى ملك صنعاء من بنى يعفر واجتمع به وهو فى عدن أبو عبد الله الحسين الصنعاني وحضر مجالسه وأخذ عنه فانفذه ابن

حوشب الى المغرب حين بلغه موت الحلوانى وصاحبه وقيل ان أبا عبد الله كان محتسبا بالبصرة ويعرف بالمعلّم لانه كان يعلّم مذهب الامامية فاتصل بمحمد الحبيب فأرسله الى ابن حوشب وهذا أرسله الى كتامة بعد ان زوّده بعلمه فسار الى مكة فلقى بموسم الحج رجالات كتامة ورؤساءهم وفيهم من لقى الحلواني وأباسفيان وأخذ عنهما فاستمالهم اليه بعلمه ودهائه فألفوا صحبته ودعوه الى بلادهم فرافقهم ومروا بمصر وسلكوا طريق الصحراء عادلين عن طريق القيروان مركز حكومة بني الأغالب ودخلوا كتامة سنة ٢٨٠ (وقيل ٢٨٨) فنزل أبو عبد الله الشيعى فى فج الاخيار من بلد إنكجان أو ايكجان ودعا الناس الى مذهب الشيعة وأعلن امامة أهل البيت فاتبعه أكثر كتامة وأخذ أمره يستفحل شيئا فشيئا حتى انتزع البلاد من أيدى بنى الاغالب وفرّ أميرهم الاخير (زيادة الله) من مدينة (رقّادة) وملكها الشيعى سنة ٢٩٦ — فى هذه الاثناء مات الامام محمد الحبيب وخلفه ابنه عبيد الله المهدى فدعاه الشيعى من المشرق وألقى اليه مقاليد ملك أفريقية فنزل رقّادة سنة ٢٩٧ وسكنها الى أن أكمل بناء (المهدية) على البحر سنة ٣٠٦

وبناء على ماسبق يكون عبيد الله المهدى ابن محمد بن جعفر بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ابن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب وقيل عبيد الله المهدي ابن محمد بن عبد الله بن

ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ـ وعلى كلا القولين ينتهى نسب المهدى هذا الى على بن أبى طالب ـ وقد أثبت صحة هذا النسب بعض المؤرخين وذهب آخرون الى أنه موضوع وانه لم يكن اسم المهدى (عبيد الله) بل اسمه (سعيد) وانه ابن الحسين ابن محمد بن احمد بن عبد الله القداح ابن ميمون بن ديصان وأن هؤلاء زنادقة نشؤا في بلاد فارس وابتدعوا مذهبا شطوا فيه عن الاسلام وأوّلوا نصوصه كما شاءت أهواؤهم ووضعوا الاحاديث الكاذبة وشككوا الناس فى دينهم وادّعوا ان تكاليف الشرع قيود للعامة ساقطة عن الخاصة وأحلوا الاخوات والامهات وكانوا يظهرون التشيع لآل البيت ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة اليهم وكان لهم دعاة فى البلاد يظهرون الزهد والعبادة ليغرّوا الناس بذلك وهم على خلافه

وان جدهم الاعلى ديصان واضع كتاب الميزان في نصرة الزندقة وقد تعلّم عبد الله القداح الطب وعلّمه أبوه المذهب وأطلعه على أسرار هذه النحلة وسمّى قدّاحا لأنه كان يعالج العيون ويقدحها وسار القداح من كَرَج وأصبهان الى الاهواز والبصرة والكوفة وطالقان وخراسان وسَلَمْيَة من أرض حمص يدعو الناس لآل البيت ثم توفى وخلفه ابنه احمد وادعى انه من سلالة على بن أبى طالب وصحبه ابن حوشب الكوفى فأرسله الى اليمن . ثم خلفه ابنه محمد وكان يكاتب الدعاة فى البلاد ـ وخلفه ابنه الحسين وسار الى سلمية وكان ذا أموال ووكلاء

وغلمان فتزوج امرأة يهودي مات عنها ولها ولد منه اسمه (سعيد) فأحبه الحسين وتبناه وأدبه وعلمه وعرفه أسرار الدعوة وعلاماتها وعهد اليه بالامامة فخلفه بعد وفاته وتسمّى (عبيدالله المهدى) وجعل له نسبا وهو (عبيد الله بن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر الصادق ٠٠٠٠) وهذا النسب يدل على أنه جعل نفسه مهدي الاثني عشرية المنتظر وقد انتشرت دعوته و بذل الاموال وأرسل اليه أبو عبد الله الشيعي رجالا من كتامة ليخبروه بما أتيح له من النصر وانهم ينتظرونه وشاع الخبر و بلغ المكتفي العباسى فطلبه فهرب هو وولده الى أفريقية وأسس فيها الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ [١]

ويؤخذ من دوزى أن أصل الفاطميين من الفرس وأن جدهم عبدالله بن ميمون الفارسى كان طبيبا للميون حاذقا فى الفلسفة واللاهوت وبلغ من أمره ان همّ بالتنبؤ لولا أن رأى آيات الخذلان فانحدر الى منزلة (المهدى المنتظر) فأحيا مذهب الاسماعيلية [٢] وكاد يتقلص ظله عقب ان حلّ باشياع على ماحل بهم من الخيبة والفشل فى مقاصدهم وقتلِ كثير منهم بالحديد والسمّ وانزواء بقاياهم فى خراسان وقُندُهار وكان له دعاة فى سائر الجهات يبشرون الناس بقرب ظهور المهدى

---

(١) ابن الاثير وابن خلدون وأبو الفداء (٢) لعله يقصد الاثني عشرية فان مذهبهم هو الذى كاد يتلاشى لقتل أئمته وفقد امامهم الثاني عشر واحياء هذا لمذهب هو المناسب لمقصد ابن ميمون

المنتظر تمهيدا له أو أن يخلفه في سيادة هذا المذهب من أبنائه ومن هؤلاء الدعاة (أبو عبد الله الصنعانى) دخل أرض كتامة من أفريقية سنة ٢٨٠ ه وكان نشيطا جريئا فصيحا ذا دهاء ومكر عارفا مايلائم عقول البربر فأخذ يدعو الكتاميين الى محبة أهل البيت ويعدهم بخير الدنيا والآخرة اذا هبوا بسلاحهم لنصرتهم ويبشرهم بأنه سيظهر قريبا من نسل فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم امام معصوم يقيم قسطاس العدل بين الناس وأنه المهدى الوارد فى الحديث المأثور وما زال يخلب قلوبهم بسحر بيانه وقوة عارضته وبرهانه حتى صدقوه ومالوا اليه وقاموا تحت لوائه وكانوا أولى قوة وكثرة فانتزعوا المدائن من يد آخر أمير من بنى الأغلب بعد ان حكموها حقبة تنيف عن قرن من الدهر والجؤه الى الفرار من (رقّادة) حاضرة القيروان — وفى سنة ٢٩٦ دعا هذا الشيعي سيد مذهب الاسماعيلية فى ذلك الوقت (سعيدا) من ذرية عبد الله بن ميمون طبيب العيون وأجلسه على سرير ملك أفريقية فادّعى سعيد انه من نسل جعفر الصادق وسمّى نفسه (عبيد الله المهدي)

(الثالثة فى السلاف أو الصقالبة) السلاف عند الافرنج هم الصقالبة عند العرب أما الافرنج فيعرّفون السلاف بأنهم نوع من الجنس الهندى الاوربي يمتاز بأخلاقه ولغاته ويقسمونهم الى ثلاثة شعوب كبيرة: السلاف الغربيون فى الروسيا والبروسيا والنمسا والسلاف الشرقيون

وهم روس الشرق والسلاف الجنوبيون ومنهم البُلغار والصرب وفى أوربا منهم مابين ٨٠ و ١٠٠ مليون وأمّا العرب فيعرّفونهم بأنهم جيل من الصقْلَب بن يافث حُمر الالوان صُهب الشعور تتاخم بلادهم بلادَ الخَزَر و بعض بلاد الروم بين بُلغر أو بلغار وقسطنطينية و يسكن كثير منهم بلاد الخزر وجزيرة صِقِلّية وفيها موضع يقال له صقلب أو حارة الصقالبة ولواحدهم صَقْلَبيّ

كان الجرمان يقاتلون الشعوب السلافية و يطلقون على أسراهم اسم (السلاف) و يبيعونهم الى عرب اسبانيا فكان هؤلاء يطلقون عليهم اسم (الصقالبة) ثم توسعوا في استعمال الاسم فأطلقوه على مواليهم المجلوبين من أيّة أمّة أخرى وكان منهم من يخطفهم لصوص البحر (القرصان) ومنهم من يشترون من موانى ايطاليا — وكان اليهود يتجرون فيهم و يتصيدون لأطفال ذكورا وأناثا و يحملونهم على السفن الى أسبانيا ليبيعوهم الى أهلها — وفوق ذلك كانوا يجلبون أيضا خصيانا من فرنسا لخدمة سيدات اسبانيا — ولما كان يجاء بهؤلاء الصقالبة صغارا كان من السهل أن يتدينوا بدين ساداتهم ويتكلموا بلسانهم و يتخلقوا بأخلاقهم — وقد اعتني بتربية كثير منهم فكان منهم قواد وعلماء وشعراء — وكان خليفة اسبانيا يتخذ صقالبته من الجلالقة والفرنك (الفرنسيس والالمان) وغيرهم من

البيض والسود وقد كثر عددهم في عهد عبد الرحمن الثالث في خدمة قصره وفي شرطة قرطبة حتى بلغ ١٣٧٥٠ وكان منهم (نجـدة) القائد العلم الذي كان سبب فشل جيش قرطبة في غزوة (الخندقة) على رأي دوزي كما سبق

تم طبع الجزء الاول من كتاب تاريخ العرب في اسبانيا في أوائل رمضان سنة ١٣٣٢ للهجرة أواخـر يوليو سنة ١٩١٤ للميلاد
ويليـه الجزء الثاني واوله الحكم المستنصر بالله



تدارك ماوقع فى هذا الجزء من الخطأ

وجه	سطر	خطأ	صواب
٧	٣	مأخود من لفظة	مأخوذ من لفظ
١٨	١٤	يجيبه	يجببه
٢٠	٦	الحصه عااريهم	الحصارعليهم
٤١	١٨	ان	وان
٤٨	٦	وثالثها	وثالثتها
٤٨	١٩	طليطة	طليطلة
٥٦	٦	وابن	وهوابن
٥٦	١٧	تدمير	تدمر
٩٨	١٩	يلحقوه فلم	فلم يلحقوه
١٠٣	٨	الحاميّة	الحامية
١٤٦	١٨	الاميربن الحكم	الاميرابن الحكم
١٥١	٧	رباج	رباح
١٧٤	٣	العرب	العرب
١٩٩	١٥	أثناء	أثناء
٢٠٣	٣	لحصار بن حفصون	لحصارابن حفصون
٣٢٠	٤	وأرياضها	وأرباضها

تنبيه . جاء ذكر (السوسن) مرتين في هذاالجزء نقلا عن بعضهم ولا يخلو من نظر فان السوسن زهر

﴿ فهرس الجزء الأول من تاريخ العرب في اسبانيا ﴾

صحيفة

صحيفة

